الصراع العربى الإسرائيلى

السيد يسين

تشريح
العقل الإسرائيلى

تشريح العقل الإسرائيلى



ميريت
للنشر والمعلومات

السـيد يسـين

تشـريح العقـل الإسـرائيلى

ميريت للنشر والمعلومات
القاهرة ٢٠٠٠

السيد يسين

تشريح العقل الإسرائيلى

ميريت للنشر والمعلومات
٦ب ش قصر النيل
القاهرة
تليفون وفاكس:
(٠٢)٥٧٥١٥٠٠
merit56@hotmail.com

المدير العام: محمد هاشم

الطبعة الأولى
القاهرة ٢٠٠٠

الغلاف للفنان:
أحمد اللباد

رقم الإيداع:
٢٠٠٠/٢٦٩٨

إهداء

إلى الأستاذ محمد حسنين هيكل

مؤسس مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية

أستاذاً ومعلماً ورائداً

فهـــــرس

مقـــــدمة

بين عام ١٩٦٨، تاريخ التحاقى بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية كرئيس لوحدة البحوث الاجتماعية منتدبا من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وبين عام ١٩٩٩ حيث نشرت مقالاتى الأخيرة فى الأهرام عن التطبيع وثقافة السلام فى زمن الحرب، دار التاريخ دورة كاملة!

كنت قد عدت من بعثتى العلمية فى فرنسا التى أوفدنى إليها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى نهاية عام ١٩٦٧، بعد أن أمضيت مع زملانى أعضاء البعثات العلمية فى باريس أسابيع مريرة قبل الحرب وبعد الهزيمة. رجعت إلى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية لأواصل مشروعى العلمى الذى بدأته فى المركز عام ١٩٥٧ فى مجالات القانون وعلم الإجتماع القانونى وعلم الاجتماع، ولم أكن قد درست من قبل تاريخ الحركة الصهيونية، ولا تابعت عملية إنشاء المجتمع الإسرائيلى الاستيطانى.

ولكن حدث عام ١٩٦٨ أن قدمنى إلى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الصديق الراحل الدكتور جمال العطيفى، والذى جمعتنى به نشاطات مشتركة فى إطار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع. وفى هذا المركز الناشئ التى أسسه برؤية حضارية مستنيرة الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين

هيكل، تشكلت أول فرقة علمية بحثية لدراسة الصهيونية والمجتمع الإسرائيلي من كافة جوانبه العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. وفي إطار تطوير المركز بعد أن تحول من مركز للدراسات الفلسطينية والصهيونية إلى مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية عام ١٩٧٠، اقترحت على المركز تقسيمه إلى وحدات بحثية مستقلة، مستفيداً في ذلك من خبرة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية. وكلفت بإنشاء وتأسيس وحدة البحوث الاجتماعية لدراسة المجتمع الإسرائيلي من وجهة النظر السوسيولوجية، وبدأت نشاطي العلمي بالاطلاع المتعمق على نشأة وتطور علم الاجتماع الإسرائيلي، واستطعت أن أرسم له خريطة معرفية كاملة، وكان في قلبها بحوث عالم الاجتماع الإسرائيلي المعروف أيزنشدات صاحب المرجع الهام " المجتمع الإسرائيلي ".

وشرعت في تكوين فريق بحثي تشكل من أساتذة علم النفس والاجتماع، الذين كان لديهم استعداد كامل للتخصص في إسرائيل من زاوية علم الاجتماع وعلم النفس والأنثربولوجيا. ومن أبرزهم الدكتور محمد عزت حجازي أستاذ علم الإجتماع بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، والدكتور قدري حفني أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس، والدكتور حسين فهيم أستاذ الأنثربولوجيا بالجامعة الأمريكية. وقد استطاع هذا الفريق البحثي أن ينشر مجموعة متميزة من الأبحاث والكتب عن المجتمع الإسرائيلي، كانت هي بداية الاهتمام العلمي في مصر بهذا الموضوع الخطير، والذي على أساسه كونا عديداً من الباحثين الشباب، وساهمنا – من خلال مقالاتنا في الأهرام – في رفع الوعي العام ببنية وسيكولوجية المجتمع الإسرائيلي.

وحين دعيت – بمناسبة نشر مقالاتي الأخيرة عن التطبيع وثقافة السلام في زمن الحرب – إلى نشر دراساتي وأبحاثي ومقالاتي عن الصهيونية وإسرائيل، وجدت أن أول مقال نشر لي في الأهرام كان بتاريخ ١٩٦٨/١٠/٢٥ وكان عنوانه: "إسرائيل بين خرافة المجتمع اللاطبقي وحقيقة الصراع الاجتماعي". أما آخر مقال نشر لي في الأهرام فكان في يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٩٩ وكان عنوانه: "ثقافة للسلام أم محو للذاكرة التاريخية ". ومعنى ذلك أنه مضى بين نشر المقال الأول والأخير ثلاثون عاماً كاملة، لم أنقطع فيها عن التعرض لمشكلات الصهيونية وتحولات المجتمع الإسرائيلي، بالإضافة إلى تعقب مختلف المراحل التي مر بها الصراع العربي

الإسرائيلى، وذلك فى صورة مقالات صحفية وبحوث أكاديمية.

والكتاب الذى أقدم له اليوم يتضمن مجموعة من الدراسات الأكاديمية، ومجموعة كاملة من المقالات الصحفية. الدراسة الأولى عنوانها "الصهيونية إيديولوجية عنصرية"، وقد طبقت فيها منهجية "التحليل الثانوى" وتعنى إعادة تحليل البيانات الإحصائية والميدانية الإسرائيلية وفق إطار نظرى يختلف عن الأطر النظرية التى تبناها الباحثون الإسرائيليون لإخفاء حقيقة المجتمع الاستيطانى الإسرائيلى، والالتفاف حول الاتجاهات العنصرية التى تسوده. والدراسة الثانية دراسة مستقبلية حاولت فيها بتطبيق إطار نظرى متماسك عن الصراع والتباين فى العلاقات الدولية، أن استكشف مختلف أنواع التفاعلات بين مصر وإسرائيل فى المستقبل.

ويبدأ الكتاب فى الفصل الأول بالدراسة الأولى، ويتبعه الفصل الثانى الذى جمعت فيه مقالاتى عن بنية وسيكولوجية المجتمع الإسرائيلى، وفى الفصل الثالث المقالات الخاصة باتجاهات الرأى العام الإسرائيلى، ويتبعه الفصل الرابع عن التطبيع وثقافة السلام، ويختتم الكتاب بالدراسة المستقبلية عن الصراع الحضارى بين مصر وإسرائيل.

وقد قدرت أنه قد تكون هناك فائدة علمية من جمع هذه الدراسات والمقالات التى تمثل جهد باحث علمى متخصص فى علم الاجتماع، إندرج فى مسيرة الباحثين العلميين الذين أولوا المجتمع الإسرائيلى كل اهتماماتهم، ليقدموا لجمهور الباحثين والمثقفين والمواطنين صورة موضوعية لمجتمع العدو التاريخى بدون تهوين أو تهويل. وكان صدور كتابى " الشخصية العربية بين مفهوم الذات وصورة الآخر " الطبعة الأولى مركز الدراسات السياسية الاستراتيجية عام ١٩٧٣، والطبعة الرابعة، القاهرة، مدبولى، ١٩٩٦ يمثل واسطة العقد فى بحوثى عن الصهيونية وإسرائيل، لأنه صدر قبيل حرب أكتوبر لتثبيت اليقين فى قدرة الشعب المصرى بكل فئاته على تحدى المستحيل، وعلى انتزاع زمام المبادرة التاريخية من الدولة الإسرائيلية العنصرية. وهو التحدى الذى ينبغى أن نواجهه فى المستقبل لو أردنا أن نحمى الشعب المصرى والشعب العربى كله من مخاطر التهديد والعدوان،

والله ولى التوفيق،

السيد يسين

القاهرة فى أول يناير ٢٠٠٠

الفصل الأول

الصهيونية إيديولوجية عنصرية
دراسة تحليلية ونقدية

- مقـــــدمة
- أولاً: تعريف بالمصطلحات الأساسية
- ثانياً: الصهيونيـة: الحل العنصرى للمشكلة اليهودية
- ثالثاً: الإيديولوجيـة الصهيونيـة وبنـاء المجتمع الإسرائيلى العنصرى
- رابعـاً: تحليـل سياسـى لتشكيل الشخصية الإسرائيلية العنصرية

مقـــــــدمة (*)

أثـار القـرار الـذى أصدرتـه الجمعيـة العامـة للأمـم المتحـدة الخـاص باعتبـار الصهيونية صورة من صـور العنصريـة وحركـة تمـارس التمييز العنصـرى، ردود أفعال واسعة المدى فى كافة أنحاء العالم. وقد كـان القـرار بمثابـة الصدمـة بالنسبة لعديد من الدوائر السياسية والثقافية الغربية المناصرة للصهيونية، والتـى دأبـت منـذ انشاء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ على تأييد سياستها ضد العرب، مهمـا تطرفـت فـى عدوانها، أو بالغت فى همجيتها. ولسنا فى حاجة إلى التأكيد أن القرار كان لـه وقـع بالغ السوء على الدوائر الصهيونية ذاتها خصوصا فى الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وأوربا، وقبل ذلك فى إسرائيل بطبيعة الحال.

والحقيقة أن هذا القرار يلفت النظر إلى أهمية تأصيل دراسة الظاهرة الصهيونية، باعتبارهـا فـى المقـام الأول إيديولوجيـة عنصريـة، قـامت علـى أساسـها عمليـة الاستيطان الاستعمارى فى فلسطين [1] التى أدت فى النهاية إلى إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

وهذه الدراسة التأصيلية تحتاج إلى منهـج تـاريخى يتتبـع الأصـول الأولـى لنشـأة الصهيونية، ويربط بينها وبين المناخ الفكرى الذى كان سائدا فـى أوربـا فـى القـرن التاسـع عشـر، ليحـدد نمـط الصـلات العضويـة الوثيقـة التـى تربـط بيـن عنصريـة الصهيونية والتيار العنصرى الكاسح الذى كان يسود أوربا فى ذلك الحين، مصاحبـاً لحركة الاستعمار العالمية، ومبررا لها فى نفس الوقت. ومن ناحية أخرى لابـد مـن الاعتماد أيضاً على المنهج الاجتمـاعى، لدراسـة بنـاء المجتمـع الإسـرائيلى الراهـن الذى قام على أساس هذه الإيديولوجية العنصرية، لنعرف كيـف اسـتطاعت الصفـوة السياسية الإسرائيلية أن تضـع اسـتراتيجية للتنشـئة الاجتماعيـة تقـوم علـى التعصـب

(*) نشرت هذه الدراسة عام ١٩٧٧ فى كتيب جماعى أصدره معهد البحوث والدراسات العربية، تضمن ثلاث دراسات أولها دراستنا، والثانية التمييز العنصـرى فى إسـرائيل للدكتـور يونـان لبيب رزق، والثالثة إدانة الصهيونية للدكتور مفيد شهاب.

العنصرى ازاء العرب بوجه خاص، وعلى احتقار غير اليهود بوجه عام.

ومعنى ذلك، أنه بعد تحديد جذور العنصرية فى نشأة الصهيونية ذاتها وفى بنيتها، لابد من فحص السياسات الصهيونية ذاتها كما وضعتها الصفوة السياسية الحاكمة بما تضمنته من قيم عنصرية، مما انعكس بعد ذلك على بناء المجتمع الإسرائيلى من ناحية، وعلى القسمات الرئيسية للشخصية الإسرائيلية من ناحية أخرى.

أولاً: تعريف بالمصطلحات الأساسية:

تركز دراستنا على الصهيونية باعتبارها إيديولوجية عنصرية، ويقتضى ذلك منذ البداية تحديداً لما نعنيه بالإيديولوجية والعنصرية.

الإيديولوجية:

ويمكن لنا أن نقرر أن مفهوم الإيديولوجية من المفاهيم التى تعددت الاتجاهات بصدد تعريفها [٢]. غير أنه يمكن - إذا ما تبنينا وجهة نظر آدم شاف [٣] ان نقسم التعريفات التى أعطيت للأيديولوجية - بوجه عام - إلى ثلاث فئات: التعريفات التكوينية، والتعريفات البنيوية، والتعريفات الوظيفية.

- والتعريف التكوينى Genetique للايديولوجية ينطلق من الظروف التى انبتتها أو صاحبت نشأتها.
- أما التعريف البنيوىStructurale للايديولوجية فهو ينطلق من السمات التى تميز - من وجهة النظر المنطقية أو من وجهة نظر المعرفة - الأحكام والقضايا التى تميز الإيديولوجية عن غيرها من الإيديولوجيات من ناحية، أو عن غيرها من الأبنية الفكرية الأخرى كالنظريات العلمية من ناحية أخرى.
- وأخيراً فالتعريف الوظيفى Fonctionelle للايديولوجية يركز على ويشير إلى الوظائف التى تقوم بها الإيديولوجية فى مواجهة المجتمع والجماعات الاجتماعية والأفراد.

ويميل آدم شاف إلى تبنى التعريف الوظيفى للايديولوجية، وذلك لأنه يرى أنه أكثر

تعريفات الإيديولوجية وصفية وحياداً، وهو بذلك يمكن أن يكون أكثر التعريفات قبولاً لدى وجهات النظر المختلفة، وفى هذا الضوء يقترح آدم شاف التعريف التالى: " الإيديولوجية هى نسق من الأفكار يقوم – فى ارتكازه على نسق محدد من القيم – بتحديد إتجاهات الناس وسلوكهم ازاء الأغراض المتبناه المتعلقة بتطور المجتمع، أو الجماعات الاجتماعية، أو الأفراد ".

وبالرغم من أن هذا التعريف الوظيفى يمكن قبوله بوجه عام، لأنه ينطبق على الصهيونية كما ينطبق على غيرها من الإيديولوجيات، إلا أن استبعاد آدم شاف التعريفات التكوينية والتعريفات البنيوية مسألة غير مقبولة. ذلك أنه لا يكفى أن نشير إلى الوظيفة أو الوظائف التى تقوم بها الإيديولوجية، ولكن ينبغى – إذا ماكنا فى سياق دراسة نقدية – أن نحدد الأصول التكوينية للايديولوجية محل الدراسة، وكذلك أن نبرز العناصر الأساسية الفكرية المكونة لها. وينطبق هذا على وجه الخصوص على الصهيونية. فلا يمكن لنا أن نفهم الوظائف التى تقوم بها بالنسبة للجماعات الصهيونية، بغير أن نحدد أصولها وبناءها الداخلى.

العنصرية:

تقوم العنصرية على فكرة رئيسية مؤداها أن مجموعة محددة من البشر يتسمون بكونهم طبيعيا أسمى من غيرهم [٤]. وعادة ما يتم توصيف السمات المميزة للجماعة المختارة، سواء على أساس فيزيقى يتعلق بالتكوين الجسمى، أو على أساس حضارى خالص يتعلق بابراز السمات الثقافية التى تميز الجماعة المختارة. وهناك أيضاً عدد كبير من السمات والقيم عادة ما ينظر إليها باعتبارها علامات على السمو والامتياز مثل العبقرية العسكرية، والتفوق التكنولوجى، أو كما يقرر الصهاينة أن اليهود أسمى الجماعات الإنسانية لأنهم شعب الله المختار. وأيا كان الجنس الذى تزعم الأيديولوجيات العنصرية تفوقه وسموه، فإن العنصرى عادة ما يؤكد أن جماعته التى يحاول إعلاء شأنها سامية من وجهة النظر البيولوجية، ومن ثم فإن هذا السمو – ما دام يرتد إلى أصل بيولوجى – سيستمر إلى الأبد. ومن أبرز المذاهب العنصرية فى العصر الحديث، الإيديولوجية النازية، التى كانت لها رؤية تسعى لتحقيق سلام "يؤسس بواسطة السيف المنتصر لشعب مكون من السادة،

سيضع العالم فى خدمة حضارة أرقى" [٥] ومن ناحية أخرى أسست اليابان قبل هزيمتها فى الحرب العالمية الثانية قوميتها المتطرفة وسياستها التوسعية على أسطورة قومية عنصرية. وإذا انتقلنا إلى أفريقيا نجد أن العنصرية تتمثل فى محاولة إقامة فجوات لا يمكن سدها بين البيض المستعمرين والسود أهالى البلاد الأصليين. وقد تحدثت سارة ميللين فى العشرينات عن جنوب أفريقيا مقررة أن (الفجوة بين الأسود والأبيض بالغة الاتساع بحيث لا يمكن سدها) [٦] ونفس هذا الحكم نجده – بصيغة أخرى – لدى غلاة المفكرين الصهيونيين حين يقررون أن هناك فروقاً أساسية بين اليهود من ناحية وبين (الأغيار) Gentiles من ناحية أخرى، ومن هنا السمة النفسية السائدة لدى اليهود وهى الشك فى كل من هو غير يهودى.

ولقد استخدمت العنصرية لتبرير أوضاع اقتصادية وسياسية، واجتماعية بالغة التنوع. وإذا استقرأنا التاريخ الاستعمارى الأمريكى فى سنواته الباكرة – على سبيل المثال – فإننا نجد أن المجتمع الأمريكى الذى كانت تسوده نزعات دينية قوية فى هذا الوقت، كان لابد له أن يبحث عن تبرير لنظام العبودية الذى فرضه على الزنوج، خصوصا بعد تحويلهم إلى المسيحية. فالدين المسيحى لا يسمح لمسيحى بأن يمتلك ويستعبد مسيحياً آخر، وكانت العنصرية هى المخرج، على أساس أن الزنوج جنس أدنى مرتبة من البيض مما يبرر استعبادهم، وذلك – كما قرر جيرنجان بصراحة يحسد عليها – أن الملكية هى الملكية، وهى لذلك تحتاج لحمايتها إلى حجج وجيهة!

ومن ناحية أخرى أسرف العنصريون الألمان فى إسباغ الصفات الرديئة على اليابانيين، وكثيراً ما تحدثوا عن (الخطر الأصفر)، وكانوا ينعتون اليابانيين بأنهم (قردة مدربون). غير أنه لما استدعت التطورات السياسية ضرورة ضم اليابان إلى دول المحور انبرى (علماء الأجناس) الألمان يتحدثون عن اليابانيين بكونهم – فى نهاية الأمر – ينتمون إلى الجنس الآرى!

والواقع أن الفكر العنصرى الحديث يستمد أصوله من كتابات الكاتب الفرنسى الكونت دى جوبينو الذى نشر بين عامى ١٨٥٣، ١٨٥٥ كتابا شهيرا عنوانه "دراسة فى عدم تساوى الأجناس البشرية[٧]". وقد ضمن جوبينو هذا الكتاب نظريته

العنصرية الكاملة، التى هى بمثابة تفسير عنصرى للتاريخ الإنسانى. فمن وجهة نظره، إذا ما أردنا أن نبحث أسباب صعود وانهيار المجتمعات والحضارات الإنسانية، فعبثاً نجدها فى الأسباب الاقتصادية أو السياسية أو الدينية أو الاجتماعية، ذلك أن الأسباب الحقيقية ترد للعامل العنصرى. ومن ناحية أخرى، فقد زعم جوبينو أن الأجناس الأولى قادرة على التقدم، أما الأجناس يمكن تصنيفها إلى أجناس ممتازة وأجناس منحطة. والأجناس الثانية فمحكوم عليها بالتخلف الأبدى!

وقد سار على خطى جوبينو عدد آخر من الكتاب والباحثين، من أبرزهم تشامبرلين فى كتابه "أسس القرن التاسع عشر" وكذلك عالم الانثروبولوجيا والبيولوجيا الفرنسى فاشى دى لابوج، وعالم الانثروبولوجيا الألمانى أوتوآمون(٨).

وإذا كانت العنصرية الحديثة قد ولدت على يدى جوبينو فى القرن التاسع عشر،فلم يكن ذلك فى الحقيقة مجرد صدفة. ذلك أن علم اجتماع المعرفة قد علمنا أن الأفكار لا تنشأ وتتطور وتتغير من فراغ، وإنما لابد من ربطها باللحظة التاريخية وبنوعية البناء الاجتماعى السائد فى المجتمع. وإذا طبقنا هذا المنهج، لاكتشفنا أن صعود نجم الفكر العنصرى، قد صاحب نشوء واتساع النظام الإمبريالى، الذى قام على استعمار ونهب شعوب العالم الثالث. وكان لابد له حتى ينجز مهمته أن يجد المبرر لذلك، وهكذا ظهرت دعاوى "عبء الرجل الأبيض" فى تمدين الشعوب المتخلفة وغيرها من الصيغ العنصرية التى قصد بها إيجاد السند الفكرى للعملية الاستعمارية.

من هنا نكتشف الصلة الوثيقة بين العنصرية والاستعمار، ولذلك ليس غريبا أن نجد الصهيونية باعتبارها إيديولوجية عنصرية، كانت هى الحركة السياسية التى قام على أساسها الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين.

ثانيا: الصهيونية: الحل العنصرى للمشكلة اليهودية:

الصهيونية إيديولوجية سياسية نشأت فى القرن التاسع عشر، تطالب بإعادة توطين اليهود فى فلسطين باعتبارها أرض الميعاد كوسيلة لحل "المشكلة أو المسألة اليهودية".

وقد بدأت إرهاصات الصهيونية مع كتابات موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥) الذى ألف كتابا سماه "روما والقدس" دعا فيه إلى بعث "القومية اليهودية" فى القدس بعد تحريرها، وكذلك كتابات تسفى هيرش كاليشر (١٧٦٥-١٨٧٤) الذى كان كتابه "السعى لصهيون" الذى نشره عام ١٨٦٢ أول كتاب عبرى فى العصر الحديث يتحدث عن الاستيطان الزراعى فى فلسطين. وبالإضافة إلى الكتابات المبكرة، ظهرت جماعات مثل جماعة "أحباء صهيون" و"البيلو" متبنية فكرة الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين[٩].

غير أن نقطة التحول الحاسمة فى تطور الفكرة الصهيونية تبدأ بظهور تيودور هرتزل عام ١٨٩٦، إذ تحولت الصهيونية على يديه إلى حركة سياسية منظمة، تسعى لتحقيق أهدافها فى العودة إلى فلسطين بشكل عملى، وبناء على فهم عميق لمكونات النظام الدولى، ووعى مرهف بمختلف أنماط تفاعلاته.

لقد كانت الصهيونية كما طرحت نفسها على الجماهير اليهودية فى الغرب وعلى الغربيين أنفسهم هى الحل الأمثل للمشكلة اليهودية. غير أن الجذر العنصرى للصهيونية وضح منذ البداية فى تعريفها للمشكلة اليهودية. فهذه المشكلة اليهودية التى كانت فى حقيقة أمرها ترجع إلى تردى أوضاع اليهود فى المجتمعات الغربية نتيجة عوامل تاريخية واقتصادية وسياسية شتى صاحبت تحول المجتمعات الغربية من النظام الاقطاعى إلى النظام الرأسمالى، صورتها الصهيونية بصورة متيافيزيقية فالمشكلة اليهودية - فى نظر الصهيونية - مشكلة أبدية تتعلق بالوضع الوجودى ذاته لليهودى. فما دام هناك يهود فى العالم وغير يهود فلابد، أن توجد حركة معادية للسامية. وبالتالى فالمشكلة اليهودية تتجاوز الزمان والمكان. ومعنى ذلك أنها لا ترتبط بنظام اقتصادى اجتماعى معين، ولا بمرحلة تاريخية فى ذاتها، وإنما هى ترتبط بوجود اليهود أنفسهم فى عالم لا ينتمون إليه، ولا يستطيعون - بل ولا ينبغى عليهم الذوبان فيه أو الاندماج معه. وبذلك فليس هناك حل للمشكلة اليهودية، سوى عودة اليهود إلى أرض فلسطين - أرض الميعاد - وإقامة دولتهم اليهودية النقية هناك، حيث يستطيع الشعب اليهودى أن يمارس حياته اليهودية الحقيقية.

وقد لخصت الباحثة بديعة أمين فى كتابها "المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية[١٠]" مزاعم الصهيونية المبكرة فيما يلى:

١- المشكلة اليهودية مشكلة عامة عانى منها جميع يهود العالم لأسباب دينية.

٢- إنها ظاهرة أبدية وجدت منذ أن وجد اليهود، وستبقى طالما وجدوا.

٣- أنه اليهود وحدهم دون غيرهم من الشعوب تعرضوا للاضطهاد على مر السنين لأنهم يهود.

٤- أن اليهود كانوا مضطهدين، فقط من قبل الشعوب، والأقوام الأخرى غير اليهودية، مما يعنى أنه لم يكن هناك اضطهاد يهودى موجه ضد اليهود.

٥- أن اليهود شعب واحد ذو بنية واحدة، متجانس المصالح ومصيره واحد.

٦- أن اليهود أرغموا على الهجرة من فلسطين عام ٧٠م.

٧- أن ممارسة الربا الذى حرمته الكنيسة كان السبب الرئيسى، أو على الأقل واحداً من الأسباب الرئيسية لكراهية اليهود، وبروز المشكلة اليهودية.

٨- أن الصهيونية امتداد طبيعى للمشكلة اليهودية وإن كان باتجاه معاكس، أو ما يمكن التعبير عنه بلغة الفيزياء بالفعل ورد الفعل.

٩- أن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو إقامة دولة يهودية".

فى ضوء هذه الأفكار الرئيسية التى بنت عليها الصهيونية دعوتها وبرنامجها السياسى، نستطيع أن نلمس جذور الفكر العنصرى فى الصهيونية. ولعل ذلك يتضح على وجه الخصوص فيما يتعلق بفكرتين جوهريتين:

أولاً: فكرة وحدة الشعب اليهودى المبنية على وحدة الجنس اليهودى أو العرق اليهودى.

ثانياً: أبدية معاداة السامية، ووهم الشعوب الأخرى بأنها لاتستطيع مهما فعلت أن تقضى على معاداة السامية، لأنها كامنة فى صميم تكوينها، مما يجعل الحل الوحيد للمشكلة اليهودية هو إقامة دولة يهودية نقية على أرض فلسطين.

وليس هناك جدال فى أن التركيز على (النقاوة الجنسية) لمجموعة بشرية ما، يعكس تفكيراً عنصريا واضحاً، بما يحمله من تعال على باقى الشعوب، وإحساس بالتمايز. ومثل هذا الفكر العنصرى عادة ما يتحول فى الممارسة إلى فكر سياسى فاشى [11]. وليس بعيداً عن ذاكرتنا ادعاءات النازية الخاصة بتفوق الجنس الآرى وسموه، وكيف أدت إلى أبشع أنواع الممارسة السياسية الإرهابية والفاشية. وكذلك

الأمر بالنسبة للصهيونية، التى ما أن أتيح لها أن تنشئ دولتها على أرض فلسطين المغتصبة، حتى كشفت عن وجهها الفاشى فى التعامل مع الفلسطينيين الذين بقوا داخل حدود الدولة الجديدة، بما فرضته عليهم من حصار عسكرى واجتماعي وثقافى. بالإضافة إلى سياسة الردع والعنف التى مارستها الدولة اليهودية ضد الدول العربية [١٢].

ولسنا فى حاجة إلى تفنيد دعاوى نقاء الجنس اليهودى، فقد كفانا مؤونة ذلك عدد من ثقات الباحثين الأوربيين، من أبرزهم وليام ريبلى فى كتابه الشهير "أجناس أوروبا: دراسة سوسيولوجية" [١٣].، الذى نشره عام ١٨٩٩. وفى هذا الكتاب يفند ريبلى بعد مناقشة علمية مستفيضة دعوى أن اليهود يكونون جنسا ويخلص إلى أن "اليهود لا يكونون جنساً" وأن سماتهم التى يتوارثونها لا ترد على وجه الإطلاق إلى نقاوة جنسية غير مسبوقة يتميزون بها. والفكرة الثانية التى اعتمدت عليها الصهيونية فى سبيل تنفيذ برنامجها هى معاداة السامية. ومن الحقائق الهامة التى ينبغى الالتفات اليها أن الحركة الصهيونية واجهت منذ البداية عقبة أساسية فى تنفيذ برنامجها، وهى رفض الجماهير اليهودية الفقيرة والطبقة العاملة فى شرق أوربا وغربها ترك مواقعها فى سبيل خدمة أهداف البورجوازية اليهودية، والعمل على تحقيق مشروع استعمارى موظف فى خدمة مصالح الطبقات الحاكمة. ولذلك نجد.
- كما يقرر صادق العظم فى كتابه "الصهيونية والصراع الطبقى" [١٤]، أنه على الرغم من حركة الهجرة الواسعة التى تعرضت لها الجماهير اليهودية فى أوربا فى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن العشرين، لم تستقطب فلسطين إلا أعداداً ضئيلة جداً من المهاجرين، على الرغم من كل الجهود التى بذلتها الحركة الصهيونية والأموال التى أنفقها أمراء المال اليهود لتشجيع الهجرة إلى (الأرض المقدسة).

وظل هرتزل يسعى حثيثا لكي يجد الحل الناجح لهذه المشكلة. كيف يمكنه إثارة الرغبة لدى الجماهير اليهودية كى تقتنع بصواب الحل الصهيونى والهجرة إلى فلسطين؟

لقد وجد هرتزل الحل فى اللجوء إلى فكرة معاداة السامية. لم ينظر هرتزل إلى معاداة السامية باعتبارها ظاهرة سلبية ينبغى القضاء عليها، بل إنه بكل ما كان يمتلكه من انتهازية سياسية وضع يده عليها، وتشبث بها، لكى يستثمرها فى سبيل

إنجاح مشروعه الصهيوني.

وقد سجل المفكر الصهيوني بنسكر الموقف العنصري الأساسي للحركة الصهيونية من مسألة معاداة السامية في التحليل الذي قدمه كما يلي: "الهلع المرضى من اليهود هو شذوذ نفسي. ومن حيث هو شذوذ نفسي فإنه موروث، ومن حيث هو داء انتقلت عدواه خلال ألفي سنة فإنه غير قابل للشفاء"..

وهكذا انطلقت الصهيونية من فكرة عنصرية خالصةمؤداها أن معاداة السامية هي من خصائص الإنسان الثابتة (أو بعبارة أخرى من خصائص الطبيعة البشرية غير اليهودية) والموجودة في كل زمان ومكان.

ويقرر صادق العظم (ومع أن هرتزل أشار في "الدولة اليهودية"إلى العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتاريخية المرتبطة بمعاداة السامية خاصة في العصور الحديثة، إلا أن تفكيره السياسي برمته ظل مبنياً على الفرضية العنصرية القائلة بأن العداء للسامية موجود مع الإنسان وجوداً دائما وأصيلا، مما يستتبع النتيجتين الصهيونيتين المعروفتين:

(أ) الأمة اليهوديةكانت موجودة دائما بسبب قدم العداء للسامية واستمراره.

(ب) لاحل للمسألة اليهودية إلا بتجميع اليهود في وطنهم القومي في فلسطين لأن استئصال معاداة السامية من الطبيعة البشرية (غير اليهودية) أمر مستحيل. "لكل ذلك اعتبر هرتزل معاداة السامية هي "القوة الدافعة" الأساسية التي ستمكن الحركة الصهيونية من تحقيق أهدافها".

وهكذا يمكن القول أن العنصرية قد رافقت الصهيونية كإيديولوجية منذ نشأتها، وأن الفكرتين الجوهريتين: الأولى المتعلقة بوحدة الشعب اليهودي عبر التاريخ وفي الوقت الراهن، والثانية الخاصة بمعاداة السامية قد انبنت عليهما في التطبيق الصهيوني والإسرائيلي سياسات إسرائيلية عنصرية متعددة.

فبناء على الفكرة العنصرية الأولى، سنت دولة إسرائيل قانون العودة، الذي يعطي الحق لأي يهودي في العالم، بمجرد "عودته" إلى إسرائيل أن يتجنس بالجنسية الإسرائيلية، وذلك في نفس الوقت الذي لا تسمح فيه للفلسطينيين أهل البلاد الأصليين أن يعودوا إلى أراضيهم. واستخدمت إسرائيل تهمة معاداة السامية لإرهاب الدول التي تعارض سياستها العنصرية بوصفها أنها معادية للسامية.

وإذا كانت الجذور العنصرية للصهيونية قد أثرت على ممارساتها السياسية منذ البداية، فإنه بعد أن نجحت الحركة الصهيونية فى إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، كان لابد لهذه الجذور العنصرية الضاربة فى اعماق بنية الصهيونية ذاتها، ان تكشف عن نفسها فى مستويين آخرين: فى مستوى المجتمع الإسرائيلى بما يسوده من قيم، وفى مستوى الشخصية الإسرائيلية ذاتها بما يهيمن عليها من اتجاهات أساسية، إزاء الذات وإزاء الغير.

ثالثاً: الإيديولوجية الصهيونية وبناء المجتمع الإسرائيلى العنصرى:

بناء المجتمع اليهودى فى فلسطين:

نشأ المجتمع اليهودى فى فلسطين وتبلور نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التى ظهرت فى أوربا الشرقية والوسطى وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر. وقد رفعت هذه الجماعات الصهيونية شعاراً مؤداه " أنه لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة فى أى مجتمع حديث خارج فلسطين ".

وزعمت الصهيونية ان الحياة فى ظل المجتمعات الأوربية الحديثة من شأنها ان تجعل اليهود يتمزقون بين السحق الروحى والحضارى - الذى سيترتب على نسف حياتهم التقليدية والمجتمعية تحت وطأة التنظيمات الاقتصادية والسياسية الحديثة - والفناء المادى عن طريق "الاندماج التام" فى المجتمع. ومن هنا زعمت الصهيونية أنه فى فلسطين فقط يمكن أن ينشأ مجتمع يهودى حديث، حيث يمكن التأليف بين اليهودية والحضارة الإنسانية العامة - أو بعبارة أخرى - بين الأصالة والمعاصرة. وتبنى المجتمع اليهودى فى فلسطين إيديولوجية متكاملة بمعنى أنه صاغ نسقاً محددا من الأفكار المترابطة فيما بينها بطريقة عضوية، وجعلها دليلا للعمل وتقنينا للسلوك. وقد أطلق عليها إيديولوجية "الريادة" نسبة "للرواد" الذبن هم فى الحقيقة طلائع المستعمرين الأوائل الذين هبطوا إلى أرض فلسطين ليكونوا مقدمة الاستعمار الاستيطانى لفلسطين. وحاولت الصهيوبية أن تبنى نموذجاً مثالياً "للرائد" الذى صور باعتباره اليهودى الأمثل، ومن هنا ألح القادة الصهيونيون الأوائل على ضرورة أن يطابق المستوطنون أنفسهم واتجاهاتهم وسلوكهم مع السمات التى يتميز بها وأهمها التضحية. فالرائد هو الشخص الذى على استعداد لحرمان نفسه من متع

الحياة والفوائد المادية، وهو قادر على أن يطوع أسلوب حياته ليعيش عيشة متقشفة. ولم يكن هذا التقشف مقصوداً لذاته – بالرغم من أنه أصبح بعد ذلك اتجاهاً سائداً – ولكن بغرض القيام بالأعباء الجسيمة التى حددتها لنفسها جماعات الرواد لخلق المجتمع اليهودى فى فلسطين.

أما السمة الثانية للرائد فهى أن يمارس العمل بنفسه، مع تحريم العمل المستغل. وقد حدد هذا الاتجاه طبيعة الأنشطة التى وجهت لخلق المجتمع اليهودى فى فلسطين. ونقصد التركيز الشديد على العمل غير المستغل فى الميدان الزراعى واليدوى باعتباره وسيلة رئيسية لبعث شباب "الأمة اليهودية"، ولخلق إنسان يهودى جديد.

وقد ركزت إيديولوجية "الريادة" على فكرتين أساسيتين هما: ضرورة الاعتماد على الاكتفاء الذاتى، وأهمية تنمية وسائل الدفاع الذاتى.

والحقيقة أن إيديولوجية الريادة التى كانت الموجه الرئيسى – بما تضمنته من مبادئ وقيم واستراتيجيات – لجماعات المستعمرين الصهيونيين الأوائل فى فلسطين، لتكشف، لو حللناها بدقة عن جذور الفكر العنصرى الذى صدرت عنه الصهيونية.

ويتمثل ذلك أساساً فى المهام التى ادعتها الصهيونية لنفسها وهى بصدد خلقها للمجتمع اليهودى فى فلسطين، و في نظرة الصهيونيين إلى العرب الفلسطينيين أهل البلاد الأصليين، وأخيراً فى السياسات الاستيطانية التى كان أبرزها اقتحام الأرض والعمل والحراسة، والإنتاج.

١- لقد زعمت الصهيونية أولاً أنها ستنهض فى فلسطين بعبء " رسالة حضارية " تتمثل فى تمدين وتحضير فلسطين. وهذه الدعوى تتطابق تماماً مع الفكر العنصرى الرأسمالى الأوربى فى القرن التاسع عشر الذى صاغ هذه الفكرة لكى تكون تبريراً ثقافياً " لاستعمار الشعوب المتخلفة واستغلالها من قبل الرأسمالية الأوربية تحت شعار " إعدادها " و" تمدينها " لتصبح فى مستوى يسمح لها بأن تحكم نفسها بنفسها. ويشهد على ذلك ما قرره المفكر الصهيونى موسى هس من أن رسالة الأمة اليهودية ودولتها فى فلسطين هى حماية " نقطة التقاطع والالتقاء بين القارات الثلاث " ويصف هذه الرسالة بقوله " وسيعيد رأسمالكم الحياة للأرض القاحلة وسيحول عملكم وجهدكم مرةً أخرى التربة القديمة إلى وديان مثمرة بعد أن تنقذوا الأرض من براثن رمال الصحراء الممتدة. بعد ذلك سوف

يقدم لكم العالم من جديد آيات الولاء والاحترام ".

ويؤكد هرتزل على الفكرة ذاتها فيقرر:

"وسنكون هناك جزءاً من الحاجز الذى يحمى أوربا فى آسيا، سنكون مخفراً أمامياً للحضارة فى وجه الهمجية. يتوجب علينا كدولة محايدة أن نبقى على اتصال مع كل أوربا التى سيكون عليها ضمان وجودنا ".

ويزيد ماكس نورداو الفكرة وضوحاً فيقرر:

" سوف نبذل ما فى وسعنا لكى نعمل فى الشرق الأدنى ما عمله الإنجليز فى الهند، أعنى بذلك: النشاط الثقافى وليس السيطرة. نحن ننوى الذهاب إلى فلسطين بمثابة الحملة المعتمدين للمدنية والتحضر، ورسالتنا هى توسيع الحدود الأخلاقية لأوربا حتى تصل إلى الفرات ".

وخلاصة ذلك، أن الصهيونية منذ بداياتها الأولى، انطلقت من مسلمات الفكر العنصرى الأوربى لتبرير استعمارها لفلسطين بما يتضمنه ذلك النظر إلى " اليهود " باعتبارهم جنساً أسمى وأرقى من العرب، الذين فشلوا فى استثمار بلادهم، وجاء اليهود بكل ما يملكون من مواهب فريدة لكى يقووهم فى مدارج الرقى والتقدم.

٢- ولقد ترتب على هذه النظرة العنصرية المبدئية التى مهدت لعمليات الاستيطان الاستعمارى لفلسطين وواكبها نشوء اتجاه سلبى إزاء العرب الفلسطينيين أهل البلاد، يتمثل ليس فقط فى عدم الاكتراث بمصيرهم بل فى ضرورة القضاء عليهم وطردهم خارج الحدود، لو قاوموا عمليات الاستيطان الاستعمارى.

وقد اتبع الاستعمار الاستيطانى الصهيونى هذه السياسة فى كل مراحله، قبل إنشاء الدولة وبعدها. ويشهد على ذلك المحاولات الإرهابية التىخطط لها قادة اسرائيل لطرد أكبر عدد من الفلسطينيين خارج حدودهم عام ١٩٤٨. وهناك شواهد ثابتة على ذلك، بالزعم من المزاعم الإسرائيلية التى تزعم أن القادة العرب هم الذين حثوا الفلسطينيين على الهجرة. واستمرار زحف الاستيطان الإسرائيلى خصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ظاهرة ملموسة، يشهد العالم آثارها، فى شكل مصادرة اراضى الفلسطينيين ونسف منازلهم وطردهم من قراهم وتحريم العودة عليهم.

وهذه على وجه الدقة هى السياسات التى تتبعها نظم الاستعمار الاستيطانى العنصرية.

٣- وتتمثل العنصرية أيضاً فى السياسات الاستيطانية التى صاغها ومارسها الصهيونيون الأوائل والتى كان أبرزها اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج.

(أ) اقتحام الأرض:

استند البرنامج الصهيونى الاستيطانى على عدة مبادئ من أهمها مبدأ اقتحام الأرض. ويعنى ذلك على وجه التحديد الاستيلاء على أرض فلسطين واستغلالها وإنقاذها من سيطرة الأغيار (غير اليهود _ العرب) عليها. وحاولت القيادات الصهيونية أن تطبع المبدأ بطابع نفسى بالإضافة إلى طابعه الاقتصادى الاستغلالى. فاقتحام الأرض وغزوها يجعل اليهودى يطهر نفسه، ويتخلى عن سلوكه الطفيلى الذى تمرس عليه فى الشتات، نتيجة الانقطاع أجيالاً طويلة عن الزراعة والصناعة وممارسة الأنشطة الإنتاجية المختلفة.

غير أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى الطابع الإرهابى لعملية اقتحام الأرض الفلسطينية وغزوها. فهذه العملية لم تتم عن طريق شرائها من أصحابها، ولا حتى عن طريق التسلل والخداع، وإنما تم ذلك قسراً باستخدام الهاجاناه لوسائلها الإرهابية فى طرد الفلسطينيين من أراضيهم، مما جعلها تنجح فى أقل من عام واحد (١٩٤٨) فى إنتزاع مساحة قدرها ٧٦٪ من مجموع مساحة فلسطين.

(ب) اقتحام العمل:

الاستعمار الإستيطانى الصهيونى فى فلسطين ليس استعماراً اسيتيطانيا فحسب، ولكنه أيضاً إستعمار إحلالى، بمعنى أنه كان يطمح – لتحقيق حلم الدولة اليهودية النقية – إلى إحلال اليهود مع العرب الفلسطينيين. ولذلك لم يكن كافياً اقتحام الأرض، بل أنه ذهب – إلى أبعد من ذلك – فى سبيل إقتحام العمل. ونجد هنا أيضاً أن مبدأ اقتحام العمل، الذى كان فى حقيقته الوجه الاقتصادى العنصرى للاستعمار الاستيطانى الصهيونى، تغلف بغلاف إيديولوجى، فيذهب بعض دعاته خصوصاً المفكر الصهيونى جوردون إلى أن العامل اليهودى ينبغى أن يعمل من أجل العمل ذاته، وأن اقتحام العمل خصوصاً الزراعة والأعمال اليدوية من شأنه أن يوثق صلة

اليهودى بالأرض والطبيعة، هذه الصلة التى حرم منها السنين الطوال، نتيجة للوظائف الطفيلية التى أجبر على أن يمارسها فى الشتات.

وبعيداً عن كل هذه الأفكار المجردة عن العمل العبرى وطهارته وضرورته لبعث شخصية اليهودى من جديد، فقد كشف مبدأ اقتحام العمل عن نفسه، باعتباره مبدأ عنصرياً ترتب عليه انغلاق اليهود على أنفسهم من ناحية، وحجب العمل عن العمال العرب، ومحاولة القضاء عليهم فى سوق العمل.

(ج) اقتحام الحراسة:

يعتبر هذا المبدأ الترجمة العملية لشعار الدفاع الذاتى فى إيديولوجية الريادة أو بعبارة أخرى إيديولوجية المستعمرين الصهيونيين الأوائل. **فاقتحام الأرض واقتحام العمل، معناه إنتزاع الأراضى العربية من أصحابها، وإضعافهم اقتصادياً فى سوق العمل تحت شعار العمل العبرى، ومعنى ذلك كله احتمال تصاعد مقاومة عربية ضد السياسات الصهيونية ومن هنا جاء هذا المبدأ**، الذى معناه، عدم الإعتماد على العرب فى حراسة المستوطنات أو المشاريع الصهيونية وضرورة تشكيل فرق صهيونية للقيام بهذه الوظيفة الحيوية.

(د) اقتحام الإنتاج:

وحتى تكتمل الدورة التى تبدأ باقتحام الأرض والعمل والحراسة نأتى أخيراً لمبدأ اقتحام الإنتاج. **ومعناه ببساطة مقاطعة المنتجات العربية ومنع التعامل مع العرب، والتعامل مع اليهود وحدهم.** وقد قام الهستدروت بدور واضح فى فرض العمل العبرى، وفى فرض مبدأ شراء الإنتاج اليهودى ومقاطعة الإنتاج العربى.

العنصرية فى المجتمع الإسرائيلى بعد قيام الدولة عام ١٩٤٨:

لعبت العنصرية فى المرحلة الأولى من الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين دوراً بارزاً فى بناء المجتمع اليهودى. **وهذا الدور ركز فى المقام الأول على تثبيت هوية المستعمرين الأوائل القادمين ودعمها – باستخدام شعارات شتى – إزاء هوية العرب الفلسطينيين.** ويمكن القول إن أجيال المستوطنين الأوائل قد

نجحوا فى إقامة المجتمع اليهودى فى فلسطين نتيجة ظروف تاريخية شتى، لعل من أهمها تدعيم الاستعمار العالمى ممثلاً فى القوى الكبرى خصوصاً بريطانيا العظمى، ومساعدات الرأسمالية الأوربية اليهودية، وعدم قدرة العرب فى هذه المرحلة على المقاومة الفعالة المنظمة، فقد كانت الدول العربية جميعاً تقريباً واقعة تحت السيطرة الأجنبية.

وقد ترجم نجاح هذه الجماعات الاستيطانية عن نفسه فى أنها استطاعت أن تخلق مؤسسات ومنظمات متعددة أصبحت هى بذاتها فيما بعد نواة أجهزة الدولة بعد إعلانها عام ١٩٤٨. قامت الدولة إذن عام ١٩٤٨. وأدى ذلك بالتالى إلى اختفاء عديد من الأفكار والقضايا التى كانت مثارة فى مرحلة الاستيطان الأولى، ومن ناحية أخرى ظهور مشكلات من نوع جديد.

وقد ارتبط إنشاء الدولة فى إسرائيل بثلاث عمليات رئيسية هى: تدفق مهاجرين جدد، وتمايز البناء الاقتصادى والاجتماعى، وتحول صفوة "الرواد" (المستعمرين الأوائل) إلى صفوة حاكمة. وقد أدت هذه العمليات إلى التأثير الواضح على الهوية الإيديولوجية للمجتمع الإسرائيلى وريث المجتمع اليهودى فى فلسطين. ولعل أبرز النتائج التى ظهرت هى انهيار إيديولوجية الريادة، وذلك فى غمار تحول المجتمع من مجتمع زراعى أساساً إلى مجتمع صناعى، وقد تم ذلك فى ظل سيادة القطاع الخاص وهيمنته على مقدرات الاقتصاد الإسرائيلى، بالرغم من الدعاوى الكاذبة عن اشتراكية المجتمع الإسرائيلى.

وبغير أن نخوض فى تفصيلات عملية الانهيار الإيديولوجى التى صاحبت عملية التفكك الاجتماعى فى المجتمع الإسرائيلى، نشير إلى أن التغير الجوهرى الذى ظهر عقب إنشاء الدولة، هو إحساس القيادات الإسرائيلية بضرورة وضع استراتيجية اجتماعية لتنشئة الأجيال الجديدة من الإسرائيليين، وذلك حتى يتكيفوا مع وضعهم الجديد. فإنشاء دولة إسرائيل معناه بداية ظهور تمايز بين اليهود بوجه عام، وبين الإسرائيليين مواطنى هذه الدولة الجديدة. وقد طرح هذا الموضوع مشكلات معقدة فيما يتعلق بصيغة الهوية الإسرائيلية الجديدة، ومدى إتصالها أو انفصالها عن الهوية اليهودية التقليدية، وسنناقش ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد. ولكن ما هى ملامح الاستراتيجية النفسية الاجتماعية التى وضعتها الصفوة الحاكمة

الإسرائيلية ولتحديد اتجاهات وطابع عملية التنشئة فى المجتمع الإسرائيلى؟

أن هذه الاستراتيجية فى حد ذاتها، أدت إلى نشوء ما يطلق عليه عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين المشكلة أو المعضلة الإسرائيلية (١٧) ويحدد معالمها العامة بكونها تتمثل فى التناقض الذى يسم الواقع الاجتماعى والروحى فى إسرائيل، ويعنى به التعارض بين "العقيدة الإسرائيلية" التى تدعو إلى إقامة مجتمع ديموقراطى تقدمى ومتنور تسوده المساواة - والتى تزعم الدعاية الإسرائيلية أنه قد تحقق فعلا - وبين القوانين الثيوقراطية العنصرية والمناخ السائد الذى يتسم بالتعصب، والثقافة المنغلقة، بالإضافة إلى الإجراءات الشمولية القهرية التى تطبقها السلطات الإسرائيلية.

إن هذه المشكلة تعبر فى الواقع عن فشل الصهيونية فى تحقيق برنامجها المعلن، والذى زعم أن انشاء دولة اسرائيل، هو التجسيد الواقعى للحلم الصهيونى فى أن يعيش اليهود لأول مرة فى تاريخهم فى إطار طبيعى تختفى فيه اللاسامية، ويعيش فى جنباته شعب الله المختار الذى تهدده مختلف ضروب التهديد عبر تاريخه المتصل كما يزعم المؤرخون الصهيونيون. ويضع تامارين يده على جذور المشكلة، فيقرر أن الصراع داخل المجتمع الإسرائيلى، يكشف عن نفسه فى التناقض الجذرى بين أنصار الاتجاهات التى تميل إلى صياغة اسرائيل باعتبارها " جيتو " بالمعنى المادى والروحى للكلمة، وهؤلاء الذين يجاهدون لإقامة مجتمع حر مفتوح. هذا التعارض الجوهرى، بالإضافة إلى الخلاف بين أنصار التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة، أو الانعزال والبعد عنها، هو جوهر " المشكلة الإسرائيلية ". وفى رأى تامارين أن حل هذه المشكلة لن يحدد فقط الملامح الأساسية الاجتماعية والحضارية للدولة، ولكن أهم من ذلك سيكون حاسما فى تحديد مستقبلها السياسى.

وخلاصة رأى تامارين، الذى يتفق مع الواقع إلى حد كبير، أن تخطيط الصفوة الحاكمة الإسرائيلية الذى يتمثل فى أن تكون اسرائيل قلعة عسكرية حصينة بالنسبة إلى جيرانها العرب قد أدى إلى عزل إسرائيل حضاريا، وتحويلها إلى " جيتو " كبير تسوده اتجاهات حضارية إنعزالية ورجعية، هى فى حد ذاتها المناخ الصالح لنمو الأفكار العنصرية، وانتشار سياسات التمييز العنصرى ضد العرب. ويكشف عن الاستراتيجية الاجتماعية الإسرائيلية الرجعية عديد من الحقائق والظواهر

أهمها:

١-قطع أواصر الاتصال بين الشباب الإسرائيلى والعالم، اللهم إلا من خلال برامج التعليم المحافظة ومصادر المعلومات المحلية، وذلك خوفا من اهتزاز القيم التى تبثها السلطات الإسرائيلية فيهم، لو اتيحت لهم فرصة المقارنة فى إطار أوسع. وبدعوى الخوف من ذوبان الإسرائيليين فى مجتمعات أخرى، أو اعتبارات الأمن التى يفرضها الموقف العسكرى مع البلاد العربية، فإن الحصار الثقافى قد فرض بالفعل على الشباب الإسرائيلى، وإن كانت أعداد كبيرة قد استطاعت الإفلات والسفر إلى الخارج والاستقرار فى الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أدى هذا الحصار الثقافى إلى سيادة مشاعر مريضة إزاء أى نقد يوجه إلى الممارسة السياسية والاجتماعية فى المجتمع الإسرائيلى، ونمو مشاعر الشك إزاء الغرباء، والتعصب والتطرف الإيديولوجى، وكذلك ظهور الفجوة الواسعة بين نصوص القوانين وتطبيقها.

وقد أدت هذه الظواهر جميعاً إلى أن يمارس التعصب والتمييز العنصرى فى المجتمع الإسرائيلى بناء على تطبيق القوانين ذاتها، أو بعبارة عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين، أصبحت هناك أسس قانونية لممارسة التعصب والتمييز العنصرى فى هذا المجتمع.

ومن الجدير بالإشارة إلى أن هذا الطابع العنصرى والتعصبى لم يقتصر أثره على السكان العرب داخل إسرائيل، ولم يترك بصمته فقط على الطابع الأساسى للشخصية الإسرائيلية البازغة وخصوصاً فيما يتعلق باتجاهاتهم إزاء العرب، ولكنه أبعد من ذلك أخذ يترك آثاره على معاملة اليهود الشرقيين، وأيضاً بالنسبة لبعض طوائف اليهود الغربيين.

والحقيقة أن مظاهر العنصرية فى المجتمع الإسرائيلى متعددة، بالإضافة إلى أن بعض صورها لا يمكن فهمه إلا بالتحليل المتعمق لعديد من الأفكار والإيديولوجيات والنظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع الإسرائيلى. لكل ذلك نختار فقط – لكى نركز البحث – موضوعين لمناقشاتهما: تأثير الاتجاه العنصرى فى المجتمع الإسرائيلى على اتجاهات الإسرائيليين إزاء العرب، والأسس القانونية للتعصب والتمييز العنصرى فى المجتمع الإسرائيلى.

٢-العنصرية واتجاهات الإسرائيليين إزاء العرب:

يمكن القول إن الطابع العنصرى السائد فى المجتمع الإسرائيلى قد أثر تأثيراً واضحاً على اتجاهات الإسرائيليين إزاء العرب. وبالرغم من أن هذه الاتجاهات التى يمكن وصفها بأنها عدوانية، ظلت ثابتة لفترة طويلة من الزمن، إلا أن هناك شواهد على حدوث بعض التغير خصوصاً بعد حرب يونيو ١٩٦٧، وازدياد فرص الاحتكاك بين عرب الضفة الغربية والإسرائيليين، وأيضاً بعد سياسة الجسور المفتوحة. ولا يعنى التغيير هنا أن اتجاهات الإسرائيليين ازاء العرب أصبحت أقل عدوانية، ولكنه يعنى فى المقام الأول أن الفرصة اتسعت أمامهم للتعامل المباشر مع مجموعات من العرب تختلف إلى حد ما – نتيجة ظروف متعددة – عن العرب داخل إسرائيل، الذين فرضت إسرائيل الحصار المادى عليهم من خلال تحديد إقامتهم فى ظل الحكم العسكرى. غير أن أخطر الاتجاهات قاطبة، هى تلك التى تنمى وتبلور لدى الشباب الاسرائيلى من خلال استراتيجية عنصرية للتنشئة الاجتماعية، تستخدم فى تدعيم الأفكار السلبية عن العرب.. المدرسة والجيش ووسائل الإعلام.

وقد كشفت دراسة قام بها جورج تامارين فى إسرائيل عن كل هذه الظواهر. وكان الهدف من الدراسة هو بحث آثار التعصب على الأحكام الأخلاقية من الجوانب التالية:

(أ) وجود التعصب فى إيديولوجية الشباب.

(ب) تأثير تدريس التوراة للشباب بطريقة غير نقدية على إمكانية تشكيل اتجاهات التعصب المختلفة (خصوصاً فكرة الشعب المختار)، وسمو الشريعة الموسوية، ودراسة أفعال الإبادة الجماعية التى مارسها الأبطال التوراتيون. **وقد اختار تامارين أن يركز على أكثر صور التعصب تطرفاً وهى صورة الإبادة الكاملة للجماعة المعادية.** وأعد تامارين لذلك ١٠٦٦ استمارة ذات محتوى واحد، أجاب عنها كتابة ٥٦٣، فتى و ٥٠٣ فتيات من مختلف السنوات فى مختلف المدارس. وقد تطرقت الاستمارة لسفر "يشوع بن نون" فى الكتاب المقدس الذى يدرس فى المدارس الإسرائيلية فى الصف الرابع حتى الثامن وكان السؤال كما يلى: إنك تعرف جيداً المقتطفات التالية من "سفر يشوع": "فهتف

الشعب وضربوا بالأبواق". وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور فى مكانه فصعد الشعب إلى المدينة كل رجل من جهة وأخذوا المدنية. وقضوا على كل من فيها بغير تفرقة بين رجل وامرأة وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف". (يشوع، ٦، ٢٠).

"وأخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو كل نفس بها. لم يبق شارداً وفعلوا بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هى أيضاً بين إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها. لم يبق بها شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا"(يشوع، ١٠، ٢٨ -٣٠).

أجب من فضلك عن السؤالين التاليين:

١ - هل تعتقد أن يشوع بن نون والإسرائيليين قد تصرفوا تصرفاً صحيحاً أو غير صحيح؟ إشرح لماذا لديك مثل هذا الرأى بالذات.

٢ - لنفترض أن الجيش الإسرائيلى إحتل خلال الحرب قرية عربية، فهل هو حسن أو سيئ أن يتصرف على هذا النحو مع سكان هذه القرية، كما تصرف يشوع بن نون مع شعب أريحا إشرح لماذا؟

وقرر تامارين أنه اختار هذا النص بالذات بالرغم من أن إبادة الناس بالجملة التى قام بها يشوع بن نون، ليست المثل الوحيد من هذا النوع فى الكتاب المقدس. ولكنه اختاره لأنه "سفر يشوع بن نون" يحتل مكاناً خاصاً فى نظام التعليم الإسرائيلى وقد وزعت هذه الاستمارة فى مدارس تل أبيب وقرية بالقرب من الرملة وفى مدينة شارون ومستعمرة معوتشد.

وهذه أمثلة من بعض الإجابات: كتب تلميذ من مدرسة فى مدينة شارون:

"إن كان هدف الحرب هو الاستيلاء على البلاد من أجل الإسرائيليين ولذلك فقد تصرف الإسرائيليون تصرفا حسنا باحتلالهم المدن، وقتلهم سكانها. وليس من المرغوب فيه أن يكون فى إسرائيل عضو غريب، إن الناس من مختلف الأديان يمكن أن يؤثروا تأثيراً لا حاجة إليه على الإسرائيليين".

وكتبت فتاة من مستعمرة معوتشد: "لقد تصرف يشوع بن نون تصرفاً حسناً، بقتله جميع الناس فى أريحا ذلك لأنه كان من الضرورى احتلال البلاد كلها، ولم يكن

لديه وقت لإضاعته على الأسرى". وكانت الإجابات من هذا النوع تشكل ما بين ٦٦٪، ٩٥٪ حسب المدرسة والمستعمرة أو المدينة.

وعلى سؤال: "هل يمكن فى عصرنا تصفية جميع سكان قرية عربية محتلة" أجاب ٣٠٪ من التلاميذ بشكل قطعى "نعم". ونورد فيما يلى بعض ماكتبه التلاميذ: "أعتقد أن كل شئ قد جرى بشكل صحيح. إذ أننا نريد قهر أعدائنا وتوسيع حدودنا. ولكننا نحن أيضاً قتلنا العرب، كما يشوع بن نون والإسرائيليون". (تلميذ فى الصف السابع).

وكتب تلميذ من الصف الثامن: "فى رأيى يجب على جيشنا فى القرية العربية أن يتصرف مثل يشوع بن نون لأن العرب هم أعداؤنا، ولذلك فهم حتى فى الأسر سيفتشون عن إمكانية ليبطشوا بحراسهم".

والحقيقة أن هذه النتائج التى تحصلت من بحث نفسى اجتماعى ميدانى تتضمن فى حد ذاتها كما يقرر تامارين بحق إدانة كاملة للنظام التعليمى الإسرائيلى، الذى يعمل بتنسيق مع أجهزة التنشية الاجتماعية الإسرائيلية الأخرى لزرع الاتجاهات العنصرية والتعصبية فى وجدان وأذهان الشباب الإسرائيلى. وقد أحدثت نتائج هذا البحث عند نشرها ضجة كبرى فى إسرائيل، لسبب بسيط هو أنها كشفت بطريقة علمية وموضوعية عن عنصرية المجتمع الإسرائيلى، وقد دفع عالم النفس الإسرائيلى تامارين ثمن شجاعته الأدبية فى كشف الوجه القبيح لمجتمعه، ففصل من عمله كأستاذ بجامعة تل أبيب، بعد أن اشتهرت قضيته وأصبح يشار إليها "بقضية تامارين" وهكذا يمكن تقدير الآثار المدمرة التى أدت اليها الإستراتيجية الاجتماعية العنصرية التى تتبعها الصفوة الحاكمة الإسرائيلية.

٣- الأسس القانونية للتعصب والتمييز العنصرى فى إسرائيل:

من الحقائق المعروفة فى علم النفس الاجتماعى أن التعصب كظاهرة اجتماعية يمكن أن يوجد فى عديد من المجتمعات، كنتائج لتفاعل عمليات ونظم اجتماعية وممارسات سياسية مختلفة. غير أننا بصدد المجتمع الإسرائيلى نجابه حالة خاصة. ذلك أنه بالإضافة إلى ظواهر التعصب التى يمكن ردها إلى التفاعلات الاجتماعية المعقدة بين جماعات اجتماعية متعددة المذاهب والأصول والثقافات، هنا "التعصب

المقنن" إن صح التعبير. **ونعنى بذلك أن النظام القانونى الإسرائيلى بما يتضمنه من نظريات قانونية وتشريعات، يدعم التعصب والتمييز العنصرى داخل إسرائيل، وهو يعد ذلك ترجمة أمينة للصهيونية باعتبارها إيديولوجية عنصرية.**

ويقرر جورج تامارين فى دراسة له حول هذا الموضوع، أن خطورة هذه النصوص القانونية، تتمثل فى الآثار التى تتركها فى أذهان الناس، والتى تجعلهم فى طاعتهم لهذه النصوص، يحترمون القيم الكامنة وراءها، ويعتقدون فى سلامتها وصحتها، بالرغم من أنها قيم رجعية وعنصرية.

والممارسات التمييزية فى إسرائيل - بالمعنى الواسع للكلمة بما يجعلها تتضمن كل صور عدم التسامح - والتى لها أسس قانونية فى إسرائيل تتركز فى ثلاثة ميادين:

١-إنكار بعض حقوق الإنسان الأساسية بواسطة قوانين تمييزية.

٢-خرق حرية الاعتقاد بواسطة الإكراه الدينى.

٣-تشريعات تتضمن تمييزاً عنصرياً موجهاً ضد الأقلية العربية.

ويرى تامارين أن أخطر القوانين المضادة للديموقراطية والتى تتسم بطابع رجعى هو القانون الخاص بتنظيم المحاكم الحاخامية الصادر عام ١٩٥٣ والذى هو صورة معدلة لتشريع صدر أيام الانتداب البريطانى على فلسطين. وينص هذا القانون على أن مسائل الأحوال الشخصية يحكم فيها على أساس قوانين الشريعة اليهودية. وهذا القانون يعتبره جورج تامارين أكثر القوانين رجعية للأسباب التالية:

(أ) أنه يخلق موقفاً عنصرياً عن طريق منعه للزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود، وأيضاً بين بعض فئات اليهود وفئات يهودية أخرى، وهو بالتالى يخالف مخالفة صريحة للفقرة ١٦ من إعلان حقوق الإنسان الذى أصدرته الأمم المتحدة. إن هذا القانون - من وجهة النظر الاجتماعية النفسية - أحد المصادر الرئيسية للتعصب، ويؤثر أيضاً فى القسم المتعصب غير المتدين من الجمهور الإسرائيلى، وذلك بتدعيم اتجاه الرفض إزاء الأغيار.

(ب) أنه يخلق فئة مستقلة من القضاة، لا تحكم وفق قوانين الدولة، وفى نفس الوقت فهو يمارس التمييز ضد المرأة التى لا تكون قاضية دينية، وأيضاً يميز بين فئتين من المحامين، الفئة التى يسمح لها بالمرافعة أمام المحاكم الدينية، والفئة

التى لا يسمح لها بذلك.

(ج) يتسبب فى التشكيك فى صحة عقود الزواج والطلاق التى أبرمت خارج إسرائيل وفق القانون المدنى، وهو بالتالى يخرق القواعد المستقرة فى القانون الدولى الخاص.

(د) يدعم مبدأ عدم المساواة بين اليهود وغير اليهود. ذلك أن غير اليهود لا يقبلون كشهود أمام المحاكم الدينية.

(هـ) يخرق حرية الاعتقاد وذلك بإجبار الأشخاص غير المتدينين أن يتزوجوا أو يطلقوا من خلال ممارسة طقوس دينية تقليدية، وأحياناً يتطلب منهم الارتداد عن عقيدتهم حتى يسمح لهم بالزواج.

(و) ينكر ولاية المحكمة العليا الإسرائيلية حقها فى صحة حالات الزواج الممنوعة وفقاً للقوانين الدينية.

ويرجع تامارين صعوبة تغيير هذا القانون الذى يتضمن بذاته نظرة عنصرية رجعية لكل شخص ليس يهودياً، إلى العقلية المتحجرة للجيل القديم من الصفوة السياسية الحاكمة. وهذا الجيل القديم المتشبث بمبادئ الصهيونية ما يزال يرى أن تدعيم الدين من شأنه تدعيم الأواصر بين المواطنين اليهود الذين ينتمون إلى المجتمع الإسرائيلى.

وإذا أضفنا إلى ذلك، القوانين المتعسفة والجائرة التى طبقت وما زالت تطبق على العرب الفلسطينيين فى إسرائيل، لأدركنا كيف يكشف المجتمع الإسرائيلى عن وجهه العنصرى الصريح فى التعامل مع العرب الذين كانوا يوماً الأغلبية وأهل البلاد الأصليين.

رابعاً: تحليل سياسى لتشكيل الشخصية الإسرائيلية العنصرية:

السمات الأساسية للشخصية الإسرائيلية:

إيديولوجية عنصرية هى الصهيونية، قامت على أساس عدد من الأوهام والأساطير الزائفة، كان لابد لها حين تؤسس تجمعاً بشرياً من خلال عملية استعمار

استيطانى، أن تطبع هذا التجمع بطابعها، عن طريق فرض ونشر وتدعيم إستراتيجية عدوانية وعنصرية للتنشئة الاجتماعية. وقد أدى ذلك كله إلى ظهور الشخصية الإسرائيلية وهى متأثرة بالجذور العنصرية الراسخة للصهيونية. والحقيقة أنه لا يمكن لنا أن نفهم الطابع العنصرى للإيديولوجية الصهيونية بغير تعقب آثاره على مستوى المجتمع والشخصية معاً. وإذا كنا قد عرضنا للمجتمع الإسرائيلى من زاوية تشريح استراتيجية التنشئة الاجتماعية العدوانية التى فرضتها الصفوة الإسرائيلية على الجماهير اليهودية في إسرائيل، فإنه من الأهمية بمكان أن نحلل أخيراً عناصر ومقومات الشخصية الإسرائيلية، التى هى المحصلة النهائية لممارسات الإيديولوجية الصهيونية.

إن التحليل الدقيق للشخصية الجماعية فى إسرائيل، يجعلنا نقرر منذ البداية، أن هناك هوية إسرائيلية فى دور التكوين، تختلف فى سماتها بدرجة قليلة أو كبيرة عن الهوية اليهودية السائدة فى عدد من التجمعات اليهودية فى العالم الغربى. وينبغى أن نتساءل منذ البداية عن الدلالات السياسية التى يمكن أن نعطيها للعناصر والمقومات المكونة لها، وعن خطة الصفوة السياسية الحاكمة فى الربط بين الهوية اليهودية التقليدية والهوية الإسرائيلية البازغة.

هذه الأسئلة الهامة لا نستطيع أن نجيب عنها إلا إذا حاولنا أن نقوم بعملية تحليل سياسى للشخصية الإسرائيلية.

والواقع أن الدراسة العميقة للشخصية الإسرائيلية تمثل فى حد ذاتها مطلباً أساسياً لفهم العدو الصهيونى فهما علمياً دقيقاً. غير أن تحليل تأثير مكونات هذه الشخصية على الصراع العربى الإسرائيلى من وجهة النظر السياسية والاجتماعية يعد ضرورة حيوية. ذلك أن وقوفنا عند عتبات البحث السيكلوجى الخالص، أو الدراسة الاجتماعية المحدودة، بغير أن نبسط بصرنا إلى ما يترتب على النتائج العلمية التى نحصل عليها، من آثار اللحظة الراهنة فى الصراع، وتطوراته فى المستقبل، يعد نكوصا واضحا عن توظيف البحث العلمى فى خدمة الأهداف القومية لأمتنا العربية، فى صراعها المصيرى مع الدولة الصهيونية العدوانية.

المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الإسرائيلية:

حاول بعض الباحثين تحديد المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الإسرائيلية فى الوقت الراهن. أولى هذه المشكلات هى انتقال "السمات اليهودية" التقليدية إلى "الهوية الإسرائيلية البازغ". ويرى بعض المحللين النفسيين، أن هذه السمات التى يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودى تتعلق بنظرة اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة، ومن بين هذه السمات: القلق والإحساس بالدونية، والشك، وعدم الثقة فى غير اليهود. وقد انتقلت بعض هذه السمات فيما يرى بعض الباحثين النفسيين الأمريكيين إلى المجتمع الإسرائيلى. **فقد لا حظوا سيادة مشاعر الشك الذى كان نتيجة إحساسهم بتفردهم وإمتيازهم من ناحية، وخضوعهم لغير اليهود من ناحية أخرى خلال موجات الاضطهاد التى جرفتهم أزماناً طويلة. غير أن الإحساس بالدونية تحول لكى يصبح إحساساً بالعظمة والتفوق لدى الإسرائيلى تجاه باقى العالم.** وهذا الإحساس بالتفوق يعبر عنه الإسرائيلى فيما يزعمه لنفسه من حقوق لها مكانة متميزة، وتتجاوز فى مداها حتى المبادئ المستقرة فى القانون الدولى العام. ولعل قانون العودة الإسرائيلى الذى يمنح الجنسية الإسرائيلية فورا لكل يهودى يعلن عن رغبته فى الهجرة إلى إسرائيل، أبرز مثال على ذلك. ويقرر عالم النفس اليهودى روبنشتين فى ملاحظاته الشخصية عن "النفسية الإسرائيلية" أن الإسرائيلية كأفراد وكمجتمع، يتسمون بإتجاهات شك عميق الجذور تجاه الآخرين. وهذا الشك فى رأيه العلاقات الشخصية فى إسرائيل، ويكشف عن نفسه فى كل تفاعل مع العالم الخارجى. **وهو يصف ثلاثة مستويات من الشك والرفض:**

المستوى الأول موجه ضد العرب، والمستوى الثانى موجه ضد العالم غير اليهودى، والمستوى الثالث موجه ضد النظم والأجهزة الدولية. ويخلص روبنشتين من دراسته إلى أنه يمكن وصف النفسية الإسرائيلية على ضوء وجود "نسق لجنون الاضطهاد" يتسم بالتبلور والتحدد يهيمن عليها، ويستمد هذا العرض المرضى جذوره من شك اليهود التقليدى فى الأغيار (كل من هم ليسوا يهوداً)، والذى تسرب إلى التكوين النفسى للإسرائيليين المعاصرين، لكى يتوجه أساسا للعربى مما انعكس بشكل واضح على السياسات الإسرائيلية فى النظرية والتطبيق.

ولعل العامل الحاسم فى العلاقات بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع

الإسرائيلى مرتبط ارتباطا وثيقاً بمشكلة الهوية. وفى هذا الصدد يقارن الباحثون بين "الهوية اليهودية التقليدية" و "الهوية الإسرائيلية البازغة". ووفقاً لما تراه العالمة الأمريكية مارجريت ميد فى كتابها "إسرائيل ومشكلات الهوية" أن العامل الذى كان ضروريا دائما للحفاظ على الهوية اليهودية هو وجود جماعة أو جماعات من غير اليهود. "فالشىء الوحيد الذى كان ضروريا تماما لتميز جماعة من اليهود هو وجود بعض الأغيار". وقد وجدت مارجريت ميد من ملاحظاتها فى المجتمع الإسرائيلى إنشغال الإسرائيليين الشديد بحس متصل متعلق بالهوية، وبالرسالة المتفردة لإسرائيل وبوضع شعب إسرائيل الذى يختلف عن أى شعب آخر. وكل هذا يتطابق مع السمات التى أشرنا إليها فى مقدمة هذا البحث. للمذاهب، والإيديولوجيات العنصرية.

وتتفق أحدث البحوث النفسية الاجتماعية التى أجراها العالم اليهودى "هرمان"[١٩] عن الهوية الإسرائيلية عام ١٩٧١، مع النتائج التى توصلت لها مارجريت ميد فى الخمسينات. فهو يقرر أن تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود، مكون أساسى من مكونات الهوية اليهودية، وان صورة غير اليهودى تحتل وضعا مركزيا فى ذهن اليهودى، ومازال وضع الحدود بين اليهود وعالم غير اليهود له تأثير قوى غلاب فى إسرائيل.

غير أنه فى الحديث عن الهوية الإسرائيلية البازغة، ينبغى الالتفات إلى تعدد التكوينات النفسية فى إسرائيل، بحسب الأجيال المختلفة التى ينتمى اليها الإسرائيليون. ولعل جيل السابرا (وهم المواليد الذين ولدوا فى إسرائيل) هو الذى يركز الباحثون على محاولة استكشاف معالم بنائه النفسى المتميز. ومرد ذلك الاهتمام إلى الاختلاف النوعى فى الخبرة الاجتماعية النفسية لليهود المهاجرين إلى إسرائيل، وهؤلاء الذين ولدوا على أرضها ولا يعرفون بلداً غيرها. هذا الجيل يتسم من وجهة نظر عديد من الباحثين بسمات نفسية متفردة أهمها هى:

- التمركز حول إسرائيل (بالمعنى الزمانى والمكانى للكلمة).
- عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودى الحديث (حتى ما يتعلق منه بتاريخ آبائهم).
- طموحهم يتركز حول بلوغ مستوى الأمان المادى، وتحقيق مستوى مريح من الحياة.
- إحساس قوى بالإنتماء.

وإذا كان اختلاف الأجيال يعكس أثره بوضوح على بناء الهوية الإسرائيلية البازغة، فإن هناك في رأى هرمان أبعادا لها دلالة هامة فى قياس العوامل التى تشكل هذه الهوية فى الوقت الراهن. ولعل أهم هذه الأبعاد قاطبة: الأصل السلالى (يهود شرقيون ويهود غربيون). ودرجة التدين (يهود علمانيون ويهود متدينون).

ولعل السؤال الرئيسى الذى ينبغى إثارته هنا هو: ما تأثير الهوية الإسرائيلية البازغة بملامحها وقسماتها التى حاولنا تحديدها على تطورات الصراع العربى الإسرائيلى، ومن ناحية أخرى ما تأثير الصراع عليها؟

لعل أهم ما تنبغى الإشارة اليه، أن الصفوة الحاكمة الإسرائيلية تحاول من خلال استراتيجية نفسية اجتماعية متماسكة تشكيل الهوية الإسرائيلية البازغة، وفق نموذج يسمح فى النهاية لها بتحقيق سياستها العسكرية والاقتصادية بأكبر قدر من الدقة والمرونة والفاعلية. **ومن هنا يمكن القول إن السمات النفسية التى تميز جماهير الإسرائيليين، كالشك والرفض والعدوان إزاء العرب، وإزاء العالم غير اليهودى، وأخيراً إزاء الأجهزة والمنظمات الدولية، ليس محتما أن تميز أيضاً أعضاء الصفوة الحاكمة الإسرائيلية بنفس الطريقة التى نجدها لدى الجماهير التى يتشكل وعيها السياسى والاجتماعى وفقاً لمخططات الصفوة السياسية.** فمن المتفق عليه فى بحوث علم النفس الاجتماعى أنه حتى لو سلمنا بأن هناك طابعاً قومياً يميز شعبا من الشعوب، فمن المحتمل ألا نجد السمات النفسية الاجتماعية التى يتضمنها لدى الصفوة أو القادة. وحتى إذا ما ظهرت سمات الطابع القومى للشخصية بالنسبة للصفوة السياسية، فإن قراراتهم غالباً ما تتأثر بالحقائق الصلبة المتعلقة بحجم القوة التى تحت تصرفهم، وبحقائق الجغرافيا والتاريخ والاقتصاد.

الدلالات السياسية لمحاكمة ايخمان:

ويكشف عن هذه الملاحظة الهامة محاكمة إيخمان فى إسرائيل، التى تبين بشكل بارز الفجوة بين الاستراتيجية التى صاغتها الصفوة الإسرائيلية لتشكيل الهوية الإسرائيلية، والتى تركز تركيزاً شديداً على ربطها بالهوية اليهودية، خصوصا فيما يتعلق بالشك فى غير اليهود، وبين الواقع النفسى لدى الإسرائيليين، الذين نتيجة لظروف متعددة لم يعودوا يهتمون بعمق الروابط بينهم وبين يهود العالم.

تقرر الباحثة اليهودية الشهيرة حنا آرندت فى كتابها الذى أثار سخط الصفوة الحاكمة الإسرائيلية "إيخمان فى القدس"، أن هذه الصفوة لم يكن هدفها محاكمة إيخمان باعتباره شخصاً ولكن بإعتباره رمزاً. ويكشف عن ذلك تصريح لبن جوريون قبل المحاكمة قرر فيه: "ليس فردا ذلك الذى يقبع فى القفص لكى يجابه محاكمته التاريخية، ولا هو أيضاً النظام النازى بمفرده ولكنه إيديولوجية المعاداة للسامية عبر التاريخ.".

وكانت الدوافع الكامنة وراء محاكمة إيخمان لدى الصفوة الإسرائيلية متعددة. وهى كما يحصرها دانيل بل فى مقاله "أبجديات العدالة" الذى ينقد فيه كتاب آرندت:

١ – لكى يشهد العالم على المصير الذى لاقاه اليهود.

٢ – ولتحميل ضمير الأمم وزر الإحساس بالذنب حتى تندفع للدفاع عن مصالح إسرائيل.

٣ – ولكى يثبتوا لليهود فى إسرائيل نوعية الحياة التى عاشها اليهود فى الشتات، والتى أدى اليها أنهم عاشوا كأقلية.

٤ – ولكى يبرهنوا للإسرائيليين أخيراً صواب الحل الصهيونى لمشكلة اليهود.

وتكشف حنا آرندت فى كتابها عن أن بن جوريون صمم خطة المحاكمة بكل مراحلها قبل أن تبدأ، وكشف عن أهدافه التى يريد أن يحققها من ورائها فى سلسلة مقالات نشرها فى جريدة "دافار" ومن بينها "أن جيل الإسرائيليين المعاصرين فى خطر أن يفقدوا روابطهم مع الشعب اليهودى، وبالتالى مع تاريخهم ولذلك فمن الضرورى لهم أن يذكروا ماذا حدث للشعب اليهودى".

وهكذا يمكننا أن نرى من خلال تخطيط الصفوة السياسية الإسرائيلية لمحاكمة إيخمان كيف تعمل هذه الصفوة بدأب لتشكيل الشخصية الإسرائيلية بناء على نموذج عنصرى محدد ينهض أساسا على الشك فى غير اليهود عموماً ورفضهم، والعداء ازاء العرب خصوصا، وكل ذلك انطلاقاً من المقولة العنصرية الأساسية التى تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار، ولذلك هم أسمى الأجناس قاطبة.

المكونات العنصرية فى الشخصية الإسرائيلية:

إذا كنا قد أكدنا أن الصفوة السياسية الإسرئيلية قد وضعت استراتيجية للتنشئة

الاجتماعية للإسرائيليين نسجت خيوطها من مسلمات الإيديولوجية الصهيونية العنصرية، فإنه يبقى أمامنا حتى ندعم هذا الحكم، أن نستشهد بالبحوث النفسية الاجتماعية الميدانية الإسرائيلية ذاتها، لكى نرى كيف نجحت هذه الاستراتيجية الرجعية فى بلورة عدد من الاتجاهات الأساسية المصبوغة بالعنصرية بشكل صريح أو ضمنى فى الشخصية الإسرائيلية.

ويكشف عن ذلك بوضوح كامل سلسلة الأبحاث الميدانية التى قام بها عالم النفس الإسرائيلى سيمون هيرمان، والتى نشرها فى كتابه "الإسرائيليون واليهود" وترد أهمية هذه الدراسات إلى أنها اعتمدت على بحث عينات قومية ممثلة لطلبة المدارس الثانوية فى إسرائيل الذين يقعون فى فئة العمر ١٦ – ١٧ سنة، وامتدت فى بعض جوانبها لتشمل طلبة الجامعات فى السنوات الأولى. وقد قام هيرمان بدراسته الرئيسية عام ١٩٦٥، واستكملها بدراسات أخرى عام ١٩٦٨.

وفى دراسته التكميلية التى قام بها عام ١٩٦٨، درس هيرمان عينة من طلبة المدارس الثانوية فى القدس وحيفا، وطبق عليهم استمارة بحث تحتوى على عدد من الأسئلة. وقد صنف هيرمان عينته إلى ثلاث فئات "متدينون" ويعنى بهم من يحرصون على أداء الشعائر الدينية بانتظام، "**وتقليديون**" ويعنى بهم من يحترمون التقاليد الدينية اليهودية، غير أنهم لا يواظبون على أداء الشعائر الدينية، و"**غير متدينين**" ويعنى بهم من لا يمارس الشعائر الدينية.

وتكشف نوعية الأسئلة عن الإطار النظرى الذى ينطلق منه هيرمان فى دراسته للهوية الإسرائيلية، وهذا الإطار يتضمن فى الواقع المقولات العنصرية الأساسية الكامنة فى الصهيونية. إذ نجد أمامنا ثلاثة عشر سؤالا تتناول الموضوعات الآتية:

- الإسرائيليون باعتبارهم استمراراً للشعب اليهودى.
- دولة إسرائيل باعتبارها استمراراً للتاريخ اليهودى.
- السمات السلبية للسلوك اليهودى أثناء المذابح التى جرت لليهود فى ألمانيا (الهولوكوست).
- الجوانب الإيجابية للسلوك اليهودى أثناء المذابح التى جرت لليهود.
- التعاطف مع معاناة اليهود أثناء المذابح.

- التعاطف مع اليهود الذين عانوا من الاعتداء عليهم فى البلاد الإسلامية.
- إمكانية تكرار المذابح لليهود.
- واجب اليهود أن ينظروا إلى أنفسهم باعتبارهم من بقوا أحياء من المذابح اليهودية.
- تعريف الصهيونية مجرداً.
- نظرتهم إلى أنفسهم باعتبارهم صهيونيين.
- مدى شعورهم بالقرب من اليهود الأمريكيين الذين يرغبون والذين لا يرغبون فى الهجرة إلى إسرائيل:
- إمكانية اقتلاع اتجاهات معاداة السامية.
- معاداة السامية وسمات وسلوك اليهود.

ولنتأمل نتائج البحث ودلالاتها الواضحة على عنصرية الصهيونية:

جدول رقم (١)

الإسرائيليون باعتبارهم استمرارا للشعب اليهودى

(فى رأيك هل نحن فى إسرائيل؟)

	كل المبحوثين	متدينون	تقليديون	غير متدينين
١-استمرار للشعب اليهوددى؟	٧٢٪	٩٤٪	٦٧٪	٥٦٪
٢-شعب جديد تكون فى إسرائيل؟	٢٢٪	٦٪	٢٦٪	٣٤٪
٣-شعب جديد سيتكون فى إسرائيل؟	٦٪	-	٧٪	١٠٪
المجموع٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪
عدد الحالات	٢٤٥	٨٣	٦٣	٩٩

ويتضح من الجدول أن الغالبية العظمى فى المبحوثين بكل فئاتهم: المتدينون، والتقليديون وغير المتدينين يرددون ما لقنته لهم الصهيونية، من أن هناك شعباً يهودياً متميزاً كانت له مسيرته المستمرة المتسقة عبر التاريخ، وأبعد من ذلك فالإسرائيليون هم امتدد هذا الشعب.

وهذه الأسطورة فى الواقع إحدى المقولات الأساسية فى الإيديولوجية الصهيونية العنصرية.

وإذا حاولنا أن نعرف توزيع الإجابات وفق الفئات الثلاث الأساسية للمبحوثين: المتدينيون والتقليديون وغير المتدينين، فإننا نلاحظ ملاحظة هامةهى أنه كلما زادت شدة الاتجاه الدينى لدى فئة من الفئات زاد تأكيد استمرارية الشعب اليهودى فقد أكد ذلك ٩٤.٪من المتدينين، ٦٧.٪ من التقليديين، ٥٦.٪ من غير المتدينين.

جدول رقم (٢)

دولة إسرائيل باعتبارها استمراراً للتاريخ اليهودى

(هل دولة إسرائيل فى رأيك هى امتداد للتاريخ اليهودى؟)

	كل المبحوثين	متدينون	تقليديون	غير متدينين
١- نعم هى كذلك بالنسبة لكل عهود التاريخ اليهودى.	٥٤.٪	٦٣.٪	٥٥.٪	٤٦.٪
٢- نعم ولكن هى امتداد فقط للزمن الذى عاش فيه اليهود هنا.	٢٨.٪	٢١.٪	٣٠.٪	٣٣.٪
٣-نعم ولكن هى امتداد للزمن الذى عاش فيه اليهود فى الخارج.	٢٪	١.٪	٢.٪	١.٪
٤- لا، وإنما هى قد فتحت عهدا تاريخيا جديداً.	١٦.٪	١٥٪	١٣.٪	٢٠.٪
المجموع٪	١٠٠.٪	١٠٠.٪	١٠٠.٪	١٠٠.٪
عدد الحالات	٢٤٨	٨٢	٦٤	١٠٢

ويتضح من الجدول رقم ٢ أن غالبية المبحوثين بكل فئاتهم: المتدينون والتقليديون وغير المتدينين يؤمنون بأسطورة الاستمرارية التاريخية للشعب اليهودى. **ووفقا لهذه الأسطورة فالشعب اليهودى لم ينقطع تاريخه عبر الزمن، وإستطاع أن يحتفظ بنقائه العنصرى من خلال محاربة الاندماج مع المجتمعات المختلفة التى عاش اليهود بين ظهرانيها، وأبعد من ذلك، فدولة إسرائيل التى أنشئت عام ١٩٤٨ هى امتداد لهذا التاريخ اليهودى المتصل.** وهذه الأسطورة تتنافى مع الحقائق التاريخية الثابتة..

جدول رقم (٣)

السمات السلبية للسلوك اليهودى أثناء الهولوكوست

	كل المبحوثين	متدينون	تقليديون	غير متدينين
١- السلبية، الاستسلام كالماشية تساق للذبح	٪.٥٥	٪.٣٦	٪.٤٥	٪.٧٠
٢- التعاون مع النازى.	٪.٢٣	٪.٤٠	٪.٣١	٪.١٠
٣- عدم إدراك الحقائق (خطر النازية)	٪.١٣	٪.١٧	[illegible]	٪.١٣
٤- الافتقار إلى التعاون والتماسك	٪.٩	٪.٧	٪.١٤	٪.٧
المجموع.٪	٪.١٠٠	٪.١٠٠	٪.١٠٠	٪.١٠٠
العدد الكلى للإجابات	١٤٢	٤٢	٢٩	٧١

ويتضح من الجدول السابق أن غالبية المبحوثين ركزوا على سلبية سلوك اليهود أثناء الهولوكست. وتظهر أهمية هذه النتيجة من تحليلنا لما وراء تركيز الدعاية الصهيونية حول تضخم ما حدث لليهود من اضطهاد من ناحية، وإلحاحها على

بشاعة السلوك الاستسلامى اليهودى. والغرض من ذلك فى الواقع هو خلق وتدعيم نزعات العدوان فى الشخصية الإسرائيلية البازغة، كرد فعل لما حدث قبل من استسلام يهودى مشين فى مواجهة من عذبوهم من الألمان.

ويتضح من الجدول التالى أن الدعاية الصهيونية العنصرية نجحت فى إقناع جماهير الإسرائيليين بأكذوبة الاعتداء على اليهود فيما أطلقت عليه البلاد الإسلامية. وهكذا نجد أن حوالى ٦٨٪ من المبحوثين يقررون تعاطفهم مع هؤلاء اليهود الذين كانوا ضحايا الاعتداءات المزعومة عليهم فى البلاد الإسلامية.

جدول رقم (٤)

التعاطف مع اليهود الذين عانوا من الاعتداء عليهم فى البلاد الإسلامية

"هل تتعاطف مع اليهود الذين عانوا من الاعتداء عليهم فى البلاد الإسلامية؟"

	كل المبحوثين	اليهود الغربيون	اليهود الشرقيون
١- لدرجة كبيرة.	٣٠٪	٢٦٪	٤٣٪
٢- نعم.	٣٨٪	٣٨٪	٣٧٪
٣- يتعاطفون قليلاً.	٢٥٪	٢٧٪	١٨٪
٤- لا يتعاطفون.	٧٪	٩٪	٢٪
المجموع٪	١٠٠٪	١٠٠٪	١٠٠٪
عدد الحالات	٢٤٥	١٩٣	٥١

وإذا أردنا أن نغوص فى الأهداف التى تسعى من ورائها الدعاية الصهيونية إلى إبراز هذه الاعتداءات المزعومة، فإننا يمكننا أن نقرر أنها تتمثل أساساً فى زرع الكراهية للشعوب العربية فى اللاشعور الإسرائيلى، ومنثم تبرير السياسة العدوانية التى تنتهجها إسرائيل إزاء العرب.

جدول رقم (٥)

إمكانية تكرار المذابح اليهودية (الهولوكست)

	كل المبحوثين
١- نعم فى جميع البلاد.	٪١٧
٢- نعم فى معظم البلاد.	٪١١
٣- نعم فى بعض البلاد.	٪٥٦
٤- لا يمكن أن تتكرر فى أى بلد.	٪١٦
المجموع٪	٪١٠٠
عدد الحالات	٢٥٠

ما الذى يتضح من الجدول السابق؟

نلاحظ أن ما يكمن وراء السؤال حول إمكانية تكرار المذابح اليهودية هو الفكرة الصهيونية الموغلة فى العنصرية فى أن السامية مسألة لا فكاك لليهود منها، وذلك فى أى زمان أو مكان. وقد استخدمت هذه الفكرة العنصرية لتبرير الانعزال الثقافى والحضارى اليهودى عن المجتمعات التى عاشوا فيها، وكذلك لتبرير ضرورة إنشاء دولة يهودية نقية وخالصة، حيث يتاح فيها لليهود أن يعيشوا بغير أن يعانوا مشاعر العداء للسامية. وإذا كانت غالبية المبحوثين رأت إمكانية تكرار المذابح اليهودية فى بعض البلاد، فإن ذلك يعنى بوضوح تغلغل الفكرة العنصرية الخاصة بأبدية معاداة السامية فى الوجدان الإسرائيلى، بكل ما يترتب عليها من تداعيات نفسية ومظاهر سلوكية، تجاه غير اليهود من ناحية، وتجاه العرب على وجه الخصوص من ناحية ثانية.

ونجد فى الجدول التالى تأكيداً على الفكرة العنصرية الصهيونية الخاصة بأبدية معاداة السامية. وتوضح النتائج أن ٤٧٪ من المبحوثين قد أكدوا أنه لا يمكن القضاء نهائياً على معاداة الصهيونية فى أى بلد. ومعنى ذلك أن الصهيونية قد نجحت فى تشكيل اتجاهات الإسرائيليين بصورة تجعلهم يتخذون اتجاهاً عدائياً ضد (غير اليهود) ما دام قد أصبح قدر اليهود أن يناصبهم العالم العداء فى صورة معاداة السامية.

جدول رقم (٦)

إمكانية القضاء نهائياً على المعاداة للسامية

(هل يمكن فى رأيك القضاء نهائياً على المعاداة للسامية فى المستقبل القريب؟)

	كل المبحوثين
١- نعم فى كل البلاد.	١٦٪
٢- نعم فى أغلب البلاد.	٢٤٪
٣- نعم فى بعض البلاد.	١٣٪
٤- لا يمكن القضاء عليها فى أى بلد.	٤٧٪
المجموع٪	١٠٠٪
عدد الحالات	٢٣٩

جدول رقم (٧)

معاداة السامية وعلاقتها بسمات وسلوك اليهود

(هل سمات اليهود وسلوكهم يسهمان بأى طريقة فى انتشار معاداة السامية؟)

	كل المبحوثين
١- نعم.	٨٠٪
٢- لا.	٢٠٪
المجموع٪	١٠٠٪
عدد الحالات	٢٣٥

ويتضح من هذا السؤال مدى التناقض فى اتجاهات الإسرائيليين إزاء معاداة السامية. ففى الوقت الذى يرون فيه خضوعاً منهم للدعاية الصهيونية أبدية معاداة السامية، كما رأينا فى الجدول السابق، إذا بهم يعترفون هنا أن سمات اليهود وسلوكهم يسهمان فى انتشار معاداة السامية. ومعنى هذا أن معاداة السامية فى البلاد

التى تظهر فيها لا تصدر عن عداء تقليدى من غير اليهود إزاء اليهود، بقدر ما هى استجابة للسلوك اليهودى الذى يتسم بالانعزالية، والرغبة فى التمايز عن الآخرين والمبالغة فى إظهار هذا التمايز.

مناقشة إجمالية للنتائج

إذا حاولنا أن ننظر لنتائج هذا البحث نظرة كلية شاملة، فإننا نستطيع أن نضع أيدينا على المكونات العنصرية الأساسية للصهيونية. ويمكن تحديد هذه المكونات فى عدد من الأفكار الرئيسية:

١ – التأكيد على استمرارية الشعب اليهودى عبر التاريخ وتفرده.

٢ – التركيز على الاضطهاد الذى لاقاه اليهود فى المجتمعات الغربية.

٣ – التركيز على الاعتداءات المزعومة التى وقعت على اليهود فى البلاد الإسلامية.

٤ – إثارة الخوف الدائم من احتمال تكرار المذابح اليهودية.

٥ – تأكيد استمرارية معاداة السامية فى العالم.

إن هذه الأفكار الرئيسية هى التى نجحت الصفوة الحاكمة الإسرائيلية فى زرعها فى أذهان الإسرائيليين، مما أدى بهم إلى أن تتشكل اتجاهاتهم الأساسية بشكل مرضى، ويبدو ذلك كما ذكرنا فى بداية هذا الفصل، فى الشك والرفض والعدوان إزاء العرب، وإزاء العالم غير اليهود، وأخيراً إزاء الأجهزة والمنظمات الدولية.

لقد أدت استراتيجية التنشئة الاجتماعية الإسرائيلية إلى أن تصطبغ الشخصية الإسرائيلية بطابع تسلطى واضح، كما يؤكد عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين. وقد ساعد على صياغة هذه الشخصية العنصرية تدعيم القيم التى تشجع على العنف والعدوان إزاء العرب سواء بالتنشئة للفلسطينيين الذين ظلوا داخل حدود إسرائيل بعد عام ١٩٤٨، أو بالنسبة للبلاد العربية المحيطة بإسرائيل، ويكشف عن ذلك كله سياسة الردع التى صاغ مبادئها بن جوريون فى الخمسينات، والتى انطلقت من مسلمة عنصرية قاطعة مؤداها أن العرب لا يعرفون إلا لغة القوة والعنف [٢٠]، ولا نحتاج إلى كبير عناء، لنكشف أن هذا الحكم، هو نفسه الذى تردده كافة الأنظمة العنصرية حين تقيم تفرقة حاسمة بين العنصر النقى المتمثل فى المستعمرين أياً

كان جنسهم، ويبين العنصر المنحط المتمثل فى أهالى البلاد الأصليين. وهذه التفرقة العنصرية هى التى تقف مبرراً لممارسة العنف والإرهاب إزاء أصحاب البلاد الأصليين. تم ذلك تاريخياً فى الجزائر، وما زال يمارس فى أفريقيا فى جنوب أفريقيا وفى إسرائيل التى زرعها الاستعمار فى قلب العالم العربى.

خـــــاتمة

فى ضوء بحثنا عن الصهيونية باعتبارها إيديولوجية عنصرية، يمكن القول إن الطابع العنصرى الذى يسم الصهيونية منذ ظهورها فى القرن التاسع عشر، قد أدى - بعد إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ - إلى ظهور مجتمع عنصرى بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. ولذلك كان ظهور كتاب العالم الإسرائيلى **إسرائيل شاحاك** رئيس لجنة حقوق الإنسان الإسرائيلية وعنوانه **(عنصرية دولة إسرائيل)** صدمة لكثير من الدوائر الثقافية الغربية التى خدعت طويلا بدعاوى الاشتراكية والديموقراطية ومجتمع المساواة فى اسرائيل. كما ان بحوث عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين والتى نشرها فى كتابه (المعضلة الإسرائيلية) والتى تسببت فى فصله من عمله كأستاذ فى جامعة تل أبيب، وكلها بحوث ميدانية، لتثبت بما لا يدع مجالاً للشك كيف أدت مسلمات الصهيونية العنصرية، وسياساتها التطبيقية إلى صياغة شخصية إسرائيلة تتسم بكونها عدوانية وتسلطية ومتعصبة ومنغلقة.

ومن الجدير بالاهتمام أن السمات يشترك فيها إلى حد كبير عديد من نظم الاستعمار الاستيطانى الى مازالت باقية فى عالمنا حتى الوقت الراهن. ومن هنا تكتسب الدراسات المقارنة لهذه النظم أهمية خاصةنظراً لأنها جديرة بكشف البنية الأساسية لهذه النظم من ناحية، وتبرز مكونات العقلية الاستيطانية من ناحية أخرى[٢١] إن نتائج هذه الدراسات العلمية المقارنة، يمكن أن تكون ذات قيمة بالغة لصانعى السياسة فى البلاد التى تقاوم هذه النظم الاستعمارية، فعلى ضوئها يمكن رسم الاستراتيجية الثورية لمجابهتها، مهما ظنت هذه النظم أنها قادرة على البقاء إلى الأبد. ومن خلال هذه الاستراتيجية يمكن القضاء - ولو فى الأجل الطويل - على هذه الأوهام الاستعمارية، من خلال العمل الفكرى والنضال السياسى والعسكرى.

الهوامش والتعليقات

(١)سبق لنا أن قمنا بدراسة تأصيلية واسعة المدى لهذه الظاهرة أنظر: - السيد ياسين، د. على الدين هلال وآخرين، الاستعمار الإستيطانى الصهيونى فى فلسطين القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية، ١٩٧٥

(٢) راجع مناقشة تفصيلية للموضوع فى دراستنا: الأيديولوجية، والتكنولوجيا: تعريفات مبدئية ووضع المشكلة، مجلة الكاتب، أغسطس ١٩٦٩، العدد ١٠١، صفحة ٧ -٢٠.

(٣) Schaff, A, La defintion fonctionnelle de l'ideologie, et le probleme de "la fin du siecle de l'ideologie", l'homme et la Societe, no. 4, 1967.

(٤) Felman, D, in: Joseph S. Roucek, (ed)., Twentieth century political thought, New York: Philosophical library; 1946, 105-131; Cox, O.C. Caste, Class & Race, New York: Monthly Review press, 1959.

(٥) عبارة لادولف هتلر فى كتاب، كفاحى، مذكور فى فيلمان، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٦) مذكور فى فيلمان، مرجع سابق، ص ١٠٧.

(٧) Gobineau, D, Essai sur l'inegalite des races humaines, Paris; libraire de Paris, (Sans date).

(٨) أنظر عرضـا دقيقاً وتحليلا نقدياً لهذه النظريات العنصرية فى: Sorokin, P.A., Contemporary Sociological theories, N.Y. Harper Torchbooks, 1964, 219-251.

(٩) راجع: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، رؤية نقدية، تأليف وإشراف د. عبد الوهاب المسيرى بالاشتراك مع سوسن حسين، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٥.

(١٠) بديعة أمين، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية، بيروت، دار الطليعة ١٩٧٤، ص١٢.

(١١) جمال حمدان، اليهود انثروبولوجيا، القاهرة: دار الكاتب العربى، ١٩٦٧.

(١٢) انظر: إبراهيم العابد، العنف والسلام، دراسة فى الاستراتيجية الصهيونية، بيروت: مركز الأبحاث، ١٩٦٧، وانظر أيضاً.

(١٣) El Kodsy, A & Lobel, E. The Arab world and Israel, USA: Monthly Review 1970.

Ripley, W., The races of Europe, a Sociological study, London: Kagan-Paul, 1899, p. 400.

(١٤) صادق جلال العظم، الصهيونية والصراع الطبقى، بيروت، دار العودة، ص ١٢٥-١٢٨.

(١٥) انظر أنيس فايز قاسم وجورج لويس مايكل (الثالث) قانون العودة لدولة إسرائيل، دراسة فى القانون الدولى والمحلى، بيروت، مركز الأبحاث، ١٩٧١.

(١٦) راجع فى تعريف هذه المفاهيم: المسيرى، الموسوعة، مرجع سابق.

(١٧) Tamarin, G, The Israeli Dilemma, Essays on a warfare State, Rotterdam University press, 1973.

(١٨) Taylor, A.R., The Zionist Mind, Beirut, The Institute for Palestine studies, 1974.

(١٩) انظر: السيد يسين، قراءة سياسية فى خريطة الشخصية الإسرائيلية الأهرام.

(٢٠) Herman, S.N., Israelis and Jews, New York: Randome House, 1970.

Abu-Lughod & Abu – Laban, B. (Ed), Settler Regimes in Africa and the Arab world,- The illusion of Endurance, Illinois, The medina UN Press, 1974.

الفصل الثانى

بنية وسيكلوجية المجتمع الإسرائيلى

١ - إسرائيل
بين خرافة المجتمع اللاطبقى..
وحقيقة الصراع الاجتماعى(*)

كتب بن جوريون فى مقدمة الكتاب السنوى لحكومة إسرائيل "إسرائيل هى مجتمع العاملين الذين يكدحون بأيديهم وعقولهم دون استغلال أو طبقية".

والحقيقة أن هذا التصريح لم يأت عفوا. ولكنه تأكيد للأيديولوجية الرسمية التى تحاول دوائر الصفوة الحاكمة فى إسرائيل أن تروّج لها. ومبناها أن إسرائيل مجتمع لا طبقي. وهو بهذه الصورة لا يعرف ضروب الصراع الاجتماعى التى لابد لها أن توجد – بصورة صغيرة أو كبيرة – فى أى مجتمع إنسانى يقوم على تعدد الطبقات.

والإيديولوجية الرسمية الإسرائيلية تحاول الزعم بأن فى إسرائيل مجتمعا تخف فيه حدة التناقضات بين فئاته الاجتماعية المختلفة، وتستخدم أجهزة الدولة الرسمية هناك كل قدراتها من أجل إخفاء هذا الصراع حتى أن من بين الأدوات التى تستخدمها الدولة علماء الاجتماع الإسرائيليين الذين يحاولون فى دراساتهم عن المجتمع الإسرائيلي، تأكيد هذه الأسطورة الزائفة.

فالبروفسير أيزنشدات، رئيس قسم علم الاجتماع فى الجامعة العبرية بالقدس يعقد

(*) جريدة الأهرام، ١٩٦٩/١٠/٢٥.

فصلا إضافيا فى كتابه الأخير "المجتمع الإسرائيلي"، عن التنظيم الاجتماعى، لا يتعرض فيه لمشكلة الصراع الطبقى فى إسرائيل. وربما يكون هناك كثير من العوامل التى تسهم فى تخفيف حدة التناقضات الطبقية، خصوصا العوامل التى تتعلق بالأمن الإسرائيلى، الا أنه من المستحيل على أى دارس للمجتمع الاسرائيلى أن ينساق مع فكر أستاذ الاجتماع فى جامعة القدس العبرية.

فلنحاول، بالرغم من ذلك كله، أن نستكشف طبيعة القوى الاجتماعية فى المجتمع الاسرائيلى ومكوناتها واختياراتها السياسية، من خلال دراسة عالم الاجتماع الفرنسي سيرج جوناز للطبقات الاجتماعية فى إسرائيل. وهى دراسة تتسم بالموضوعية وشمول النظرة وعمق التحليل.

يمكن أن نقول إن الطبقات الاجتماعية الرئيسية فى إسرائيل ثلاث، هى:

١- الطبقة الوسطى. ٢- الطبقة العاملة. ٣- طبقة المزارعين.

غير أنه يكون من الخطأ، وخصوصا بالنسبة لحالة إسرائيل، أن تعتبر هذه الطبقات الثلاث وكأنها وحدات كلية متجانسة. إذ أننا نجد فى داخل كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث توترات عميقة، وذلك لأن كلا منها يتكون من فئات اجتماعية بالغة التباين، وتقتضى الدقة العلمية متابعة هذه الفئات من خلال واقعها الحى المتحرك.

الطبقة الوسطى:

والطبقة الوسطى فى المجتمع الإسرائيلي تتطابق بوجه عام مع قطاع الخدمات فى المجتمع، وهو القطاع الذى يستوعب ما يقرب من نصف مجموع السكان. وبالرغم من أن ثلاثة أرباع السكان نشأوا أصلا فى ميدان الخدمات إلا أنه حدثت إعادة تأهيل لنسبة كبيرة منهم، حتى يمكن تحويلهم الى زراعيين أو عمال ... ومع كل فإنه يمكن أن نميز داخل الطبقة الوسطى فى إسرائيل ٣ فئات: البورجوازية – البورجوازية الصغيرة – ثم فئة التجار الصغار وفقراء الحرفيين.

ويرى بعض الباحثين أن هذه الفئة لا تكون طبقة بورجوازية بالمعنى الصحيح. فهذه الطبقة لم يتح لها أن تنمو، نتيجة الافتقار إلى التدعيم الاقتصادى، ونتيجة خلو المجتمع من الملاك العقاريين الكبار. إذ نجد أن ٥./٪ فقط من الأرض مملوكة

لمزارعين مستقلين أمـا بـاقى الأرض فـإن ملكيتهـا جماعيـة، وهـى تؤجـر إمـا إلـى الكيبوتز (التعاونيات الزراعية الجماعية)، أو إلـى الموشـاف (التعاونيـات الزراعيـة غير الجماعية). وبالرغم من أن البورجوازية الصغيرة ليست لها مطامح وتطلعـات مصاغة فى إيديولوجية متماسكة، إلا أنها تعبر عـن نفسـها باللامبـالاة والعداء نحـو الجهود التى تبذل من أجل السـيطرة العامـة علـى الاقتصـاد، كمـا أنهـا تتسم باتجـاه قومى بالغ التطرف،وتعتنق قيمـا ليبراليـة، وتبحـث عـن الصـالح الفـردى، بغيـر أن تشغل بالها باعتبارات التماسك الاجتماعي.

وهـذه الفئـة تعطـى أصواتهـا لحـزب الأحـرار، أو إلـى حـزب حـيروت اليمينـي المتطـرف، وعلـى العكـس مـن ذلـك، نجـد أن فئـة المهـن الحـرة والمثقفيـن، والبيروقراطيين والفنيين، تعبر عـن حـالات مـن الوعـى، وتنتهـج مواقـف سياسـية، تجعلها تنتمى إلى الطبقة الوسطى أكثر من انتمائها لطبقة العمال. ويمكـن القـول ان هناك تناقضاً عميقاً داخل هـذه الفئـة الاجتماعيـة التـى تجمـع بيـن أفرادهـا مـع ذلـك التخصصات المهنية وإمكانيات الحصول على دخل مرتفع، والانتماء إلـى الجماعـة السلالية للإسرائيليين الإشكناز (اليهود الغربيـون) وبعـض أفـراد هـذه الفئـة (المهـن الحرة والمثقفين والفنيين...) يشتركون فـى حلـف مـع البورجوازيـة الصغيـرة، مـن خـلال سـعيهم لشـغل أكـثر المراكـز أهميـة فـى الوظـائف الإداريـة والفنيـة. وكذلـك يدعمون اتجاه الفنيين فـى القطـاع المملـوك ملكيـة جماعيـة، الذيـن يطـالبون بـأجور مرتفعة مثل التى يتقاضاها العاملون فى القطاع الخاص.

ونجد أخيراً الفئة الاجتماعيـة الثالثـة التـى تضمهـا الطبقـة الوسـطى، وأكـثر هـذه الفئـات عدداً، وهـى فئـة التجـار الصغـار الفقـراء، وصغـار الحرفييـن والباعـة المتجولين، وصغار المستخدمين فى مجال الخدمات.

وهـذه الفئـة تتكون فـى غالبيتهـا العظمـى مـن (السـفارديم)، وهـم الإسـرائيليون الشرقيون والوافدون من أفريقيا الشمالية.

هذه الجموع - التى هـى بروليتاريـة مـن وجهـة النظـر الموضوعيـة، وإن كـانت تمثل البورجوازيـة الصغيـرة - تفتقر للوعـى الطبقـى افتقـاراً شـبه كـامل وهـى فـى نزعاتها العامـة تـأمل فـى الخروج مـن دائـرة الشـقاء عـن طريـق اسـتخدام الحـافز الفـردى، ونـزع الأوهـام المتعلقـة بالصـهيونيـة، واللامبـالاة فيمـا يتعلـق بالأفكـار

الاشتراكية، ورفض الاتجاه الذى يرمى إلى ابتلاعها بواسطة الطبقات العمالية والفلاحية، وعدم الرغبة فى التوحد معها أو مساندتها.

وعلى المستوى السياسى، نجد فى هذه الفئة غالباً الممتنعين عن التصويت. أما الذين يصوتون منهم، فيتوزعون بوجه عام بين حزب الماباى وحزب حيروت، والحزب الدينى مزراحى.

الطبقة العاملة:

إذا انتقلنا إلى طبقة العمال، فإننا نلاحظ تجانساً أكبر، وحساً سياسياً أعمق، ووعياً طبقياً متميزاً. وهذه الطبقة التى تضم ثلاثة أعشار السكان يمكن أن تقسم إلى ثلاث فئات، وان كانت أقل تمايزاً وأكثر تماسكاً فيما بينها عن تلك الفئات التى تكون الطبقة الوسطى.

وهذه الفئات هى: الكوادر الدنيا المشتركة مباشرة فى الإنتاج، ثم فئة العمال المتخصصين، وأخيراً فئة العمال غير المؤهلين.

- **والفئة الأولى:** تضم العمال الذين يشتركون مباشرة فى الإنتاج، ويمكن فيما يتعلق بالقطاع المملوك ملكية جماعية أن يضم إليهم جزء من مستخدمى المكاتب والعمال القدامى الذين تحولوا إلى الخدمات الإدارية، نتيجة نمو المؤسسات وغالبية هذه الفئة من أنصار الحزب العمالى الماباى.
- **والفئة الثانية:** هم فئة العمال المتخصصين، وهم جميعاً أعضاء فى النقابات، وممن تذهب غالبية أصواتهم إلى حزب الماباى، ولكن بعضهم يصوتون للحزب الأميل إلى اليسار آحدوت هاعفودا، ولحزب اليسار المتطرف المابام.
- **أما الفئة الأخيرة:** فهى فئة العمال غير المؤهلين، وأغلبهم من الإسرائيليين الشرقيين والوافدين من أفريقيا الشمالية. ويتبنون اتجاه اللامبالاة السياسية شبه الكاملة.
- **طبقة المزراعين:** ونجئ الآن لطبقة المزارعين، وهى أكثر الطبقات الاجتماعية الإسرائيلية تنوعاً. تضم هذه الطبقة أكثر من ٢٠٪ من عدد السكان الإجمالى، أى حوالى ٥٠٠,٠٠٠ شخص. ونجد بينها فئة ضئيلة من المزارعين

اليهود أصحاب المزارع الخاصة، الذين يستخدمون أيادى عاملة مأجورة، ويرجع تاريخهم إلى أوائل عهد الاستعمار الاستيطانى اليهودى. وهذه الفئة تضم ما يقرب من ٧٠٠٠ مزارع، وهم مع عائلاتهم يكونون فئة يبلغ عدد أفرادها ٣٠,٠٠٠ فرد. ويقتربون من فئة البورجوازية الصغيرة من أصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة.

ولكن طبقة المزارعين الإسرائيليين توجد أساساً فى القطاع التعاونى، وينقسم هذا القطاع بين:

- التعاونيات الزراعية: (الموشافيم) والمشاريع الزراعية الجماعية: (الكيبوتزيم). وتضم الأولى الأراضى الزراعية الفردية الصغيرة. أما الثانية فهى قرى يكون العمل فيها جماعياً. والموشافيم تضم حوالى ١٥٠,٠٠٠ شخص، أما الكوبتيزيم، فتضم حالياً ٨٥,٠٠٠ شخص. وينبغى أن يضاف إليهم حوالى ٥٠٠٠ شخص يتجمعون فى قرى يطلق عليها "موشافيم شيتوفيم"، وهى صورة وسط بين الكيبوتزيم والموشافيم. وتقوم على العمل الجماعى ولكن الاستهلاك يتم بطريقة فردية. وهناك فروق ضخمة وتعارض كبير داخل نطاق التعاونيات الزراعية (الموشافيم)، بين القرى القديمة التى تستخدم - بغض النظر عن المبادئ -الأيدى العاملة المأجورة، والقرى الجديدة التى كثيراً ما يعبر قاطنوها وغالبيتهم من البلاد الشرقية عن سخطهم، وذلك بسبب الحياة البالغة القسوة التى ينبغى عليهم أن يعيشوها. غير أن الفروق البالغة الضخامة هى التى توجد بين سكان الكيبوتزيم وباقى فئات المزارعين الأخرى. ففئة الكيبوتزيم تنتمى إلى الطبقة العمالية أكثر منها إلى طبقة المزارعين. وهى على المستوى السياسى، تحدد مواقعها فى غالبيتها على يسار الطبقة العاملة. ويشهد على ذلك أن حوالى ٣٠٪ من أنصار كل من الأحزاب الاشتراكية (المابام، الماباى، الأحدوت)، من بين سكان الكيبوتزيم.

ظاهرة جديدة:

وإذا كان العرض السابق يقدم صورة موضوعية لتعدد الطبقات فى المجتمع الإسرائيلى. مما يستتبعه من صراع اجتماعى. إلا أنه ينبغى أن نشير إشارة سريعة لظاهرة الصراع الفكرى العنيف التى برزت بشكل واضح فى الانفصام بين آراء

الصفوة الإسرائيلية الحاكمة وبين قطاعات واسعة من المثقفين، الذين قد لا يكون لهم فى الوقت الراهن ثقل سياسى كبير، نظراً لعدم ارتباطهم بأى من الأحزاب القائمة. إلا أنهم مع ذلك يمثلون ظاهرة لها دلالتها. ولعل "حركة السلام والأمن" التى تكونت من عدد من المثقفين وأساتذة الجامعة الإسرائيليين، تعد مثالا بارزاً لهذه الظاهرة. ويقود هذه الحركة " رافرافى " السكرتير الأكاديمى لجامعة تل أبيب. وقد استقطبت هذه الحركة حولها عددا من كبار المثقفين. وقد جاء فى منشور لهذه الجماعة صدر فى شهر أغسطس ١٩٦٩ ما نصه: " باسم مصلحتنا القومية العليا، ينبغى أن نبحث بسرعة عن حل سلمى يسمح لنا برد الأراضى المحتلة - إلى سكانها، أو إلى النظام الأردنى، وفق الاختيار الحر للسكان القاطنين هذه الأراضى. ذلك لأن الاحتفاظ تحت سيطرتنا بأقلية ضد إرادتها من شأنه أن ينسف الأساس الأدبى (كذا) الذى يبرر وجود دولة إسرائيل.. "

وأهم ما فى الموضوع: أن زعماء الحركة من بين المقربين من الصفوة الحاكمة فى إسرائيل. فقد تكونوا سويا فى حركات الريادة الصهيونية، وكانوا من بين " بناة صهيون " ولكنهم مع ذلك، تجمعوا ووقعوا على هذا المنشور، الذى يعد وثيقة اتهام حقيقية للسياسة التى تنتهجها الحكومة الإسرائيلية وينتهى المنشور بهذه العبارات:

"ولقد جاء الوقت لتغيير الحكومة الحالية التى أصابت الامة بالشلل بحكومة أخرى تأخذ زمام المبادأة لتحقيق سلم مخلص وعادل، وذلك لأن هذا السلم هو الوحيد الكفيل بضمان الأمن الإسرائيلى".

ومن كل هذا يتضح أن صورة المجتمع الإسرائيلى كما هى فى الواقع، بما تتضمنه من صراعات طبقية وسياسية، تختلف اختلافات جسيمة عن الصورة المزيفة التى تحاول الصفوة الحاكمة الإسرائيلية أن تصدرها للعالم الخارجى: صورة المجتمع اللاطبقى. ولكن ما أبعد الفرق بين الخرافة والحقيقة!

٢ – إسرائيل: العقيدة والروح المعنوية(*)

حين بدت ملامح عن قرب انضمام الولايات المتحدة إلى الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، بذل علماء الاجتماع وعلم النفس الأمريكيون مجهوداً مكثفاً لوضع دراسات عاجلة عن الشخصية اليابانية والعوامل المؤثرة فيها معنويا.. وحين بدأ الصهيونيون استعمارهم لفلسطين بالاستيطان كانت الدراسات تجرى فى الجامعة العبرية فى فلسطين ومن قبل قيام إسرائيل، عن الشخصية والنفسية العربية. أما بالنسبة لنا نحن ، كدول عربية ، فلم تبدأ دراساتنا عن الشخصية والمعنوية الإسرائيلية بشكل عميق إلا منذ ١٩٦٨. وكانت برامج إذاعات عربية عديدة تبث أملا فى التأثير على النفسية الإسرائيلية، والنيل من ترسخ العقيدة الصهيونية، فإذا بها تتحول إلى اسطونات تباع فى شوارع تل أبيب لتزيد من شحذ هممهم ضد العرب أحيانا، ولتستخدم مادة للتندر فى أحايين أخرى!

هل هناك فى الوقت الراهن سمات خاصة للمناخ الانفعالى فى المجتمع الإسرائيلى؟ تستطيع أن نجيب عن هذا السؤال بالايجاب، على ضوء مجموعة من الدراسات النفسية والاجتماعية التى أجراها باحثون أمريكيون وإسرائيليون. فقد قامت الباحثة النفسية الأمريكية ريتا روجرز بسلسلة من المقابلات المتعمقة مع عينات متنوعة من الإسرائيليين استطاعت على أساسها وبالإضافة إلى خبرتها الواقعية العميقة بالمجتمع الإسرائيلى أن تخلص إلى عدة نتائج لعل أهمها أن: "ردود

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٢/٢/٦.

الفعل الانفعالية فى مختلف أرجاء إسرائيل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحداث الخارجية التى تؤثر على كيان الدولة".

وقد ظهر من نتائج سلسلة قياسات للرأى العام فى إسرائيل أجراها "معهد البحث التطبيقى" ومعهد "وسائل الاتصال" فى الجامعة العبرية، أنه يوجد نظام محدد يحكم التقلبات النفسية عند الإسرائيليين. ويرتبط هذا النظام بحالة التوتر ونشوب المعارك بين الجيش الإسرائيلى والجيوش العربية، وتصاعد أعمال حركة المقاومة العربية.

وقد ظهر أنه بعد حرب يونيو ٦٧ مباشرة كان ٦٠٪ ممن قيست اتجاهاتهم يذهبون إلى أن حالتهم النفسية حسنة فى معظم الوقت أو تقريبا كل الوقت. غير أن هذه النسبة أخذت تقل بعد أشهر محدودة فوصلت إلى ٤٠٪ فى بداية ١٩٦٨ ثم هبطت إلى٣٣٪ بعد حادث تفجير المقاومة "للسوبر ماركت" ومطعم الجامعة فى القدس ثم هبطت النسبة إلى ٢٥٪وذلك فى الوقت الذى وصلت فيه حرب الاستنزاف إلى ذروتها عام ١٩٧٠.

وقد حاولت الباحثة الإسرائيلية (تسيونة بيلد) تفسير هذه النتائج فذهبت إلى أن أعمال المقاومة والمعارك العسكرية هى مثيرات تولد إحباطاً بالنسبة للحاجة الأولى للفرد وهى حاجته للأمن المادى. ورد فعل الإسرائيلى لذلك هو الخوف من التهديد والعداء للعرب. غير أن الباحثة الإسرائيلية تصل إلى نتيجة مؤداها أن ردود الفعل هذه لا تزيد حدتها إلى مالا نهاية مع تصاعد أعمال المقاومة.

وهكذا يمكن القول إن هبوط نسبة من كانوا يشعرون بين الإسرائيليين بأن حالتهم النفسية حسنة من ٦٠٪عقب حرب يونيو مباشرة إلى ٢٥٪ فى ذروة حرب الاستنزاف، يكشف بوضوح عن ارتباط الحالة النفسية بالتهبيط والتصعيد فى المعركة. وتبين لعالم النفس الإسرائيلى المعروف لويس جوتمان أن هناك اتجاها مشابها فيما يتعلق بالشعور بالقلق لدى الإسرائيليين. إذ تبين من قياس اتجاهات أخرى لعينة من الإسرائيليين عقب حرب يونيو مباشرة أن ٣٢٪ أجابوا أنهم غير قلقين. غير أن هذه النسبة هبطت إلى ١١٪ فى عام ١٩٧٠ أى فى ذروة حرب الإستنزاف. ثم عادت نسبة "غير القلقين" للارتفاع منذ وقف إطلاق النار. وحين وصلت أعمال المقاومة إلى ذروتها فى نهاية عام ١٩٦٨ وبداية عام ١٩٦٩ قرر ٢٥٪ من الإسرائيليين الذين قيست اتجاهاتهم أن هذه الأعمال تمثل مصدر قلقهم

الرئيسى ومع هبوط معدل هذه العمليات فى نهاية عام ١٩٦٩ انخفضت النسبة إلى ٨٪ ثم بعد ذلك إلى ١.٠٪ ويذهب ايلى ايل محرر جريدة معاريف الإسرائيلية إلى أنه ليس من شك فى أن وقف إطلاق النار قد جعلهم يتنفسون الصعداء، ولذلك فإنه من الممكن الحديث حول الحالة النفسية للإسرائيلى واهتماماته قبل وقف إطلاق النار وبعد وقف إطلاق النار.

فمنذ وقف إطلاق النار هبطت نسبة القلق أو الاهتمام بالوضع العسكرى لإسرائيل لدى الإسرائيليين، وارتفعت نسبة القلقين حول أوضاعهم الاقتصادية والشخصية وأحوالهم الصحية. وقد حاول البروفيسور جوتمان أن يعرف شكل الارتباطات فى العلاقات المتبادلة بين أنواع الاهتمامات المختلفة للإسرائيليين. فوجد ارتباطاً ضعيفاً بين الوضع الاقتصادى الإسرائيلى والحالة النفسية، ولكنه على العكس وجد ارتباطاً قوياً بين الأهتمام بالوضع الاقتصادى للدولة وبين الاهتمام بالوضع الأمنى. ووجد جوتمان أن الجمهور الإسرائيلى يركز على الوضع الاقتصادى الشخصى أكثر من تركيزه على الوضع الاقتصادى للدولة. ويستخلص بالتالى نتيجة هامة مؤداها "أنه فى فترة هدوء أمنى نسبى فإن الجمهور غير مستعد لأن يقبل شعارات ومطالب حول شد الحزام وتقديم الضحايا".

والخلاصة أننا إذا حاولنا أن نحلل النتائج الإجمالية للتقلبات فى الاهتمامات الأساسية للإسرائيليين فماذا نجد؟

نستطيع أن نستخلص من هذا التحليل أن ثمة ارتباطاً قوياً بين الشعور بان الوضع الأمنى أفضل، نتيجة عدم وجود إطلاق نار وعدم تساقط القتلى وبين تمركز الإسرائيلى حول ذاته وانتقال اهتماماته إلى أحواله الخاصة ووضعه الاقتصادى فى المقام الأول. وهذا هو الذى يفسر موجات الإضرابات العنيفة التى تجتاح إسرائيل فى مراحل الهدوء بالنسبة للصراع وكذلك إزدياد حدة التناقضات الاجتماعية والسلالية بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين.

غير ان النتائج التى يمكن استخلاصها من البيانات السابقة لابد لها أن توضع فى إطار علمى سياسى فى آن واحد. فمن وجهة النظر العلمية إذا كان صحيحاً أن هناك نقطة معينة يتصلب عندها الجمهور ويقف التأثير النفسى لأعمال المقاومة ولتصاعد المعارك العسكرية. إلا أن ذلك لا ينفى أن دوام أعمال المقاومة وتصاعد

الأعمال العسكرية من شأنها أن تجعل الجمهور الإسرائيلى يتساءل عن منطق الحرب والأسس الموضوعية التى تستند إليها، وخصوصاً إذا ما استمر سقوط القتلى من الجانب الإسرائيلى. ومن شأن ذلك من وجهة النظر السياسية أن يثير الخلافات بين الإسرائيليين على المستوى القومى، ونعنى بين أنصار الحرب إلى مالا نهاية، وأنصار الوقوف موقفاً عقلانيا من الصراع العربى الإسرائيلى.

وخلاصة ذلك كله أن الحرب ضد المحتل الإسرائيلى بما تتضمنه من إيقاع الخسائر المباشرة بجنوده هى السبيل الوحيد لزعزعة الأمن النفسى للإسرائيليين وقهر الاتجاهات العدوانية فى المجتمع الإسرائيلى.

٣ - انهيار فلسفة الكيبوتز (*)

يمر المجتمع الإسرائيلي في مرحلة تطوره الراهنة بأزمة ايديولوجية، عبر عنها الباحث الإسرائيلي آلان آريان في رسالته للدكتوراه عن "التغير الإيديولوجي في إسرائيل" بأنها - في جانب هام منها - ضرب من ضروب الانهيار الإيديولوجي، وذلك في ضوء تعريفه لهذا المصطلح بأنه يعني به إما اختفاء عدد من العناصر الجوهرية التي ترتكز عليها إيديولوجية ما، أو الانخفاض الشديد في معدل الارتباط بها، أو كلا الأمرين معاً. وقد أثرت هذه الأزمة في القيم والمثل والمعايير التي تسود المجتمع الإسرائيلي، وفي نظرته إلى الواقع بأبعاده الماضية والحاضرة والمستقبلة. ولم يقف هذا التأثير عند حدود التغير الجذري لنسق القيم السائدة، وإنما تعدى ذلك ليغير من ضروب السلوك الإجتماعي في صورتيه السوية والمنحرفة على السواء.

إن هذه الأزمة الإيديولوجية التي يعانيها المجتمع الإسرائيلي يمكن أن تلخص في عبارة واحدة، لو قلنا إنها مشكلة مجتمع ايديولوجي يتحول بسرعة فائقة إلى مجتمع استهلاكي. وهناك أهمية خاصة لتحليل هذه الأزمة، لأن دراسة العوامل التي أدت إليها، وتحديد الوضع الراهن لها، يمكن أن يساعدنا في فهم عديد من الظواهر والعمليات الاجتماعية التي تأخذ مجراها في المجتمع الإسرائيلي منذ سنوات، والتي - نظرا لتباعدها وتناثرها على المسرح الاجتماعي بأكمله - كانت تبدو عصية على الفهم والتفسير.

(*) جريدة الأهرام، ٢٤/ ١١/ ١٩٧٢.

المجتمع اليهودى فى فلسطين وإيديولوجية الرواد:

نشأ المجتمع اليهودى فى فلسطين وتبلور نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التى ظهرت فى أوربا الشرقية والوسطى وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر. وقد رفعت هذه الجماعات الصهيونية شعارا مؤداه "أنه لا يمكن ممارسة حياة يهودية صحيحة فى أى مجتمع حديث خارج فلسطين" وزعمت الصهيونية أن الحياة فى ظل المجتمعات الأوروبية الحديثة من شأنها أن تجعل اليهود يتمزقون بين السحق الروحى والحضارى – الذى سيترتب على نسف حياتهم التقليدية والمجتمعية، تحت وطأة التنظيمات الاقتصادية والسياسية الحديثة – والفناء المادى عن طريق " الاندماج التام " فى المجتمع. ومن هنا زعمت الصهيونية أنه فى فلسطين فقط يمكن أن ينشأ مجتمع يهودى حديث، حيث يمكن التأليف بين اليهودية والحضارة الإنسانية العامة أو – بعبارة أخرى – بين الأصالة والمعاصرة.

لقد كان المجتمع اليهودى فى فلسطين مجتمعا أيديولوجيا، بمعنى أنه صاغ نسقا محدداً من الأفكار المترابطة فيما بينها بطريقة عضوية، وجعلها دليلا للعمل وتقنينا للسلوك. ولعل أبرز تجسيد لهذه الايديولوجية تمثل فى النموذج المثالى للرائد Pioneer الذى صور باعتباره اليهودى الأمثل، ومن هنا كانت ضرورة أن يطابق المستوطنين أنفسهم واتجاهاتهم وسلوكهم مع السمات التى يتميز بها وأهمها التضحية بالذات. فالرائد هو الشخص الذى على استعداد لحرمان نفسه من متع الحياة والفوائد المادية، وهو قادر على أن يطوع أسلوب حياته ليعيش عيشة متقشفة. ولم يكن هذا التقشف مقصودا لذاته – بالرغم من أنه أصبح بعد ذلك اتجاها سائدا – ولكن بغرض القيام بالأعباء الجسيمة التى حددتها لنفسها جماعات الرواد لخلق المجتمع اليهودى فى فلسطين. أما السمة الثانية للرائد فهى أن يمارس العمل بنفسه، مع تحريم العمل المستغل. وقد حدد هذا الاتجاه طبيعة الأنشطة التى وجهت لخلق المجتمع اليهودى فى فلسطين. ونقصد التركيز الشديد على العمل غير المستغل فى الميدان الزراعى واليدوى، باعتباره وسيلة رئيسية لبعث شباب الأمة اليهودية. ولخلق إنسان يهودى جديد. وقد تصوروا هذا المجتمع على نسق اليوتوبيات الاشتراكية، وحاولوا تطبيق ذلك فى الواقع المادى بإنشاء الكيبوتز (المستوطنة الزراعية الجماعية) والموشاف (المستوطنة الزراعية التعاونية).

وقد ركزت أيديولوجية الريادة أيضاً على فكرتين أساسيتين هما: ضرورة الاعتماد على الاكتفاء الذاتى وأهمية تنمية وسائل الدفاع الذاتى.

وهكذا بدأ أعضاء هذه الجماعات فى إنشاء مؤسسات ومنظمات متعددة كانت هى فيما بعد نواة أجهزة الدولة بعد إعلانها عام ١٩٤٨. غير أن إنشاء هذه المؤسسات والمنظمات أدى إلى أن الأيديولوجية لم تصبح بمثل نقائها المبدئى، فقد نشأت جماعات عديدة، وتولدت مشكلات متعددة، أدت إلى ضرورة تعديل الأيديولوجية لتتلاءم مع الظروف الجديدة، وقد تم من خلال عدة وسائل من أهمها: سيادة عنصر الرواد، وسيطرتهم على النظام التعليمى وحركات الشباب. غير أن مرور الزمن أدى إلى تحول الطابع الشخصى المؤثر للأيديولوجية وتمثلها فى الرواد لكى يصبح طابعاً روتينياً، وأصبحت مظاهر الأيديولوجية المتعددة أقل حيوية، وتضاءل - بالتالى - تأثيرها على السلوك والنشاط اليومى، وحدثت بداية الانفصال بين الفكر والتطبيق. غير أن أهم تغيير حدث هو المجابهة التى تمت بين أنصار أيديولوجية الريادة وغيرهم من الجماعات. وتمثل الخلاف فى القضية التالية: " إن أيديولوجية الريادة تناسب مجتمعاً بسيط التكوين، ليس فيه مجال للتمايز والتخصص، أما البناء الاجتماعى المتبلور فهو يحتاج إلى تمايز اقتصادى وسياسى، مما يفترض درجة عالية من التخصص والفردية".

ويقرر عالم الاجتماع الإسرائيلى أيزنشدات أن حدة هذا الخلاف قد زادت بعد نشوء " القطاع الخاص " فى الاقتصاد الإسرائيلى ووقوفه منافساً للأنشطة الاقتصادية والمهنية فى القطاعات العمالية (الهستدروت أساسا).

من المجتمع الأيديولوجى إلى المجتمع الاستهلاكى:

ارتبط إنشاء الدولة فى إسرائيل بثلاث عمليات رئيسية هى:

تدفق مهاجرين جدد، وتمايز البناء الاقتصادى والاجتماعى، وتحول صفوة الرواد إلى صفوة حاكمة. وقد أدت هذه العمليات إلى استمرار عملية التغيير الأيديولوجى، وأثارت - ربما بصورة أكثر حدة - مشكلة استمرار وتغيير الهوية الجماعية الإسرائيلية. ولعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن تحول المجتمع الإسرائيلى من مجتمع زراعى إلى مجتمع صناعى، وسيادة القطاع الخاص، وهيمنته على مقدرات

الاقتصاد الإسرائيلى، كما تكشف عن ذلك الإحصائيات الإسرائيلية نفسها، هو الذى يكمن وراء التغيرات الجسيمة التى لحقت بإيديولوجية الرواد وأدت إلى انهيارها. (فى دراسة للاقتصادى الإسرائيلى حاييم باراكى عن " القطاع العام، وقطاع الهستدروت، والقطاع الخاص فى الاقتصاد الإسرائيلى، ذكر أن إسهام القطاع الخاص فى صافى الناتج المحلى (الدخل القومى) فى السنوات من ١٩٥٧ إلى ١٩٦٠ كان على التوالى: ٥٨,٥ فى المائة، ٦٠,٠ فى المائة، ٥٨,١ فى المائة ٥٨,٥ فى المائة. وذلك فى حين كان إسهام الهستدروت: ٢٠,٦ فى المائة، ٢٠,٠ فى المائة، ٢٠,٣ فى المائة، ٢٠,٤ فى المائة. فى الوقت الذى كان فيه الإسهام القطاع العام: ٢٠,٩ فى المائة، ٢٠,٠ فى المائة، ٢١,٦ فى المائة، ٢١,١ فى المائة).

ويتضح من هذه الأرقام أن معدل إسهام القطاع الخاص فى الدخل القومى كان – فى كل هذه السنوات – أعلى بكثير من إسهام كل من القطاع العام والهستدروت. ويكتسب نمو القطاع الخاص فى الاقتصاد الإسرائيلى أهميته من كونه – فى أى مجتمع – ليس مجرد نمط محدد من التنظيم الاقتصادى، ولكنه أيضاً يعبر عن نسق معين من القيم يدور حول قيمة محورية هى تحقيق أكبر قدر من الربح. والذين يسيطرون على هذا القطاع الخاص – فى سعيهم المحموم وراء تكوين الثروات وتحقيق الأرباح – غالباً ما لا يفرقون بين الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق أهدافهم.

ومن هنا نشأ صراع فى القيم فى المجتمع الإسرائيلى، بين أيديولوجية الريادة التى كان مثلها الأعلى " الرائد " المتقشف الذى يضحى بوقته وحياته فى سبيل المجموع، وبين " رجل الأعمال " الذى يهدف فى المقام الأول إلى تحقيق الثراء الشخصى ولو بالمخالفة لقواعد الأخلاق والقانون.

أعراض الأزمة الأيديولوجية وانعكاساتها على السلوك الاجتماعى:

وتتمثل أعراض الأزمة الأيديولوجية فى إسرائيل فى فئتين متمايزتين من الظواهر، وإن كان يربط بينهما علاقة وثيقة، الاولى هى ظواهر التغير الاجتماعى، والثانية هى ظواهر الخلل الاجتماعى.

فالكيبوتز – وفقا للأيديولوجية التى قام عليها فى عصر " الرواد " – يقوم أساساً على عدم الاعتماد على العمل المأجور ذلك أنه من بين أهدافه الأساسية بث احترام العمل اليدوى والعمل الزراعى فى نفوس اليهود الذين كانوا قد هجروا الزراعة منذ آماد بعيدة.

كل هذه المثل بدأت فى الانهيار، حين اتجهت الكيبوتزات فى سعيها للتكيف مع حركة المجتمع الإسرائيلى نحو التصنيع، وفى بحثها عن الربح لرفع مستوى أعضائها، إلى الاستعانة بالعمل المأجور، وخصوصاً من بين العمال العرب، أى تحولت هذه الكيبوتزات إلى نوع من أنواع التنظيم الرأسمالى بكل ما يتضمنه ذلك من قيم وعادات سلوكية، وعلاقات اقتصادية بين أرباب العمل والأجراء. وقد أدى ذلك التطور بذاته إلى نسف مزاعم الاشتراكية التى كثيراً ما ألحت الدعايات الإسرائيلية عليها، وهى تصدر صورة المجتمع الإسرائيلى للخارج!

غير أن هذا الاتجاه نحو التصنيع، وانهيار أيديولوجية الكيبوتز، كان من الممكن ألا يسبب للسلطات الإسرائيلية إزعاجاً كبيراً، بحكم خضوع الصفوة الحاكمة الإسرائيلية لمنظور براجماتى تجاه الواقع. غير أن قد صاحب ذلك كله عدة ظواهر متشابكة ومترابطة أدت إلى نتائج بالغة الخطورة من وجهة نظر السلطات الإسرائيلية وأهمها ما يلى:

١- ظهور حركة هجرة داخلية واسعة المدى من الكيبوتز إلى المدن. وقد قدرت بعض المصادر (برنارد أدنجر مراسل وكالة رويتر) عدد من يغادرون الكيبوتز بغير رجعة بثلاثة أشخاص من كل عشرة أشخاص، وذلك فى شريحة العمر من ٢٢ – ٣٢ عاماً. ويلقى برنارد أدنجر مزيداً من الضوء على هذا التغير الجوهرى فى اتجاهات الشباب الإسرائيلى حيث يقرر أن (القطاع الخاص فى الاقتصاد الإسرائيلى يعطى الفرص لمستوى أعلى من الحياة للعاملين فى ظله، والذى يصل عددهم إلى حوالى ثلاثة ملايين شخص، ومعنى ذلك أن القيم الاشتراكية تنحصر فى مجموعة من الأشخاص لا يزيد عددهم على ٨٤,٠٠٠ ألف شخص هم سكان الكيبوتزات والذين يتناقص عددهم باستمرار).

إن هذا الاتجاه الذى يتصاعد باستمرار والمتمثل فى هجرة الكيبوتزات، يعنى فى المقام الأول انهيار أيديولوجية الريادة، التى طالما حثت أمواج المهاجرين على

الإستيطان فى المناطق القاحلة وتعميرها، وهو يعنى ثانياً بروز ظاهرة صراع الأجيال والتى تتمثل فى الاختلافات الجسيمة فى رؤية الحياة بين الأجيال الأولى من اليهود المهاجرين، وبين أجيال الشباب الإسرائيلى فى الوقت الراهن. فهذا الشباب خضوعاً منه لسيادة قيم المجتمع الإسرائيلى الذى يتجه بسرعة فيصبح مجتمعاً استهلاكيا، أخذت تغزوه الاتجاهات الفردية التى تركز على الإنجاز الذى يحققه الفرد لنفسه.

ومن ناحية أخرى أخذت تسوده اتجاهات تحتقر العمل الزراعى والعمل اليدوى. وتكشف الكتابات والبحوث الإسرائيلية عن مدى عمق هذه الأزمة بكل وضوح. لقد نشرت جريدة هاآرتس الإسرائيلية فى أول يناير ١٩٧١ مقالة كتبها أ / تسعير وهو أحد أبناء الكيبوتزات تشير مجرد عناوينها إلى جسامة الأزمة: "المبادئ أمام الواقع فى الكيبوتز، والجيل الجديد يعرض وجود الحركة الكيبوتزية للخطر"ويذكر تسعير "إن العوامل القومية والاجتماعية والدفاعية والأيديولوجية التى أدت إلى خلق الحركة الكيبوتزية غير موجودة اليوم"ويخلص من مقالاته إلى أن "الحركة الكيبوتزية تجاهلت ضرورة تكييف نفسها للواقع الاقتصادى والاجتماعى فى إسرائيل".

ويشير الكاتب إلى عامل هام أسهم فى أزمة الكيبوتز، وهو اختلاط شباب الكيبوتز بشباب المدن فى الجيش أثناء فترة الخدمة العسكرية، فقد أدى ذلك على تعرف شباب الكيبوتز على أنماط مختلفة لحياة أبناء المدن بكل ما تتضمنه من مشاريع فردية لبناء المستقبل بدون أثقال أيديولوجية كتلك التى تبطئ من إيقاع الحياة لدى أبناء الكيبوتز، ومن هنا نشأت مشكلة صعوبة استرجاع هؤلاء الشباب إلى الكيبوتزات بعد انتهاء مدة خدمتهم، فغالبيتهم يغادرون الكيوبوتزات ويرحلون بعيدا بحثا وراء النجاح.

الأزمة فى ضوء البحث العلمى:

وتلقى البحوث العلمية الاجتماعية الإسرائيلية الضوء على هذه الأزمة. فقد أجرى مركز الاستيطان فى رحوفوت بحثا على ٢٥٢مستوطنة زراعية تابعة لقسم الاستيطان بالوكالة اليهودية، وقد نشرت نتائجه جريدة " هاتسوفيه " فى ٢٩ ديسمبر

١٩٧٠ وكان موضوع البحث "أسباب الهجرة من المستوطنات الزراعية" وقد اتضح أن هناك سببين رئيسيين لهجرة المستوطنات: أسباب اقتصادية وأسباب شخصية، واتضح أن حوالى ٣٨,٤ ٪ من الذين تركوا المستوطنات لأسباب اقتصادية تنوعت لديهم الدوافع للهجرة وكان أهمها: نقص الاهتمام بالعمل الزراعى، وجود مصاعب فى العمل، انخفاض الدخل الذى يحصل عليه الفرد

إن هذا البحث الإسرائيلى يؤكد فى الواقع بشكل بارز ما ذهبنا إليه من انهيار أيديولوجية الرواد، التى تبدو مؤشراته فى عدم الالتزام بقيمها الاساسية التى تتمثل فى احترام العمل اليدوى والزراعى، وتحمل مشقة العمل فى سبيل تنمية المجتمع اليهودى، وعدم السعى وراء أجور مرتفعة أو مزايا.

ومن ناحية أخرى انتهى الالتزام بالتقشف كأسلوب للحياة وهو الذى ميز الأجيال المتتالية من الرواد. يؤكد ذلك البحث الذى أجرته _ فى نطاق بحوث علم الاجتماع بالجامعة العبرية فى تل أبيب - الباحثان يونينا قالمرن وزيبورا ستب، وكان موضوع البحث " التقشف الدنيوى " وقد طرح على عينة عدد أفرادها ٤١٥ مفحوصا سؤال رئيسى وهو:

" هل هناك - كمبدأ – مبررات للبساطة فى الحياة وللحد من الاستهلاك؟ وما هى هذه المبررات إن وجدت؟ "

وقد استخلص البحث من خلال تصنيف الإجابات أربعة نماذج رئيسية تتراوح ما بين تبرير التقشف كأسلوب للحياة وتبرير الاستهلاك كأسلوب للحياة ويقع بينهم نموذجان وسيطان: الاول منهما أطلق البحث عليه النمط الثقافى الاسلوب ويندرج تحته أولئك الذين يرفضون واجب الحد من الاستهلاك ولكنهم فى نفس الوقت يحبذون البساطة، والثانى منهم أطلق عليه النمط الموقفى الذى يذهب أنصاره إلى أن التقشف لا قيمة له فى حد ذاته ولكن يمكن قبوله فى أوقات الأزمات وتشير النتائج العامة للبحث إلى ما يلى:

النمط التقشفى وينتمى إليه ٣٢٪ من المفحوصين.

النمط الثقافى الأسلوب ينتمى إليه ١٧٪ من المفحوصين.

النمط الموقفى ينتمى إليه ١٧٪ من المفحوصين.

النمط الاستهلاكى ينتمى إليه ٣٢٪ من المفحوصين.

ويبدو من تأمل هذه النتائج أن الاتجاهات التى تشجع الاستهلاك تزيد قليلا على الاتجاهات التى تدعو للتقشف: ٣٣ فى المائة فى مقابل ٣٢ فى المائة.

غير أننا نستطيع فى الحقيقة أن نضيف إلى الاتجاهات الاستهلاكية من ينتمون إلى الخط الموقفى الذين يرون أن التقشف لا قيمة له فى حد ذاته، وأيضا من ينتمون إلى النمط الثقافى الإأسلوب الذين يرفضون واجب الحد من الاستهلاك.

بذلك تصبح نسبة من يشايعون الاتجاهات والنزعات الاستهلاكية ٦٧ فى المائة، وهى نسبة عالية تدعم من طريق أخر فكرتنا الأساسية من أن سعى المجتمع الإسرائيلى نحو تدعيم القطاع الخاص، وسيادة قيمة انعكس فى مجال السلوك الاجتماعى، وظهر ذلك فى البحث عن النجاح بأى وسيلة، وعدم احترام الموجبات الأولى للأيديولوجية الريادية، التى أصبحت بالنسبة لقطاعات عريضة من الشباب الإسرائيلى ضربا من ضروب الذكريات التاريخية.

إذا كانت أزمة الكيبوتز تمثل عرضا هاما من أعراض انهيار أيديولوجية الريادة، فإن ثمة عرضا آخر أكثر خطورة يتعلق هذه المرة بالموشافيم (المستوطنات الزراعية التعاونية) التى يسمح فيها لأعضائها بتملك الأرض فى إطار تعاونى، هنا أيضا هبت رياح التغيير، إذ برزت ظاهرة جديدة هى هجرة أعضاء الموشافيم إلى المدن، بعد تأجير الأرض التى يملكونها إلى أشخاص أخرين، هم فى غالب الأحيان عرب، مع رغبتهم فى الاحتفاظ بحقوقهم فى الموشافيم كاملة.

وقد كتبت جريدة "معاريف الإسرائيلية فى ٢٦ أكتوبر ١٩٧١ فى صفحتها الأولى تقول "ستقوم وزارة الزراعة وقسم الاستيطان فى الوكالة اليهودية، بمصادرة أرض أحد المستوطنين (اليهود) فى موشاف "نتسانى عوز" أجر أرضه لعرب. وهذه هى المرة الأولى التى تصادر فيها أرض زراعية من أصحابها اليهود، وأضافت الجريدة "وأكد السيد يغئال هروكر المتحدث باسم وزارة الزراعة، أن ثمة فى الأونة الأخيرة ظاهرة تأجير المزارعين أراضيهم لعرب. وقد خلق هذا الأمر طبقة جديدة فى البلد من المستأجرين العرب الذين يحرثون أراضى يملكها يهود، والحقيقة أن الظاهرة التى لم تشر إليها الجريدة الإسرائيلية هى نشوء طبقة جديدة من السكان اليهود الذين بدأوا يمارسون دور ملاك الأرض الغائبين، بمعنى أنم يؤجرون أراضيهم وينتقلون هم للإقامة بعيدا فى المدن متمتعين بالريع الذى

يحصلون عليه بلا عمل.

ونظرا لأن هذه الظاهرة استشرت، فقد شرعت وزارة الزراعة الإسرائيلية فى رفع دعاوى قضائية ضد المستوطنين الذين يؤجرون أراضيهم، وقد تقرر ذلك بعد أن كشفت لجنة تحقيق كونت لهذا الغرض أن هناك ٢٦٧ حالة تأجير أرض تملكها الدولة لأشخاص آخرين، تبين أن ٨٠ فى المائة منهم عرب، ٢٠ فى المائة يهود، وذلك كما ذكرت جريدة هاآرتس فى نوفمبر ١٩٧١. وجميع هذه الحالات وقعت فى موشافيم ماعدا ثلاث حالات تمت فى كيبوتزات. ومعنى ذلك أن العدوى بدأت فى الزحف إلى أخر القلاع التى تحتمى بها أيديولوجية الريادة المنهارة.

ولعل من أبرز ما يكشف عن استشعار السلطات الإسرائيلية لخطورة كل هذه التغيرات فى اتجاهات الإسرائيليين وسلوكهم الفعلى، أن الكنيست ناقش فى الأونة الأخيرة، مشروع قانون يهدف إلى تشديد الرقابة على الموشافيم. والغرض منه القضاء على ظاهرة تفشى روح عدم "الانضباط" فى صفوف المستوطنين ولجوء بعضهم إلى العمل أو العيش فى المدن محتفظين بحقوقهم فى الموشاف.

هذه مجرد لمحة سريعة عن ظواهر التغير الاجتماعى. الناجمة عن الأزمة الأيديولوجية فى المجتمع الإسرائيلى، غير أن هناك فئة أخرى من الظواهر وهى التى أطلقنا عليها ظواهر الخلل الاجتماعى.

ظواهر الخلل الاجتماعى:

حين يفتقر مجتمع ما إلى التماسك، وحين يزيد عدد أفراد الطبقات المسحوقة فيه، فليس هناك من سبيل للاحتجاج على قيم هذا المجتمع سوى الثورة بالمعنى الاجتماعى أو الجناح والانحراف بالمعنى القانونى.

وقد سلكت الطبقات المسحوقة فى إسرائيل كلا الطريقين. تمثلت الثورة بالمعنى الاجتماعى فى حركة الفهود السود، التى قامت للاحتجاج * الأوضاع المتردية التى يعيش فيها أبناء الطوائف الشرقية فى إسرائيل. وقد كشفت المصادر الإسرائيلية نفسها عن حقيقة هذه الأوضاع. فقد ذكرت كول معام فى ١٨ مارس ١٩٧١م أنه بسبب السياسة الاقتصادية يكسب ١٠ فى المائة من أغنى الأغنياء مبلغا يساوى ما يحسبه ٤٥ فى المائة من المواطنين الفقراء.

ومن الواضح أن تعبير "السياسة الاقتصادية" التى أثرت الجريدة الإسرائيلية استخدامه ليس سوى إشارة إلى المجتمع الرأسمالى فى إسرائيل الذى يتجه ليصبح مجتمعا استهلاكيا.

وحركة الفهود السود تفجر بذلك قوى الصراع الطبقى الكامنة فى المجتمع الإسرائيلى، والتى نجحت المؤسسة العسكرية والصفوة الحاكمة فى كبتها فترة طويلة، منذرعة بحجة الأمن الإسرائيلى. وحالة الحرب المستمرة بين إسرائيل والبلاد العربية.

ومن ناحية أخرى تكشف الأرقام الإسرائيلية عن أزدياد مطرد فى معدلات الجرائم بكل أنواعها وبوجه خاص جرائم الاموال والأشخاص وكذلك معدلات تعاطى المخدرات. وقد نشرت جريدة هآرتس فى ٢٥ مارس ١٩٧١ تصريحا لشلومو هيلل وزير الشرطة فى إسرائيل أدلى به أمام الكنيست قرر فيه "أنه اعتقل فى عام ١٩٧٠، (٢٣٦٢) شخصا بتهمة تعاطى المخدرات من بينهم (١٨٨٤) إسرائيليا (٤٧٨) من السياح الأجانب (١٢٢٧ شخصا) هم فوق سن العشرين. وأضاف هيلل "أنه رغم ارتفاع مستوى الحياة وتحسن الوضع الاقتصادى فى الدولة، فإن عدد المخالفين للقانون لا ينخفض، بل يرتفع سنويا، كما أن عدد الشباب، يتزايد بين هؤلاء المخالفين. ففى عام ١٩٧٠ ألقى القبض على ١٠,٠٠٠ شاب لارتكابهم مخالفات مختلفة، وخصوصا عمليات سلب ونهب". وتقدر بعض المصادر الإسرائيلية عدد من يتعاطون المخدرات فى إسرائيل بين ١٠,٠٠٠، ١٠٠,٠٠٠ شخص.

إن كل هذه المؤشرات تشير إلى أزمة المجتمع الإسرائيلى فى مرحلة انتقاله من المجتمع الإيديولوجى إلى المجتمع الصناعى الاستهلاك.

٤ - أبعاد الصراع بين الدين والدولة في المجتمع الإسرائيلي(*)

تشير الأزمة السياسية التي قامت في إسرائيل بصدد مشروع القانون الخاص بالزواج المدني وعدم موافقة جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل عليه وتهديدها بالاستقالة، إلى إحدى المشكلات الأساسية في المجتمع الإسرائيلي، ونعني بذلك الصراع بين الدينيين والعلمانيين.

وهذا الصراع لم ينشأ في حقيقة أمره مع نشأة إسرائيل، بل إن تاريخه يرتد إلى الجماعات اليهودية التي هاجرت إلى فلسطين قبل قيام إسرائيل. فقد كانت موجات الهجرة التي توافدت على فلسطين لاستعمارها تحقيقا لأهداف العقيدة الصهيونية تضم جماعات تختلف في مشاربها وفي اتجاهاتها الإيديولوجية، وكان بينهم متدينون وعلمانيون. وحدث الصراع بين الفئتين منذ وقت مبكر، غير أن هذه الجماعات المتعارضة استطاعت أن تحصر خلافاتها في إطار ضيق ضمانا لتحقيق الحد الأدنى من الاتفاق الذي يسمح لها بتحقيق الأهداف الصهيونية في فلسطين.

وحين قامت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ بقي هذا "التعايش السلمي" بين الاتجاه الديني والعلماني، غير أنه وضح في السنوات الأخيرة أن الصراع قد أخذت حدته تشتد بين الجماعات والأحزاب الدينية والجماعات والأحزاب العلمانية. هذا الصراع يكشف في حقيقته عن التناقض بين الطابع الديني للدولة وبين التيار العلماني السائد

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٢/٦/٢٤.

فى المجتمع. غير أنه ينبغى أن نفرق هنا بين كون إسرائيل دولة دينية باعتبارها دولة يهود كل العالم كما تزعم وبين اتجاهات التدين الموجودة فعلا داخل المجتمع الإسرائيلى.

فقد نشرت مجلة "الجويش أوبزرفر" اللندنية بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٦٦ أن الإحصاءات المتوافرة تشير إلى أن أكثر من ثلث السكان اليهود يراعون التقاليد الدينية [بمن فيهم ١٠-١٥٪ من اليهود المتعصبين]، وأن ٤٠٪ من اليهود يتقيدون رمزيا بالتعاليم الدينية، أما باقى اليهود وتتراوح نسبتهم ما ٢٠ و٢٥٪ من مجموع السكان فهم من غير المتدينين.

وهكذا نستطيع أن نخلص إلى أن المتدينين يمثلون أقلية بين اليهود من سكان إسرائيل. غير أنها أقلية نشطة وتتسم بالتطرف الشديد، الذى ظهر فى الحوادث التى جرت وتتعلق بالاحتجاج على تسيير وسائل المواصلات العامة يوم السبت الذين يرون طبقا لتعاليم الدين اليهودى أنه ينبغى أن يتوقف فيه كل نشاط.

موضوعات الخلاف بين الدينيين والعلمانيين:

وإذا تعقبنا الخلافات الحادة التى نشبت بين الدينيين والعلمانيين فى السنوات الأخيرة، فإنه يمكننا أن نحصرها فى ثلاث مسائل رئيسية:

١ - الاحتجاج على ممارسة أى نشاط عام يوم السبت، وخصوصا ما يتعلق بالإرسال التليفزيونى وسير المواصلات العامة وفتح محلات الخدمات.

٢ - الاحتحجاج على تشريح الجثث بعد الوفاة، إذ يعتبر الدينيون ذلك منافاة لمبادئ الديانة اليهودية. وقد صرح الحاخام المتطرف زلمان ريخمان بهذا الصدد أن سياسة الحكومة الإسرائيلية بالنسبة لتشريح الجثث تؤدى إلى عدم تشجيع اليهود المتدينين على الهجرة إلى إسرائيل.

٣ - الاحتجاج على المحاولات التى يقوم بها العلمانيون لإصدار قانون خاص بالسماح بالزواج المدنى.

والواقع أن حزب المابام الذى أسهم، بموافقته على مشروع القانون الخاص بالزواج المدنى، فى خلق الأزمة، كانت له محاولات دائبة، منذ فترة طويلة، لإصدار هذا القانون. فقد قررت لجنة الشئون الدينية والسياسية التابعة للجنة

المركزية لحزب المابام التى اجتمعت يوم ١١ نوفمبر ١٩٧١ تجديد طلبها الذى يقضى بالموافقة على مشروع قانون الزواج المدنى الذى قدمته كتلة المابام فى الكنيست منذ عام ١٩٦٢. والمشروع يتضمن تقرير مبدأ السماح بعقد الزواج وفقا لقانون مدنى لا يتقيد بالشروط التى يتطلبها القانون الدينى اليهودى. وهذه الشروط المستمدة من الدين اليهودى تحظر - من بين ما تحظره - أن يعقد زواج فى إسرائيل بين يهودى وامرأة غير يهودية. كما أنه وفقا لهذا القانون فإن الأبناء الذين يأتون ثمرة لزواج اليهودى بامرأة غير يهودية لا يعتبرون يهودا. وهذا الحكم الأخير هو الذى أشعل فى إسرائيل مشكلة تعريف "من هو اليهودى" التى اختلف بشأنها الإسرائيليون اختلافات عنيفة، لصلتها المباشرة بقضية الهجرة وتشجيع المهاجرين.

ومن ناحية أخرى يمثل موقف جولدا مائير من قضية الزواج المدنى امتدادا لرأيها فى الموضوع الذى صرحت به أكثر من مرة. ورأيها فى هذه المسألة يتمثل فى أن الزواج المدنى من شأنه أن يقسم الإسرائيليين إلى معسكرين. وقد انتقدت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية الصادرة فى ٢٦ إبريل ١٩٧١ هذا الرأى وقالت إن القانون الدينى القائم يسلب بعض الحريات الأساسية للمواطنين فيما يتعلق بالزواج والطلاق، وخصوصا أولئك الذين ليس لهم مذهب دينى، والإسرائيليين الذين لا يقر القانون الدينى بأنهم يهود.

غير أن جولدا مائير تنطلق فى معارضتها لمشروع قانون الزواج المدنى من موقف سياسى، يتعلق بالحرص على استمرار الائتلاف الحكومى القائم، وخشية معارضة الأحزاب الدينية للمشروع مما قد يؤدى إلى انسحاب الأحزاب الدينية من الائتلاف الحكومى القائم فضلا عن انقسامات فى باقى أحزاب هذا الائتلاف.

أبعاد الصراع بين الدين والدولة:

والواقع أن الخلاف حول مشروع قانون الزواج المدنى فى إسرائيل يتضمن أبعادا متعددة سياسية ودينية وقانونية ومحور الخلاف يتركز فى حقيقة أمره حول الاستقلال النسبى الذى تريد السلطات الدينية اليهودية فى إسرائيل أن تحصل عليه لنفسها فى مواجهة السلطات العلمانية الموجودة.

ولذلك تختلف السلطة الدينيـة ممثلـة فـى الحاخامـات مسـتندة إلـى القـوة السياسـية للأحزاب الدينية مع الجماعات والقوى العلمانية بصدد ثلاث مسائل جوهريـة تتعلـق بالمبادئ وليس ببعض التطبيقات كالخلاف حول عدم العمل يوم السبت، أو تحريـم تشريح الجثث. وهذه المسائل تنحصر فى ثلاث:

١ - الخلاف حول ضرورة النص فى دستور الدولة على الدين باعتباره أحد أسسها الأساسية الذى تستمد منه شرعيتها.

٢ - تحديد المجالات التـى ينبغـى أن يكـون فيهـا توحـد كـامل بيـن الديـن والدولـة. ومدى إمكان بسط نطاق القوانين الدينية لتطبق على جميع السكان. ومن ناحيـة أخـرى إلـى أى مـدى يمكـن للهيئـات القضائيـة الدينيـة أن تبسـط اختصاصاتهـا لتشمل كل السكان اليهود، وإلى أى مدى يمكن لهذه الهيئات أن تعفى من رقابـة السلطات "العلمانية" عليها.

٣ - مدى استقلال وتميز الجماعـات الدينيـة فـى المجـال التعليمـى، وإلـى أى مـدى يمكن للمؤسسات الدينية أن تحظى بالمساعدات الدينية من جانب الدولة.

وهكذا يمكن القول إن الصراع بين السلطات الدينية والأحزاب الدينية مـن جـانب والأحـزاب والجماعـات العلمانيـة مـن ناحيـة أخـرى حـول مشـروع قـانون الـزواج المدنى، يستمد دلالته الهامة إذا وضع فى إطاره الصحيح باعتباره حلقة من سلسـلة ممتدة من كفاح المنظمات الدينية لكى تتحول إلـى قـوة مؤثـرة فـى المجتمـع، تتمـيز بالمركزية والاستقلال، وتكون أشبه بسلطة كهنوتية تبسط نطاقها مـن خـلال تطبيـق القانون الدينى على مقدرات جميـع السـكان اليهـود المتدينين منهم وغير المتدينين وبخاصة فى مسائل الأحوال الشخصية.

وقد زاد من حدة الصراع اتجـاه السـلطات الدينيـة إلـى الاسـتقلال عـن الأحـزاب الدينية فى الوقت الذى تعتمـد فيـه علـى القـوة السياسية لهذه الأحزاب، وفـى نفـس الوقت إصرار الحزب الدينى القومى على أنه هو المحتكر الوحيـد لتمثيـل المصـالح والمنظمات الدينية فى إسرائيل.

إن الصـراع بيـن الدينييـن والعلمـانيين لا يمثـل فـى الواقـع حسـبما يقـرر عـالم الاجتماع الإسرائيلى أيثر تشوات سوى مجال واحـد مـن مجـالات الخلـل فـى البنـاء الاجتماعى للمجتمع الإسرائيلى.

٥ – الصورة القومية للعرب عند الإسرائيليين وتأثيرها فى الصراع الراهن(*)

يمكن القول أن الصورة القومية للعرب عند الإسرائيليين وخاصة بعد إنشاء الدولة عام ١٩٤٨ قد لعبت دوراً أساسيا فى تطورات الصراع العربى الإسرائيلى وذلك بحكم السمات الخاصة المميزة لهذا الصراع، باعتبار أن العرب وهم الطرف الرئيسى فيه يرفض الطرف الآخر رفضا مطلقا، فى حين أن الطرف الإسرائيلى كان بحاجة إلى أن يكون صورة محددة عن العرب حتى يستطيع التعامل معهم على المستويات السياسية والحربية معا، ويعنى العلماء الاجتماعيون بالصورة القومية بوجه عام كيفية تصور مجتمع لمجتمع آخر، سواء كان هذا التصور يعبر عن الحقيقة ويعكس الصفات الواقعية لهذا المجتمع، أم أن هذا التصور يخضع لعملية تشويه متعمدة أو غير متعمدة.

وإذا نظرنا للصفوة الإسرائيلية سواء من جانبها الفكرى المؤثر على الفكر السياسى فى الدولة، أو فى جانبها السياسى المتمثل فى الفئة المسئولة عن اتخاذ القرارات التى كانت حاسمة فى تصعيد الصراع العربى الإسرائيلى، سنجد لديها ليس مجرد صورة واحدة للعرب، وإنما ثلاث صور متمايزة. الصورة الأولى ويطلق عليها البوبرية نسبة للفيلسوف اليهودى الشهير مارتن بوبر، كانت ترى أنه يمكن التوافق مع العرب من خلال اتباع الحلول الوسط. ويقوم منطقها على أساس

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/٤/١٤.

أن العرب قد حل بهم ظلم جسيم نتيجة للاستيطان اليهودى فى فلسطين، ولذلك فالحل هو دولة ثنائية القومية يعترف فيها للعرب بكافة حقوق "المواطنة". وهذه الصورة تؤدى منطقيا إلى سياسة إسرائيلية تقوم على "التنازلات الجزئية" فى التعامل مع العرب. غير أن هذه الصورة - نظرا لتناقضها مع فلسفة العقيدة الصهيونية - لم يتح لها أن تروج بل انعزلت وانتهت إلى حد كبير. والصورة الثانية التى لعلها أهم الصور الثلاث على الإطلاق، لأن منطقها هو الذى تغلب وساد يطلق عليها البنجوريونية نسبة إلى بن جوريون. وتتمثل فى أنه يمكن التوافق مع العرب ولكن من خلال استخدام القوة الفائقة لإسرائيل.

وهذا الاتجاه فى حقيقته يعد امتدادا للاتجاه السابق على إنشاء الدولة، والذى تزعمه أيضا بن جوريون بين اليهود الذين استعمروا فلسطين، وكان من بين وسائلهم الرئيسية فى السيطرة عليها اتباع سياسة الإرهاب والعنف والردع إزاء العرب. وقد وجدت هذه الصورة التجسيد العملى إما فى سياسة الردع التى اتبعها بن جوريون وموشى ديان فى عامى ١٩٥٥ و١٩٥٦ مع العرب. وقد عبرت هذه الصورة عن نفسها بعد حرب ١٩٦٧ بالاتجاه الذى ينادى "بعدم التنازل عن بوصة واحدة من الأراضى المحتلة".

ومن عناصر هذه الصورة الأساسية أن إسرائيل لو استطاعت الثبات فى موقفها واثبتت أنها قوة لا تقهر، فذلك من شأنه أن يؤدى إلى تغيير جوهرى فى نفوس العرب إزاء إسرائيل. والصورة الثالثة والأخيرة: هى الوايزمانية نسبة إلى وايزمان، وهى ترى إمكان التوافق مع العرب من خلال البحث العقلانى أملا فى الوصول إلى حلول معتدلة. ويرى أنصار هذه الصورة أن الصراع العربى الإسرائيلى لا يمكن حله عن طريق إجراء واحد مفرد، بل عن طريق سلسلة من التدابير غير الجذرية التى تنفذ عبر الزمن، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق تغيير المناخ العدائى المحيط بالصراع، وذلك يمكن تحقيقه بتخفيض المستوى العام للتوتر لو نجحت محاولات الحوار مع العرب. وكل ذلك ينبغى أن يتم فى حدود التصور الصهيونى لدولة إسرائيل وأهدافها الصهيونية، باعتبارها دولة يهودية أساسا. ولم يتح لأنصار الصورة الأولى ولا الصورة الثالثة أى قدر من النجاح، وتغلب اتجاه بن جوريون، بالرغم من أن موشى شاريت اختلف معه ولكن ليس على مستوى الاستراتيجية وإنما على مستوى التكتيك. ونعنى بذلك أن شاريت كان موافقا

علىالهدف ولكنه كان مختلفا بصدد الوسائل التى ينبغى أن تصطنع لتحقيقه. وهذا هو الذى يفسر سياسة إسرائيل العدوانية والتوسعية التى تقوم على مسلمة محددة وقاطعة هى أن "العرب لا يفهمون إلا لغة القوة".

غير أن الصورة القومية للعرب لدى الصفوة الحاكمة الإسرائيلية لم تكن هى وحدها المؤثرة على الصراع العربى الإسرائيلى، بل إن تحليل العلماء الإسرائيليين للطابع القومى للشخصية العربية يستخدم للتنبؤات بتطورات الصراع فى المستقبل. والطابع القومى لشخصية شعب من الشعوب هو - فى أحد تعريفاته - الصورة المركبة من أكثر سمات الشخصية شيوعا فى أى مجتمع. وذلك مثل الأوصاف العامة التى تطلق على العرب أو على المصريين.

وقد ناقش بعض الباحثين الإسرائيليين مسئولية الطابع القومى للشخصية المصرية عن هزيمة يونيو ٦٧. من بين هؤلاء البروفيسور شاؤول فريد لاندر فى كتابه "تأملات حول مستقبل إسرائيل" يقول "فريد لاندر" إذا سلمنا بأن الطابع القومى للشخصية المصرية، بما يتضمنه من سمات سلبية متعددة "فى رأيه" كنقص المبادأة، وعدم القدرة على التعامل مع منطق العلم، والافتقار إلى المهارات اللازمة للتكيف مع التكنولوجيا... إلخ كان أحد الأسباب الرئيسية للهزيمة العربية، فالسؤال الأهم هو: هل جوانب القصور فى الطابع القومى للشخصية المصرية متأصلة فى تكوين المصريين، أم أن من شأن التغيير الجذرى للمجتمع القضاء على هذه العيوب؟

ويقرر أن الإجابة عن هذا السؤال لابد أن تبدأ بحسم المسألة الهامة المتعلقة بإمكانية تغيير الطابع القومى للشخصية بوجه عام فى الأجل المتوسط.. هنا يستشهد فريد لاندر بالصين، على أساس أنها استطاعت فى ظل النظام الثورى الذى ساد عقب انتصار الثورة الصينية التغيير الجذرى للطابع القومى الصينى، ومن ثم فليس هناك ما يمنع نظريا من تغير الطابع القومى للشخصية. ويبقى التساؤل عن احتمال تغير الطابع القومى للشخصية المصرية. يضع فريد لاندر إجابته بمنتهى الوضوح، فيقول بالحرف الواحد "إنى أشك فى أن يكون القصور العربى متأصلا فى تكوين العرب، ويبدو لى أن من شأن تغيير المجتمع جذريا القضاء عليه، ولا شك أن مثل هذا التغيير لا يقع بين يوم وليلة، ولكن إذا أمكن لإسرائيل أن تعتمد على الأجل القصير والمتوسط، أى فى السنوات المقبلة على نقاط الضعف العربية، فإنه من

الخطر أن تعتمد على ذلك لفترة أطول".

وهذه الفقرة البالغة الأهمية، يمكن أن تفسر لنا السرعة المحمومة التى تغير بها إسرائيل الخصائص المادية والسكانية فى الأراضى العربية المحتلة، لتخلق أمرا واقعا، يصعب - فى تصورها - على العرب، إذا ما تغلبوا على جوانب ضعفهم العميقة أو الطارئة أن يغيروه.

والحقيقة أن الإشارات والدلالات الواردة فى تحليل فريد لاندر واضحة تمام الوضوح. ولعل الذين ينادون بالانتصار على المدى الطويل على إسرائيل بحكم منطق التاريخ وحده لا يجدون فيها ذريعة. ذلك أنه إذا كان الحاضر جزءا من المستقبل، فالمستقبل نفسه، فى نظر كثير من العلماء الآن، جزء من الحاضر. وفى ضوء ذلك كله، يمكن القول إنه إذا كان السلوك القومى هو محصلة تفاعل الطابع القومى للشخصية مع موقف محدد، فإن السلوك القومى المصرى مطالب - فى الموقف المصيرى الراهن وبأقصى درجة من التماسك والصلابة فى مواجهة العدوان الإسرائيلى.

٦ - قراءة سياسية لخريطة الشخصية الإسرائيلية

السمات النفسية الأساسية(*)

إذا كانت هناك فى الوقت الراهن هوية إسرائيلية فى دور التكوين، فما الدلالات السياسية التى يمكن أن نعطيها للعناصر والمقومات المكونة لها وما خطة الصفوة الحاكمة الإسرائيلية فى الربط بين الهوية اليهودية التقليدية والهوية الإسرائيلية البازغة وكيف استخدمت هذه الصفوة محاكمة ايخمان لتدعيم الحس اليهودى فى وعى الشباب الإسرائيلى!

كل هذه الأسئلة لا نستطيع أن نجيب عنها إلا إذا حاولنا أن نقوم بعملية تحليل سياسى للشخصية الإسرائيلية.

والواقع أن الدراسة العميقة للشخصية الإسرائيلية تمثل فى حد ذاتها مطلبا أساسيا لفهم العدو فهما علميا دقيقا، غير أن تحليل تأثير مكونات هذه الشخصية على الصراع العربى الإسرائيلى من وجهة النظر السياسية والاجتماعية يعد ضرورة حيوية. ذلك أن وقوفنا عند عتبات البحث السيكولوجى الخالص، أو الدراسة الاجتماعية المحدودة، بغير أن نبسط بصرنا إلى ما يترتب على النتائج العلمية التى نحصل عليها، من آثار على اللحظة الراهنة فى الصراع وتطوراته فى المستقبل يعد نكوصا واضحا عن توظيف البحث العلمى فى خدمة الأهداف القومية لأمتنا العربية، فى صراعها المصيرى مع الدولة الصهيونية العدوانية.

(*) جريدة الأهرام ، ١٩٧٣/٦/٢.

ومما يجدر التأكيد عليه منذ البداية، أننا لا نستطيع الزعم - بناء على ما تحت أيدينا من دراسات علمية متنوعة عن الشخصية الإسرائيلية، أجراها باحثون إسرائيليون أو يهود أو غربيون بوجه عام أو عرب - بأنه يمكن لنا التحديد النهائي القاطع لسمات الشخصية الإسرائيلية. ومن هنا يتعين النظر إلى نتائج هذه البحوث من منظور تركيبى، لا يحاول مسبقا وضع فروض لإثباتها أو نفيها، فمن المعروف فى مناهج البحث، أن اختبار الفروض لا يمكن أن يتم بغير تراكم حد أدنى من البحوث العلمية فى الموضوع، ولسنا فى هذا الموقف بالنسبة للبحوث التى أجريت على الشخصية الإسرائيلية.

ويمكن القول إن الدراسات المنهجية عن الشخصية الإسرائيلية تعد نادرة، إذا ما قورنت بتلك التى كتبت عن الشخصية العربية فى العالم الغربى، ويرجع أحد الباحثين الغربيين اليهود [البروفيسور بنيامين بيت هالامى] هذا النقص الواضح إلى الاستراتيجية الاجتماعية السائدة فى إسرائيل، والتى يطلق عليها "بوتقة الصهر". ويقصد بها حشد جهود الدولة والمجتمع، فى سبيل تذويب الفوارق الحضارية والاقتصادية بين الجماعات اليهودية المتباينة فى المجتمع الإسرائيلى. ذلك أنه من الصعوبة بمكان الحديث عن "شخصية منوالية" فى إسرائيل، ونعنى بهذا المصطلح "نمط الشخصية الذى يظهر بأكبر قدر من التكرار بين أنماط الشخصية فى مجتمع محدد" نظرا للتباين الشديد الذى يميز الفئات اليهودية فى إسرائيل.

المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الإسرائيلية

وبالرغم من ذلك، حاول بعض الباحثين تحديد المشكلات الخاصة بتشكيل الهوية الإسرائيلية فى الوقت الراهن. أولى هذه المشكلات هى انتقال "السمات اليهودية" التقليدية إلى "الهوية الإسرائيلية" البازغة. ويرى بعض المحللين النفسيين أن هذه السمات التى يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودى، يتعلق بنظرة اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة. ومن بين هذه السمات: القلق والإحساس بالدونية، والشك، وعدم الثقة فى غير اليهود.

وقد انتقلت بعض هذه السمات - فيما يرى بعض الباحثين النفسيين الأمريكيين - إلى المجتمع الإسرائيلى. فقد لاحظوا سيادة مشاعر الشك - الذى كان نتيجة

إحساسهم بتفردهم وامتيازهم من ناحية، وخضوعهم لغير اليهود من ناحية أخرى خلال موجات الاضطهاد التى جرفتهم أزمانا طويلة - غير أن الإحساس بالدونية تحول لكى يصبح إحساسا بالعظمة والتفوق لدى الإسرائيلى تجاه باقى العالم. وهذا الإحساس بالتفوق يعبر عنه الإسرائيلى فيما يزعمه لنفسه من حقوق لها مكانة متميزة، وتتجاوز فى مداها حتى المبادئ المستقرة فى القانون الدولى العام. ولعل قانون العودة الإسرائيلى الذى يمنح الجنسية الإسرائيلية فورا لكل يهودى يعلن عن رغبته فى الهجرة إلى إسرائيل، أبرز مثال على ذلك.

ويقرر عالم النفس اليهودى روبنشتين فى ملاحظاته الشخصية عن "النفسية الإسرائيلية" أن "الإسرائيليين كأفراد وكمجتمع يتسمون باتجاهات شك عميق الجذور تجاه الآخرين: وهذا الشك فى رأيه يسود العلاقات الشخصية فى إسرائيل، ويكشف عن نفسه فى كل تفاعل مع العالم الخارجى. وهو يصف ثلاثة مستويات من الشك والرفض. المستوى الأول موجه ضد العرب. والمستوى الثانى موجه ضد العالم غير اليهودى، والمستوى الثالث موجه ضد النظم والأجهزة الدولية.

ويخلص روبنشتين من دراسته إلى أنه يمكن وصف النفسية الإسرائيلية على ضوء وجود "نسق لجنون الاضطهاد" يتسم بالتبلور والتحدد يهيمن عليها، ويستمد هذا العرض المرضى جذوره من شك اليهود التقليدى فى الأغيار (كل من هم ليسوا يهودا)، والذى تسرب إلى التكوين النفسى للإسرائيليين المعاصرين، لكى يتوجه أساسا للعرب مما انعكس بشكل واضح على السياسات الإسرائيلية فى النظرية والتطبيق.

ولعل العامل الحاسم فى العلاقات بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع الإسرائيلى مرتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة الهوية. وفى هذا الصدد يقارن الباحثون بين "الهوية اليهودية التقليدية" و"الهوية الإسرائيلية البازغة". ووفقا لما تراه العالمة الأمريكية مرجريت ميد فى كتابها "إسرائيل ومشكلات الهوية" أن العامل الذى كان ضروريا دائما للحفاظ على الهوية اليهودية هو وجود جماعة أو جماعات من غير اليهود "فالشئ الوحيد الذى كان ضروريا تماما لتمييز جماعة من اليهود هو وجود بعض "الاغيار" وقد وجدت ميد من ملاحظاتها فى المجتمع الإسرائيلى انشغال الإسرائيليين الشديد بحس متصل متعلق بالهوية، وبالرسالة المتفردة لإسرائيل،

وبوضع شعب إسرائيل الذى يختلف عن أى شعب آخر.

وتتفق أحدث البحوث النفسية الاجتماعية التى أجراها العالم الأمريكى اليهودى "هرمان" عن الهوية الإسرائيلية عام ١٩٧١ مع النتائج التى توصلت لها مارجريت ميد فى الخمسينات. فهو يقرر أن تقسيم العالم بين اليهود وغير اليهود، مكون أساسى من مكونات الهوية اليهودية، وأن صورة غير اليهودى تحتل وضعا مركزيا فى ذهن اليهودى، ومازال وضع الحدود بين اليهود وبين عالم غير اليهود له تأثير قوى غلاب فى إسرائيل. غير أنه فى الحديث عن الهوية الإسرائيلية البازغة، ينبغى الالتفات إلى تعدد التكوينات النفسية فى إسرائيل، بحسب الأجيال المختلفة التى ينتمى إليها الإسرائيليون. ولعل جيل السابرا (وهم اليهود الذين ولدوا فى إسرائيل) هو الذى يركز الباحثون على محاولة استكشاف معالم بنائه النفسى المتميز. ومرد ذلك الاهتمام إلى الاختلاف النوعى فى الخبرة الاجتماعية النفسية لليهود المهاجرين إلى إسرائيل، وهؤلاء الذين ولدوا على أرضها ولا يعرفون بلدا غيرها. هذا الجيل يتسم من وجهة نظر عديد من الباحثين . بسمات نفسية متفردة أهمها هى:

- التمركز حول إسرائيل (بالمعنى الزمانى والمكانى للكلمة).
- عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودى الحديث (حتى ما تعلق منه بتاريخ أبائهم).
- طموحهم يتركز حول بلوغ مستوى الأمان المادى، وتحقيق مستوى مريح من الحياة.
- إحساس قوى بالانتماء.

وإذا كان اختلاف الأجيال يعكس أثره بوضوح على بناء الهوية الإسرائيلية البازغة، فإن هناك - فى رأى هرمان - أبعادا لها دلالة هامة فى قياس العوامل التى تشكل هذه الهوية فى الوقت الراهن. ولعل أهم هذه الأبعاد قاطبة هى:الأصل السلالى (يهود شرقيون أو غربيون)، ودرجة التدين (يهود علمانيون ويهود متدينون).

غير أنه يمكن القول - بناء على رصد التطورات الجارية فى المجتمع الإسرائيلى - إن البعد الطبقى أخذ فى التبلور، بحيث نستطيع أن نتنبأ بأن وزنه النسبى بين عوامل الصراع فى المجتمع الإسرائيلى - سيزيد على حساب البعد الخاص بالأصل السلالى.

٧ - قراءة سياسية لخريطة الشخصية الإسرائيلية
تأثير العوامل النفسية على الصراع العربى الإسرائيلى(*)

تحاول الصفوة الحاكمة الإسرائيلية تحقيق معادلة صعبة، كما أشرنا، تتخلص فى إيجاد هوية إسرائيلية وثيقة الارتباط بالهوية اليهودية ومتمايزة عنها فى نفس الوقت، والحفاظ على الهوية اليهودية فى المجتمعات اليهودية فى الخارج ولكن مصبوغة بنزعة إسرائيلية!

والآن ما هى الوظائف السياسية التى تريد هذه المعادلة الصعبة تحقيقها؟

إن استمرار الحس اليهودى لدى الإسرائيليين مسألة ضرورية وحاسمة لدى الصفوة الإسرائيلية، ذلك أن تصورهم لإسرائيل هو لدولة توسعية أبدا، تحتاج إلى موجات هجرة متدفقة، وبالتالى تمثل سياسة استيعاب المهاجرين اهتماما أساسيا لأنه سيتوقف على نجاحها، تحقيق مشاريع التوسع. ولأنها لو فشلت لأثرت على ارتفاع معدلات الهجرة المضادة.

ومن هنا فتعاطف الإسرائيليين مع اليهود خارج إسرائيل بوجه عام، ومع المهاجرين منهم إليها بوجه خاص شرط ضرورى لنجاح سياسة الاستيعاب.

وتثور هنا تساؤلات عديدة عن مدى نجاح خطة الصفوة الحاكمة الإسرائيلية، خصوصا إذا أخذنا فى الاعتبار المظاهرات الإسرائيلية المضادة للمهاجرين الجدد والتى كانت شعاراتها: عودوا إلى بلادكم!

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/٦/٣.

ومن ناحية أخرى تؤدى - فى الوقت الراهن - المجتمعات اليهودية خارج إسرائيل بوجه عام، وفى الولايات المتحدة بوجه خاص، خدمات لا غنى لإسرائيل عنها. ومن ثم تهتم إسرائيل بشكل مركز باتجاهات اليهود إزاء دولة إسرائيل. ذلك إن هدفها هو "يهود خارج إسرائيل ولكن مرتبطين بها برباط وثيق". ذلك الهدف هو الذى سهل تكوين جماعات ضاغطة تعمل لصالح إسرائيل، وتساعد على جمع الأموال وتصديرها لإسرائيل، وفى نفس الوقت تخلق المناخ المواتى الذى يسهل إجراءات الهجرة الانتقائية التى تمارسها إسرائيل حاليا، لتحقق برامجها للتطور التكنولوجى، والتى تحتاج إلى كوادر فنية مؤهلة تأهيلا عاليا. ومن هنا اهتمام إسرائيل الفائق بتدعيم برامج التعليم اليهودية فى الدياسبورا"، وتعديلها بما يتلاءم والحفاظ على الرباط الوثيق بين يهود العالم وإسرائيل.

ومن ناحية أخرى تبذل الصفوة الإسرائيلية الحاكمة جهودا ضخمة لتدعيم الملامح التى تميز النفسية اليهودية والتى تتمثل أبرزها فى الشك العميق الجذور تجاه غير اليهود، لكى تصبح أحد المعالم البارزة فى الهوية الإسرائيلية البازغة. تدعيم الشك والرفض بمستوياته الثلاثة التى أشرنا إليها، ونعنى ضد العرب، وضد العالم غير اليهودى وضد الأجهزة الدولية، يسمح للصفوة الحاكمة الإسرائيلية فى الواقع بتدعيم سياساتها فى جبهات ثلاث تكاد تكون فى محاور السياسة الإسرائيلية فعلى ضوء الشك والرفض الذى تذكيه لدى جماهير الإسرائيليين ضد العرب، والذى كشفت عنه فعلا قياسات الرأى العام التى أجريت على الرأى العام الإسرائيلى، يمكن أن تبنى سياستها فى المساومة مع العرب، على أساس أن إسرائيل لا تستطيع أن تنسحب من الأراضى المحتلة، لأن الجماهير الإسرائيلية لا تثق فى العرب ونياتهم، وخططهم العدوانية وعلى ذلك فليس أقل من اعتراف كامل بها حتى تبدأ رواسب الشك العميقة والمتراكمة فى الذوبان!

أما الشك ضد العالم غير اليهودى فيمكن أن يكون سندا قويا للصفوة الحاكمة الإسرائيلية فى سياساتها الابتزازية إزاء الدول الأوروبية، لضمان تدعيمها لإسرائيل إلى ما غير حدود.

ويصل الأمر إلى أكثر من مجرد الدعم السياسى إلى الابتزاز المالى كما حدث بالنسبة لألمانيا الغربية، التى اضطرت إلى أن تخضع للضغوط الإسرائيلية، ودفعت

٧٢٧ مليون دولار إلى إسرائيل باعتبارها الممثلة الرسمية ليهود العالم. وتحاول إسرائيل اليوم ممارسة نفس اللعبة المربحة مع ألمانيا الشرقية، التى رفضت مجرد الاستماع إلى هذه المطالب المزعومة.

ويظهر من ناحية أخرى استفادة الصفوة الحاكمة الإسرائيلية من الشك والرفض الحقيقى أو المصطنع لدى الإسرائيليين إزاء الأجهزة والمنظمات الدولية، فى رسم سياساتها العدوانية والإرهابية بغير أن تضع فى اعتبارها ردود فعل هذه الأجهزة الدولية. بعبارة أخرى يمكن القول إن ممارسة القوة هى أساس السياسة الإسرائيلية. والصفوة الحاكمة الإسرائيلية تحاول ما وسعها الجهد أن تثبت للجماهير الإسرائيلية أن ذلك هو الطريق الوحيد لبقاء الدولة، وأن الإذعان لمجلس الأمن أو الجمعية العامة من شأنه القضاء عليها!

استثمار المؤسسة الإسرائيلية للصراع العربى الإسرائيلى:

وتدرك الصفوة الحاكمة الإسرائيلية تماما أن من بين المشكلات المعوقة لتكامل الهوية الإسرائيلية البازغة، الخلافات بين الجماعات السلالية فى المجتمع الإسرائيلى، التى ترد - فى جانب منها - إلى تعدد التكوينات النفسية بين الإسرائيليين، ويصدق ذلك بشكل بارز بالنسبة لليهود الغربيين واليهود الشرقيين على السواء. ومن الحقائق التى ليس هناك خلاف بشأنها أن المجتمع الإسرائيلى مر بأزمة عنيفة قبيل حرب ١٩٦٧، وذلك من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية معا، حيث سادت البطالة وظهرت حدة الصراع بين الطوائف اليهودية المختلفة. وكان شن الحرب عاملا حاسما فى جمع شتات الجماعات السلالية المتصارعة، الذى تم فى جو مصطنع من التهديد والتخويف، حيث صورت الصفوة الحاكمة الإسرائيلية الموقف فى ١٩٦٧ لجماهيرها بأنها حرب الحياة أو الموت. ولعل من الأمور البالغة الدلالة على التخطيط المحكم الذى يمارسه من يمسكون بمقاليد الأمور فى تل أبيب. التصريحات الإسرائيلية الرسمية التى أعلنت منذ حوالى عام، والتى أكدت أن المسئولين الإسرائيليين اصطنعوا جو التهديد وروجوا المخاوف عن **مستقبل إسرائيل بين الجماهير حتى تنجح خطتهم فى العدوان على البلاد العربية، التى كانوا متأكدين أنها لا تستطيع الصمود أمامهم فى يونيو ١٩٦٧.**

ومن هنا يبدو مقنعا تحليل الباحث الإسرائيلى هاركابى من أن للصراع العربى الإسرائيلى أهمية كبرى كعامل مساعد على التقارب بين الجماعات اليهودية المتصارعة داخل إسرائيل وذلك فى ضوء مكونات ثلاثة:

- تلاحم المصير، باعتبار أن الخسارة القومية نظر إليها باعتبارها ستكون خسارة لكل الجماعات السلالة فى إسرائيل.
- وجود هدف مشترك، باعتبار أن التعاون بين الجماعات المتصارعة نظر إليه باعتباره ضروريا للبقاء.
- كان الصراع بالنسبة للجماعات اليهودية المتصارعة فى إسرائيل، بمثابة منفذ للعدوان باعتبار أن الاتجاهات العدائية ستركز شحنتها على هدف مشروع من وجهة نظر المجتمع وهو العرب.

ويقرر بعض الباحثين الإسرائيليين صراحة: "أن استمرار الصراع العربى الإسرائيلى هو فى صالح إسرائيل، لأنه يمنحها القوة والوحدة". ويؤكد هاركابى "أن هذا هو السبب فى أن إسرائيل ليست حريصة على الوصول إلى حل للصراع".

وهكذا يمكن القول إن إسرائيل تستثمر الصراع العربى الإسرائيلى لتحقيق عدة أهداف حيوية لها، لعل أهمها قاطبة تدعيم وترسيخ بناء الهوية الإسرائيلية البازغة التى تعانى فى عملية نموها وتطورها من مشكلات بالغة التعقيد، نتيجة للمطالب المتعارضة التى تفرضها الصفوة الإسرائيلية الحاكمة عليها والتى يمكن - من وجهة نظرها - التغلب عليها فى مناخ صراعى يتسم بجو مصطنع من التهديد المستمر. ومن ناحية أخرى فدوام الصراع من شأنه أن يحقق الوحدة المفتقدة بين الجماعات اليهودية المتنافرة، ويضفى على المجتمع الإسرائيلى التماسك الذى يسمح للصفوة الحاكمة الإسرائيلية بتحقيق كل مخططاتها العدوانية والتوسعية التى تهدف فى نهاية الأمر إلى السيطرة الفعالة على العالم العربى.

احتمالات نجاح المؤسسة الإسرائيلية فى ضوء ديالكتيك الصراع:

ولكن ما هى إمكانية اكتمال النموذج الذى تريد الصفوة الحاكمة الإسرائيلية صياغته للهوية الإسرائيلية البازغة؟

إن نجاح الصفوة الإسرائيلية وفشلها، يؤثر فيه تأثيرا حاسما نوعان من التناقضات:

التناقضات داخل المجتمع الإسرائيلى نفسه، والتناقضات التى ستنجم بالضرورة عن ديالكتيك الصراع العربى الإسرائيلى. فيما يتعلق بالفئة الأولى من التناقضات، فإنه يمكن لنا أن نضرب مثلا لها لو حاولنا أن نستخرج الدلالات السياسية من السمات السيكولوجية التى تنسب لجيل السابرا. لقد رأينا أن من أبرز هذه السمات، عدم الاهتمام بالتاريخ اليهودى الحديث، وهو تعبير إسرائيلى مخفف يشير إلى رفض الصهيونية بما تحتويه من أساطير دينية وسياسية، ومن ناحية أخرى تركز طموحهم على تحقيق أحلام فردية تتمثل فى النجاح المادى والوصول إلى مستوى الرفاهية، الذى يلح عليه المجتمع الاستهلاكى الذى تتطور إليه إسرائيل الآن. وهذه السمات لا ينفرد بها جيل السابرا فقط فى الحقيقة، ذلك أن غالبية الشباب الإسرائيلى، تتبنى منظورا براجماتيا "عمليا" فى النظرة للحياة.

إذا كان هذا صحيحا فهل يمكن أن تنجح الصفوة الإسرائيلية الحاكمة فى فرض مناخ الحرب على المجتمع الإسرائيلى إلى مالا نهاية، عن طريق تعويق كل فرص حل الصراع العربى الإسرائيلى؟

لقد أصبحت مهمة هذه الصفوة فى الوقت الراهن بالغة الصعوبة، فليس من السهل الادعاء أن إسرائيل تخشى من أن تسحق بواسطة أعدائها العرب، كما نجحت فى إقناع الرأى العام الإسرائيلى بذلك قبيل حرب ١٩٦٧، ومن ناحية أخرى، إذا كانت اتجاهات الشباب الإسرائيلى تتسم بصفة عملية، وتركز على النجاح المادى فى الحياة، فهل يمكن لهم أن يمارسوا حياتهم الطبيعية، فى مناخ حرب دائمة، بما تفرضه من جو يتسم بالتوتر والتهديد؟

بعبارة أخرى، ما هى فرص نمو معارضة ولو محدودة فى البداية للاتجاه الحربى والعدوانى السائد لدى الصفوة الحاكمة الإسرائيلية؟

إن ما تكشف عنه تصريحات الإسرائيليين، الذين حوكموا لاشتراكهم فى خلية ثورية إسرائيلية عربية مؤخرا، من إمكانيات اكتساب الإسرائيليين الوعى بعدوانية النظام الصهيونى فى إسرائيل، تشير إلى أنه ليس من المحتم أن تنجح الصفوة الحاكمة الإسرائيلية فى إكساب الإسرائيليين الوعى الزائف بضرورة الاستمرار فى

الحرب إلى مالا نهاية.

وإذا ما وضعنا فى الاعتبار الاتجاهات السائدة بين الشباب الإسرائيلى، يمكن القول إن احتمالات عدم النجاح الكامل للتخطيط الإسرائيلى قائمة.

وبالإضافة إلى ذلك كله فديالكتيك الصراع نفسه، إذا نظرنا إلى الجانب العربى بكل قدراته الحالية والمحتملة وإذا ما نظرنا إلى التناقضات التى تتولد كل يوم من جراء تطبيق السياسات الإسرائيلية المختلفة، كسياسة "الجسور المفتوحة"، وازدياد فرص "الاتصال" بين العرب والإسرائيليين من شأنها على المدى الطويل ألا تجعل التخطيط الإسرائيلى المرسوم بعناية على الورق، يخرج إلى حيز التنفيذ كاملا كما تصوره واضعوه. فما أصعب التوفيق بين عناصر متنافرة فى الهوية اليهودية والهوية الإسرائيلية، ومن ناحية أخرى كيف يمكن حل التناقض الجذرى بين جيلين متمايزين فى إسرائيل جيل قديم، يتسم بأنه صهيونى متعصب نشأ وتربى فى ظل أحلام الصهيونية وأساطيرها لإنشاء الدولة، وجيل شاب منبت الصلة بتراث الصهيونية، مرتبط بإسرائيل أساسا، يركز كل همه على الاهتمامات الشخصية والمشاريع الفردية، وهو بالتالى لن يطيق الحياة دائما فى ظل مناخ حرب زاخر بالقلق والتوتر. وأخيرا بين الشك فى العرب ورفضهم، والتعاون الاقتصادى معهم عن طريق إدماج عرب الضفة الغربية فى الاقتصاد الإسرائيلى، تسقط كثير من دعاوى الصفوة الحاكمة الإسرائيلية، التى عملت على ترويجها بين الجماهير الإسرائيلية.

إن القراءة السياسية لخريطة الشخصية الإسرائيلية يمكن أن تمنحنا استبصارات بالغة العمق. ولكن يبقى أن ننتقل من مجال الفهم إلى مجال التأثير على سير الوقائع والأحداث. ولاشك عندنا على وجه الإطلاق فى أن إرادة الشعوب المناضلة هى التى تستطيع بفعلها الثورى أن تتجاوز الهزيمة وتحقق النصر النهائى.

٨ - اتجاهات الوعى الصهيونى فى إسرائيل(*)

ليس هناك غير التطبيق حكما وشاهدا على صحة أى أيديولوجية. ولأن الصهيونية أيديولوجية معادية للتاريخ فقد كان من المنطقى - بعد فترة صعودها ونجاحها الجزئى فى إكساب اليهود الوعى الزائف بأنه على أرض فلسطين ستنتهى المشكلة اليهودية نهائيا وإلى الأبد - أن تبدأ مرحلة إنحسارها وتدهورها. ويعبر عن هذه المرحلة أبلغ تعبير سيل الكتابات الإسرائيلية التى تتحدث بصورة أو بأخرى عن "أزمة الصهيونية".

والواقع أن هذه الأيديولوجية العنصرية العدوانية، لم تستطع اجتذاب المهاجرين من أكبر تجمع يهودى فى العالم، ونعنى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

على أن الظاهرة التى تقلق المفكرين الإسرائيليين أكثر من غيرها، هى عجز الصهيونية عن النفاذ إلى وعى الأجيال الشابة فى المجتمع الإسرائيلى. وهنا لا يقنع الإسرائيليون - كعادتهم - بالتأملات الانطباعية، وإنما يستخدمون أسلوب قياس الاتجاهات، لمعرفة الميول والنزعات الحقيقية السائدة بين جماهير الإسرائيليين.

وقد قام بقياس الاتجاهات نحو الصهيونية فى إطار بحوث معهد الأبحاث للاجتماعى التطبيقية العالمان الإسرائيليان ليفى وجوتمان فى صيف عام ١٩٧٠. إن التساؤل عن اتجاهات الوعى الصهيونى فى إسرائيل، يثير منذ البداية سؤالا رئيسيا: من هو الصهيونى! فى الماضى البعيد كان يقال إن "الصهيونى هو إنسان يرى فى تجمع الشعب اليهودى فى أرض إسرائيل حلا للمشكلة اليهودية". غير أن اليهود،

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/٨/١.

بمن فيهم الصهيونيون، لم يسرعوا فى الهجرة إلى فلسطين بالرغم من اتساع أبوابها. ومن هنا تندر بعض اليهود على هذه الظاهرة فقالوا "الصهيونى هو إنسان يقدم شخصا آخر لأجل أن يستطيع الثالث الهجرة إلى أرض إسرائيل!" وهذه الظاهرة هى التى دعت بن جوريون إلى إعلان عدم الاعتراف بصهيونية اليهود الذين يرفضون الهجرة إلى فلسطين، بل لقد أنكر عليهم يهوديتهم ذاتها. وقد أظهر قياس الاتجاهات فى هذا الصدد أن غالبية من قيست اتجاهاتهم (حجم العينة ١٩٤٥ شخصا) لا يتفقون إطلاقا مع رأى بن جوريون، فقد وجد أن (٣٠٪) فقط يربطون بين اعتناق الصهيونية وضرورة الهجرة إلى إسرائيل والصهيونى له تعريف آخر فى نظر هؤلاء، فقد رأى (٧١٪) منهم أنه هو الذى يتلقى هو وأولاده التعليم اليهودى، ورأى (٥٢٪) منهم أنه هو الذى يسهم فى الجباية اليهودية لصالح إسرائيل، ورأى أخيرا (٤٠٪) منهم أنه هو الذى يكون منضما إلى منظمة صهيونية.

وقد وجد البحث ارتباطا سلبيا بين التعليم وبين قوة الوعى الصهيونى، أى أنه كلما كان الإنسان مثقفا ضعفت صهيونيته.

وبالرغم من أن البحث يذكر أن (٧٧٪) وصفوا أنفسهم بأنهم صهيونيون، وأن هذه النتيجة قد تفاجئ الكثيرين ممن تحدثوا عن انهيار الصهيونية، إلا أن التفسير الدقيق لهذا الرقم - الذى يتناقض مع بيانات أخرى فى نفس البحث - قد لا يؤدى بالضرورة إلى النتيجة التى يريد البحث أن يصل إليها وهو استمرار قوة الصهيونية. فمن المعروف فى قياسات اتجاهات الرأى العام أن من يجيبون عن الأسئلة كثيرا ما يوحدون بين أنفسهم وبين القيمة الرسمية السائدة فى المجتمع، ولا يعنى ذلك بالضرورة أنهم فى سلوكهم الفعلى يتصرفون على ضوئها. غير أن أهم من ذلك كله، أن نسبة (٧٠٪) من أعضاء العينة الذين ولدوا فى إسرائيل أعلنوا أنهم غير صهيونيين. وهذه النتيجة تتفق فى الواقع مع عديد من البحوث الاجتماعية التى تؤكد نتائجه سيادة الاتجاهات "العلمية" بين الشباب الإسرائيلى، ورفضهم للصهيونية كأيديولوجية، وارتباطهم بإسرائيل أساسا.

ويتضمن البحث بيانات إحصائية أخرى يراها بعض المعلقين الإسرائيليين تمثل ظواهر تدعو للقلق. فقد تبين أن الهجرات الأخيرة أقل صهيونية وأقل يهودية من

الهجرات التى سبقتها. فقد سئل الذين تم قياس اتجاهاتهم، "هل يرون أنفسهم صهيونيين؟"، وقد أجابوا طبقا للتقسيم التالى:

- من هاجروا قبل ١٩٢٠ نعم "٦٠٪".
- من هاجروا فى الفترة ١٩٣١–١٩٤٠ نعم "٥٦٪".
- من هاجروا فى الفترة ١٩٤١–١٩٤٧ نعم "٤١٪".
- من هاجروا فى الفترة ١٩٥٥ - ١٩٥٩ نعم "٣٨٪"
- من هاجروا خلال عام ١٩٦٠ نعم "٤٢٪".

ودلالة هذه الأرقام جلية واضحة. فموجات الهجرة فى الثلاثينات كانت تسودها الاتجاهات الصهيونية بدرجة أعلى جدا من موجات الهجرة فى الخمسينات.

ويمكن القول إن البحث قد كشف بصورة خاصة عن أن هناك اتجاها سائدا لدى اليهود الذى ولدوا فى إسرائيل بعدم انتمائهم للصهيونية كعقيدة وخصوصا بين أولئك الذين ينحدرون من آباء يهود ولدوا فى شرق أوروبا حيث ترعرعت الصهيونية. يتساءل بعض المعلقين الإسرائيليين:

ما تفسير هذه الظاهرة! هل هى رد فعل للتعليم الأيديولوجى الذى تلقاه هؤلاء الشباب إذا كان المثقفون أقل صهيونية من الآخرين، والذين ولدوا فى إسرائيل أقل يهودية من المهاجرين، فماذا سيحدث عندما يكبر أبناء الجيل الجديد الذين تعلموا فى المدارس الثانوية وفى الجامعات!

إن المفكرين الإسرائيليين يطرحون فى الوقت الراهن عدة أسئلة تتعلق بمصير إسرائيل كدولة يهودية، لا تمثل مشكلة الشباب الإسرائيلى غير الصهيونى سوى جانب منها.

ويرى بعض الكتاب الإسرائيليين أن جيل المستقبل فى إسرائيل، الذى تسوده الاتجاهات العلمانية، والذى لا يعير الاعتبارات الدينية اليهودية اهتماما كبيرا، سيندمج حتما اندماجا كاملا، ولن تستطيع الأقلية الدينية فى إسرائيل التى مازالت متمسكة بالدين ومحافظة على هويتها وطابعها المميز أن تقف ضد التيار الجارف الذى يسير فيه المجتمع الإسرائيلى، هذا التيار الذى تسوده قيم اجتماعية تتناسب مع نموذج المجتمع الاستهلاكى الذى يتبلور بشكل مطرد، والذى يجعل الفرد يسعى

لصالحه الخاص، بغض النظر عن الصالح العام للمجتمع.

فهل يعنى ذلك كله أن الصهيونيـة قد أدت دورهـا، وأن المجتمـع الإسـرائيلى قد عثر علـى الأيديولوجيـة البديلـة فـى غمـار السباق نحـو الوصـول إلـى المجتمـع التكنولوجى المتقدم؟.. ذلك ما ستكشف عنه السنوات القادمة الحاسمة.

٩ – المثقف الإسرائيلى
بين الانتهازية الفكرية والنقد المبدئى للصهيونية(*)

من المسلم به أن علاقة المثقفين بالسلطة فى أى نظام، رأسماليا كان أو اشتراكيا، تمثل مشكلة ذات أبعاد معقدة ومتشابكة. ذلك لأن الوظيفة الاجتماعية الأصيلة للمثقف هى اتخاذ موقف نقدى دائم من كل الجوانب السلبية فى مجتمعه. ومن المنطقى ألا ترحب السلطة - فى ظل أى نظام - بنقد المثقفين، خصوصا حين يتصاعد مده، ويتخذ طابعا راديكاليا عنيفا، يكشف التناقض، ويعرى العيوب، ويشير إلى مواطن الخلل والقصور. ومن هنا فالصراع الدائم بين المثقفين والسلطة، غالبا ما يدور على أرضية حرية التفكير: مداها، وطرق التعبير عنها، والثمن الذى يدفعه المثقف فى سبيلها.

غير أن المثقف الإسرائيلى يجابه موقفا فريدا، قل أن واجهه مثقف اخر فى العالم. فهو ينتمى إلى الدولة الإسرائيلية التى قامت فى ضوء دعاوى الصهيونية، ونهضت على أساس الاستعمار الاستيطانى المنظم لأرض فلسطين، وما ترتب عليه من اغتصاب أراضى العرب والعدوان على حقوقهم وتشريدهم. فكيف يقوم المثقف الإسرائيلى الأصيل بوظيفته النقدية، وهو فى مواجهة دولته التى قامت على غير أساس مشروع، ومجتمعه الذى نشأ وتبلور نتيجة الغصب والقوة والغزو!

فى المرحلة الأولى من الغزو الصهيونى لفلسطين لم تكن المشكلة قائمة بنفس

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/٨/٧.

صورتها اليوم. فالمثقفون الصهيونيون تبنوا مبادئ الصهيونية وروجوا لأسطورة أرض الميعاد. وهم فى غمرة حماسهم لتحقيق مشروعهم، لم يكن للعرب وجود فى منظورهم. لقد تجاهلوا ببساطة أنهم يهبطون إلى وطن شعب آخر، يغتصبونه، ويطردون سكانه بالقوة. ولكن حتى فى هذه المرحلة ولدت بذور المعارضة التى حاولت أن تضع حدودا للظلم الفادح الذى أوقعه الصهيونيون بالعرب. غير أنها لم تكن معارضة أصيلة، بل لقد كانت الجذر الأساسى الذى امتدت منه فروع الانتهازية الفكرية بين المثقفين الإسرائيليين المعاصرين.

ولعل الفيلسوف اليهودى الصهيونى "مارتن بوبر" - أشهر الفلاسفة اليهود فى القرن العشرين - هو المثل النموذجى لهذا الاتجاه. فقد قبل "بوبر" دعاوى الصهيونية العريضة، ولكنه فى نفس الوقت بذل جهدا ملحوظا لكى يمثل دور "حمامة السلام" بين اليهود الصهيونيين والعرب، وذلك على أساس أن العرب قد حاق بهم ظلم جسيم نتيجة لتحقيق المشروع الصهيونى، ولابد من الاعتراف بأن لهم "شبهة حق" فى فلسطين، ومن هنا دعوته إلى دولة ثنائية القومية. ويكشف عن التشوش الحقيقى فى رؤية الفيلسوف الصهيونى الشهير رده على رسالة زعيم الهند الراحل غاندى التى قال له فيها "إن فلسطين تنتمى للعرب، وبالتالى فإنه من الخطأ وغير الإنسانى فرض اليهود على العرب" فى هذا الرد الذى أعطى له بوبر عنوانا هو: "الأرض ومن يملكها: رد على "غاندى"، كشف الفيلسوف عن تناقضه الفكرى العميق، فهو يدافع عما أسماه "الحق اليهودى" فى فلسطين الذى لا يمكن رفضه، لأن "شيئا ربما أسمى من حياة شعبنا يرتبط بهذه الأرض وبالعمل فيها". ومن ناحية أخرى يناقش مشكلة "الأرض" مناقشة ميتافيزيقية خالصة لكى ينتهى إلى أنه ليس للفلسطينيين حق كامل فى التراب الفلسطينى. إذن ما هو حل المشكلة! يقرر "بوبر" ببساطة أن هناك حقين يصطرعان: عربى ويهودى، ولا يمكن تغليب أحدهما على الآخر، ولا يمكن القول إن أحدهما عادل والآخر غير عادل. ولذلك - يقرر بوبر - فليس هناك من سبيل سوى الاعتماد على "الإيمان والحب" فى صفوف اليهود والعرب حتى يمكن لهم أن يعيشوا معاً فى سلام!

وهكذا يتضح مدى عمق الانتهازية الفكرية لدى "بوبر"، الذى شهد بعينيه موجات المستعمرين الصهيونيين يطردون الشعب الفلسطينى بالقوة، ومع ذلك كان يزعم أن "الإيمان والحب" كفيلان بحل المشكلة، ولعل ما يكشف أكثر من ذلك، عن انتهازية

معارضة "بوبر" للتوسع الصهيونى فى فلسطين، أنــه مـا إن قـامت المعـارك العنيفـة بين اليهود والعرب فى حرب ١٩٤٨، حتى انقلبت حمامة السلام إلـى صقـر جـارح فصرح قائلا: "مادامت قد قامت الحرب فلابـد مـن خوضهـا حتـى النهايـة"! وهكـذا كشف نبى الحب المسلح عن كل أوراقه.

ومن هنا يمكن القول إن الانتهازية الفكرية أفصحت عن نفسها - قبل إنشاء دولـة إسرائيل - لدى بعض المفكرين اليهود الذين تبنوا الحل الصهيونى للمشكلة اليهودية، ولكنهم أرادوا أن يقيدوا بعض خطوات الاحتلال الاستيطانى. وامتدادا لهـا ظهـرت الانتهازية الفكرية التى نجدها اليوم لدى بعض المثقفيـن الإسـرائيليين المعـارضين، الذين يقبلون بدولة إسرائيل كما نشأت وكما هى الآن" ولكنهـم يريـدون بمعـارضتهم تقييد خط الغزو الاستعمارى الذى تمارسه الدولة، والـذى يتسـع نطاقـه مرحلـة أثـر مرحلة.

وإذا كنا رأينا كيف تشوشت رؤية الفيلسـوف للصـراع العربـى الإسـرائيلى، فإنـه من المهم أن نفحص حالة أنماط أخرى من المثقفين الإسرائيليين المعارضين، الـذى يتأثر كل منهم فى معارضته بتخصصه الأصلى وإطاره النظرى الذى يصدر عنـه.

لنرى كيف اختل منطق الفقيه القانونى فى معالجته للصراع العربى الإسرائيلى.

الفقيه القانونى هو "آمنون روبنشتاين" عميد كلية الحقوق بجامعة تل أبيب، الذى يعـد فـى مقدمـة المثقفيـن الإسـرائيليين المعـارضين للمؤسسـة الإسـرائيلية. وينطلـق روبنشتاين من أن لليهود حقا تاريخيـا علـى مـا يسـميه "أرض إسـرائيل" ويقـرر "أن اسم هذه الأرض الذى طالما تردد على ألسنتنا لخير دليل على ذلك"! غير أنه يحلـل التاريخ اليهودى على أساس أنـه طبـع اليهـود بسـمتين أساسـيتين: غضـب مصبـوب على غير اليهود من ناحية، وفهم لمعاناة الآخرين من جهة أخرى. وإذا كـان الأمـر كذلك - يتسـاءل روبنشـتاين بمنتهـى البـراءة - فكيـف يسـمح الإسـرائيليون لأنفسـهم بممارسة العنف إزاء العرب! ويقرر أنه "فى الفترة الأخيرة طـرد آلاف المزارعيـن من أراضيهم بدون وجه حق، وهدمت بيوتهم وسدت آبار ميـاههم" إن هـذا العمـل - فـى نظـره - يمـس سـيادة القـانون بصـورة خطـيرة! وينتقـد سياسـة الضـم البطـئ للأراضى المحتلة التى تمارسها المؤسسة الإسرائيلية على أسـاس أنـه "بـدون تغيـير قانونى لوضع الأراضى المحتلة يحرم الفلسطينيون من حقوقهم السياسية".

إن جوهر التناقض فى سلوك روبنشتاين وغيره من المثقفين الإسرائيليين، أنهم وافقوا على إنشاء دولة إسرائيل على أشلاء الوطن الفلسطينى، ودعموا جهود الدولة التى قامت فى ظل ممارسة القوة والاغتصاب، ولكنهم يحاولون - بطرق متعددة وباستخدام أساليب شتى - أن يمثلوا دور المعارضين للاتجاهات التوسعية والعدوانية للمؤسسة الإسرائيلية وهذا هو أبشع ضروب الانتهازية الفكرية. إن طريق المعارضة للمؤسسة. الإسرائيلية واضح لا غموض فيه لا يستطيع مثقف إسرائيلى أن يدعى وقوفه فى معسكر المعارضة، مالم يرفض الطابع الصهيونى لدولة إسرائيل كموقف مبدئى.

وليس هذا فى الواقع مطلبا مستحيلا فقد شرع فى تحقيقه أعضاء الخلية الثورية الإسرائيلية العربية التى أشرف على تكوينها المناضل الفلسطينى حبيب قهوجى. فقد أنشأوا تنظيما الغرض منه كما حددوه بمنتهى الوضوح، الصراع ضد الكيان الصهيونى لدولة إسرائيل، لإنشاء وطن يسع اليهود والعرب معا. ولعل أصالة هذه المعارضة وكشفها للمعارضة الأخرى الانتهازية، هى التى أدت إلى ردود الفعل العنيفة فى المجتمع الإسرائيلى بعد كشف هذا التنظيم والقبض على أعماله ومحاكمتهم. فلأول مرة تعرف المعارضة الإسرائيلية الأصلية هدفها وتحدد الوسيلة الثورية لتحقيقه.

١٠ - نحن والعدو (*)

من خلال الصراع الضارى مع العدو وفى لهيب المعارك العنيفة التى تخوضها قواتنا المسلحة الباسلة، وعلى ضوء السلوك الثورى لجماهيرنا المناضلة الواثقة فى النصر النهائى بالرغم من جسامة التضحيات، تبدو أصالة الشخصية العربية، ويتكشف معدنها الحقيقى. لم تفلح الحرب النفسية المسعورة التى شنتها إسرائيل عقب حرب يونيو ١٩٦٧، والتى حاولت بكل الوسائل تشويه صورة الشخصية العربية. وتزييف ملامحها وقسماتها الرئيسية، فى أن تجعلنا نفقد إيماننا بفاعلية الشخصية العربية وإيجابياتها.

إن الشخصية العربية تمثل نمطا أصيلا من أنماط الشخصيات القومية. فهى شخصية عريقة صيغت عبر القرون، على هدى نسق مترابط من القيم الإنسانية. هذه الشخصية يسرى فى صميمها حب الحرية، الذى يكشف عنه الرفض القاطع للغزو والقهر، وكل محاولات السيطرة الأجنبية، وذلك من خلال ممارسة النضال الثورى ضد الغزاة والمحتلين والمستعمرين. إن أجيالا وراء أجيال من الشعب العربى، فى سوريا ومصر والعراق، فى ليبيا وتونس والمغرب والجزائر، والسودان، ناضلت ضد الاستعمار الإنجليزى والفرنسى والإيطالى، وجادت بأرواحها فى سبيل أن يخلص التراب الوطنى من دنس الاحتلال، ولذلك فالنضال العربى ضد التحدى الإسرائيلى ليس سوى حلقة من سلسلة ثورية موصولة عامرة

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/١٠/٣٠.

بالكفاح والتضحية.

والشخصية العربية تجنح نحو السلام، ويهيمن عليها التسامح، وتمتلك القدرة الخلاقة على الانفتاح على الشعوب الأخرى. وعلى ممارسة الحوار الإنسانى، من خلال إيمان راسخ برسالة تاريخية يستطيع الشعب العربى - كما فعل فى الماضى - أداءها للإسهام فى تقدم العالم، ولكن دون أدنى انتقاص من شأن الشعوب الأخرى، وبغير معاناة عقد التفوق على الآخرين. وهى شخصية قادرة على الإبداع بكل صوره، فى العلم والفلسفة والدين والفن: أركان كل حضارة إنسانية.

حقيقة أن التخلف الحضارى - الذى جاء مصاحبا للسيطرة الأجنبية - الذى هيمن بآثاره المدمرة على هذه الشخصية، قد فرض عليها أن تتجمد قواها الخلاقة حقبا من الزمان، ولكنها بعد بداية عصر الإحياء الحضارى. تواصل نموها من خلال نضال شاق. وحين تصل إلى مرحلة الازدهار الكامل ستكون أكثر قدرة على مجابهة المجهول. وأكثر استعدادا لمواجهة المغامرة.

ولكن ما الذى تمثله شخصية العدو! إنها شخصية مرضية، يسيطر عليها الشك فى الآخرين: فى العرب، وفى غير اليهود، وفى المنظمات الدولية على كافة مستوياتها. شخصية يهيمن على نزعاتها الإحساس بالاضطهاد، وفى نفس الوقت واقعة تحت تأثير التأكيد المتضخم على الذات، والشعور بالتفوق على كافة الشعوب، والاعتقاد فى رسالة منفردة يمكن لليهود أن يقوموا بها دون غيرهم من شعوب العالم. وحين تقع هذه الشخصية أسيرة نظام سياسى عدوانى، شعاره هو ضرورة استخدام القوة والردع ضد العرب، ومؤسسة عسكرية بنت أسطورتها الموصومة على أساس أنها لا تقهر، فمن المنطقى أن يتدعم الوعى الزائف لدى الإسرائيلى العادى بأنه سليل "الشعب المختار"، الذى يستطيع أن يجابه العالم كله ويتحداه! ومن هنا أهميه المعارك العنيفة التى تديرها قواتنا ضد العدو، فهى فى نفس الوقت الذى تصد فيه عدوانه، تنسف الوعى الزائف السائد بين الإسرائيليين" وتردهم إلى الوعى الحقيقى الذى يضعهم فى أحجامهم الحقيقية بغير تهوين أو تهويل.

وهناك من ناحية أخرى تعارض واضح بين النموذج الحضارى العربى والنموذج الإسرائيلى. إن النموذج الحضارى العربى يضرب بجذوره فى تربة

حضارة إسلامية إنسانية أصيلة، ترفض التعصب العرقى، وتؤمن بإمكانية التعايش بين الأديان والشعوب، وفى ظلها المديد عاشت جماعات وأمم شتى، حيث صيغت نظرية للكون، والمجتمع والإنسان، كانت رافدا من روافد الفكر الإنسانى الخلاق، وإسهاما للعقل العربى المبدع فى بلورة الفكر العالمى الحديث.

ولقد حاول الاستعمار الغربى من خلال معارك ومؤثرات ممتدة وشرسة - ضرب هذا النموذج الحضارى، وذلك بفرض التجزئة على البلاد العربية، وإثارة الثغرات الإقليمية والطائفية، وتدعيم الخلافات السياسية فى المنطقة ولكن الشعوب العربية، تكتسب فى الوقت الراهن - وبالرغم من كل المحاولات الاستعمارية - الوعى الجمعى بأوضاعها الحضارية، وبطرق تجاوزها، وهى تمتلك القوة البشرية، والقوة الحضارية الكامنة التى تسمح لها بالانطلاق.

أما النموذج الإسرائيلى، فإنه ينهض على أساس مجموعة من المبادئ الرجعية الأساسية: العنصرية التى تزعم أن اليهود أفضل شعوب العالم، ومن هنا إصرارهم على "النقاء اليهودى للدولة الإسرائيلية" وكفاحهم خارج إسرائيل ضد ما يطلقون عليه". "ذوبان اليهود فى الشعوب الأخرى"!، ويتبع ذلك بالطبع ممارسة **التمييز العنصرى** ضد كل من هم ليسوا يهودا وضد العرب على وجه الخصوص. **والتوسع المستمر على حساب الأراضى العربية**، تحقيقا لأساطير لاهوتية عن أرض الميعاد" بما يتضمنه ذلك من ممارسة العدوان الدائم على العرب، **وعبادة القوة** باعتبارها هى لغة التعامل الوحيدة مع العالم.

والحقيقة أن المعركة بين الشخصية القومية العربية والنموذج الحضارى العربى، والشخصية الإسرائيلية المريضة أو النموذج الإسرائيلى الرجعى، إنما تمثل الصراع بين حركة التاريخ التقدمية التى تنتهض على أساس توسيع منظور النزعة الإنسانية وتطويرها حتى يسع العالم الشعوب المتباينة فى تقاليدها القومية، سعيا وراء حضارة إنسانية شاملة، وبين الحركة الصهيونية الفاشية التى تتجسد فى إسرائيل، والتى تقاوم النزعة الغلابة لدى شعوب العالم نحو السلام. ومن هنا فقهر القوى الإسرائيلية والصهيونية وردعها لن يكون نصرا للإنسان العربى فقط، ولكنه أيضا سيكون إضافة إيجابية لرصيد الإنسان فى كل مكان.

١١ - تشريح العقل الإسرائيلى(*)

لا يمكن أن تتحطم الأسطورة إلا على أرض الواقع، ولا يمكن للأوهام أن تتبدد إلا حين تسحقها الحقيقة. لقد تهاوت تحت أقدام المناضلين البواسل من أفراد قواتنا المسلحة مسلمات متعددة، درج العقل الإسرائيلى على الانطلاق منها، بدون أن يحس بالحاجة الملحة إلى أثباتها، لكى يشيد أبنية فكرية متكاملة، تنهض على أساسها السياسات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

والعقل الإسرائيلى وريث العقل اليهودى الصهيونى المتعصب، فريد فى الطريقة التى يستقرئ بها الواقع، ولا شبيه له فى الوسيلة التى يصوغ بها التعميمات عن الكون والمجتمع والإنسان. ولا يمكن لنا أن نفهم عديدا من دعاوى الصهيونية، ولا كثيرا من مقولات الفكر الإسرائيلى بغير تحديد دقيق للأسلوب الذى يعمل العقل الإسرائيلى بواسطته. وهو يمكن إجماله فى عبارة مفردة، بكونه يتمثل فى الاختزال الميكانيكى الفج للتاريخ والحاضر والمستقبل، فى صيغ جامدة تتسم بالقطعية والحسم. بطريقة تؤدى إلى إفراغ الحقائق التاريخية والظواهر الاجتماعية من مضمونها الحى الخلاق، وتحويلها إلى مجرد أشياء جامدة، تتلاعب بها الصهيونية أو إسرائيل، وتسيطر عليها، وتفرض على اتجاهاتها إرادتها المطلقة. يستوى فى ذلك تاريخ اليهود منذ أقدم العصور حتى اليوم، أو الوجود الفعلى للشعب الفلسطينى، أو الإمكانيات الحضارية للأمة العربية.

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٣/١١/١٠.

تجميد الحاضر:

كيف حاول العقل الإسرائيلى بعد إنشاء الدولة عام ١٩٤٨ تكييف وضع إسرائيل فى قلب العالم العربى، ورسم استراتيجيات تعاملها مع العرب! من خلال نظرة مزدوجة لإسرائيل من ناحية، وللعرب من ناحية أخرى، وضعت المعادلة المبسطة الكفيلة بحل مشكلة الاستزراع الاستعمارى لإسرائيل فى المنطقة. تتحول إسرائيل أولا إلى "دولة حامية عسكرية، ويصبح شعبها جيشا، ومن خلال اصطناع القوة الفائقة تحمى إسرائيل أمنها. وتتوسع - ضمانا له - كل حقبة من الزمن على حساب جيرانها فى البلاد العربية. وعلى كل جيل إسرائيلى أن ينفذ خطة التوسع حقبة أثر حقبة.

وماذا عن العرب؟ العرب - فى عرف العقل الإسرائيلى - لا يعرفون سوى لغة القوة والردع، ومن هنا فسياسة المطرقة التى تهوىكل فترة زمنية على رءوسهم كفيلة بإخضاعهم إلى الأبد. وهكذا يتم - ببساطة مذهلة - أفراغ الحاضر من مضمونه الحقيقى. فإسرائيل القوية ستظل هكذا إلى الأبد، والعرب الضعفاء سيستمرون فى ضعفهم إلى مالا نهاية، وبذلك تجمدت حركة التاريخ فى إطار جامد لمعادلة سهلة بسيطة التركيب.

التحكم فى المستقبل:

يشغل المستقبل العقل الإسرائيلى بصورة بارزة، يدفعه لذلك إحساس خفى عميق بأن إسرائيل جسم غريب فى العالم العربى، فهل يقدر لهذا الجسم الغريب أن يحتفظ بنقائه اليهودى الخالص المزعوم، أم أنه سيذوب مع الزمن فى خضم المحيط البشرى العربى المتلاطم؟ وإذا ما قدر لهذا الجسم الغريب أن يبقى، فما هو قدره ومصيره؟

كل هذه الأسئلة حاول العقل الإسرائيلى التصدى لها، بنفس طريقته المعهودة. لقد فزع العقل الإسرائيلى من الإشارات المتواترة التى أخذ العرب يصفون بها إسرائيل فى الفترة الأخيرة على وجه الخصوص، من كونها مجرد حملة صليبية جديدة، سيجرى عليها ماجرى على موجات الصليبيين السابقة، التى تكسرت على ضفاف الوطن العربى. ولذلك أكب عدد من المؤرخين الإسرائيليين - بجدية غريبة - على

دراسة الحروب الصليبية بتعمق، لمعرفة لماذا فشلت الجذور الصليبية في أن تضرب وتمتد في أعماق التربة العربية؟

وتوصل العقل الإسرائيلي إلى تشخيص سر الفشل الذي لاقاه الصليبيون، لقد اندثروا لأنهم قطعوا علاقاتهم بالعالم الغربي، وانغلقوا على أنفسهم في المنطقة، فضاعوا في المحيط العربي الشاسع! غير أن إسرائيل - في نظرهم - لن تكرر هذا الخطأ الفادح، فستظل دائما وثيقة الصلة بالغرب، هذا الجسر الممتد هو الذي سيتيح لها الحياة إلى مالا نهاية. وهكذا ضمنت إسرائيل لنفسها حياة أبدية وفق هذه المعادلة المتفائلة التي صكها بمهارة العقل الإسرائيلي الفذ!

وإذا كان الوجود الأبدي مضمونا، فماذا عن حجم إسرائيل ودورها في المستقبل القريب؟

ببساطة شديدة تنبأ العقل الإسرائيلي بأنها ستصبح عام ٢٠٠٠ القوة الكبرى في الشرق الأوسط: عسكريا وحضاريا واقتصاديا. ستكون هي واحة الرخاء في منطقة واسعة تسكنها شعوب عربية فقيرة، وستتولى هي قيادة التطور التكنولوجي، ثم تقوم - متفضلة - بتقسيم العمل والإنتاج بين شعوب المنطقة!

ترى ما هو وقع حرب أكتوبر المجيدة على هذا البناء السامق المزيف الذي جهد العقل الصهيوني الإسرائيلي في تشييده السنين الطوال؟ لقد انهارت المعادلات التبسيطية الفجة التي صاغها هذا العقل المريض، حين هوت الضربات العربية، وتكشف زيفها وهزالها. فلا الأمن الإسرائيلي تحميه مؤسسة عسكرية لا تقهر، ولا لغة القوة والردع تحتكرها إسرائيل بمفردها وإلى الأبد دون العرب، ولا برنامج التوسع الدائم هو الواجب المقدس الذي ستنفذه أجيال الإسرائيليين المتتابعة برغم إرادة العرب.

لقد حددت حرب أكتوبر - بدون أدنى مبالغة - مصير التجربة الإسرائيلية، ترى هل هناك فكاك من حكم التاريخ؟

١٢ - حرب أكتوبر
والنظرة العلمية للشخصية المصرية(*)

ليس من شك فى أن الأداء البطولى للقوات المسلحة فى حرب أكتوبر، وما برز للعالم كله من فاعلية الجندى المصرى وجسارته، بالإضافة إلى التخطيط العلمى الدقيق المتقن الذى سبق الحرب، قد أدى إلى تغيير ملموس فى تقييم الشخصية المصرية لدى عديد من الكتاب والمفكرين.

وقد عاصرنا جميعا الفترة التى أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧، حين تبارى المفكرون العرب الذين ينتمون إلى كل الاتجاهات السياسية فى تفسير الهزيمة. وتعددت التفسيرات، من التفسير الدينى الفج الذى زعم أن الابتعاد عن الدين كان هو العامل الحاسم فى الهزيمة، إلى التفسير التكنولوجى الساذج الذى روج لفكرة الفجوة التكنولوجية بيننا وبين إسرائيل، مرورا بالتفسير السياسى الرجعى الذى وجد الفرصة سانحة للهجوم على الاشتراكية، فقرر بمنتهى اليقين أن الاشتراكية هى المسئولة! غير أن أخطر التفسيرات قاطبة، هى تلك التى تتعلق بتشريح الشخصية المصرية بوجه خاص والشخصية العربية بوجه عام.

ولقد ركزت هذه التفسيرات - التى وجدت سندا قويا لها فى واقعة الهزيمة - على السلبيات المتعددة التى تزخر بها الشخصية المصرية. قرأنا كثيرا من السلبية، والفردية، والمظهرية والفهلوية، والافتقار إلى المبادأة، والعجز عن العمل الجماعى،

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٤/١٠/٢٢.

ومن ناحية أخرى أغرقتنا التحليلات الاجتماعية للمجتمع العربى، التى صورته لنا مجتمعاً تقليديا يقوم على اعتبارات القرابة أكثر من اعتبارات الإنجاز والكفاءة، مجتمع يتكون من مجموعة من الأميين الذين يعجزون بحكم وضعهم عن استيعاب العلم والتكنولوجيا، وبعبارة موجزة قدمت لنا صورة بالغة الكآبة للشخصية المصرية، وفى نفس الوقت رسمت لنا - صراحة أو ضمنا - صورة مسرفة فى المبالغة من الشخصية الإسرائيلية، العصرية التكنولوجية المتقدمة.

وفجأة انطلقت شرارة المعركة، اكتسح العبور المصرى المجيد الحصون والاستحكامات التى أقامتها التكنولوجيا الإسرائيلية، وفر أو أسر أو قتل عشرات الإسرائيليين المتقدمين العصريين! وإذا بنا نجد موقفا غريبا من قبل عدد من الكتاب والمفكرين المصريين والعرب. فقد تحولوا - بدون سابق إنذار - إلى التغنى بإيجابية الشخصية المصرية وثرائها، وبفاعلية المصرى وجسارته، وقدرته على تخطى الصعاب، واقتحام المخاطر، وإن ذلك كله ليس أمر اطارئاً عليه، بل هو سمة تميزه منذ العصور السحيقة الموغلة فى القدم.

ترى ما هو تفسير هذا الموقف؟ إن ذلك يرد فى رأينا - بعيدا عن الاهتمام بالعوامل الشخصية والنزعات الذاتية - إلى سيادة نظرة تجزيئية مسطحة للشخصية المصرية. لقد أخطأنا فى الموقفين: موقف الهزيمة وموقف النصر. فلا المغالاة فى تجريح الذات والتركيز على سلبيات الشخصية المصرية كان يستند إلى أساس علمى، ولا القناعة بتمجيد السمات الإيجابية كفيل بتصحيح الخطأ، أو التخلى عن الأحكام الذاتية غير الموضوعية.

إن كل هذه الأحكام حصيلة منهج تجزيئى معيب فى النظر للشخصية القومية بعيدا عن السياق التاريخى الذى تمارس فيه فعلها، تؤثر فيه وتتأثر به. إن الشخصية المصرية ليست قالبا جامدا تتضمن عددا من السمات الحضارية والنفسية "الغريزية" التى لا يعتريها التغيير، ولا تنال منها رياح الزمان. بل إنها - فى التحليل العلمى الدقيق - تعد انعكاسا لنمط المجتمع بما يتضمنه من علاقات اقتصادية متميزة فى حقبة تاريخية محددة، مضافا إليها بعد أساسى وهام هو البعد الحضارى الذى يمتد فى الزمان بصورة خفية، قد تستعصى أحيانا على التحليل. إن البعض ممن يتعرضون للشخصية المصرية يظنون - خطأ - أن المصرى اليوم هو

ابن فراعنة الأمس! ويغيب عنهم أننا يكفي أن نستشير التاريخ، لنعرف أن الشخصية المصرية قد أعيدت صياغتها بالكامل تقريبا عقب الفتح العربى الإسلامى لمصر، وليس معنى ذلك أن الفتح العربى قد وجد أمامه شخصية مصرية فرعونية متكاملة على العكس، فإن هذه الشخصية كانت قد لحقتها تغييرات جسيمة نتيجة تدهور الحكم الفرعونى الخالص منذ فترة بعيدة، بالإضافة إلى ظهور الشخصية المصرية المسيحية، فقد غير المصرى لغته ودينه. فالشخصية المصرية لحقها التغيير بفعل التلقيح الحضارى الواسع المدى الذى تم نتيجة تعرض مصر لعديد من الغزوات الأجنبية، التى استوطن بعضها دلتا وادى النيل فترات طويلة، هذه الدلتا التى كات أشبه بمعمل حضارى واسع الأرجاء، متعدد الأبعاد، تلاقت فيه الشخصية المصرية مرات عديدة بأنماط شتى من الحضارات أثر فيها وتأثرت بها.

غير أن الشخصية المصرية اختل تكاملها الداخلى، وفقدت كثيرا من أصالتها وثرائها، تحت السيطرة العثمانية الجهول، التى نشرت علامات التخلف الفكرى، والفقر الروحى حيثما حلت، وأينما استقرت. وأضيف إلى ذلك كله - فى القرن التاسع عشر - استعمار أجنبى، بسط نطاقه على العالم العربى كله، وتنوعت اجتهاداته - بالرغم من تعدد أصوله الفرنسية والإنجليزية والإيطالية - لقتل الشخصية العربية. وكان من نصيب الشخصية المصرية مجابهة الاستعمار الإنجليزى، ومحاولة التطور تحت أقدام المحتل الغاضب.

لقد بدأت الشخصية المصرية تصحو من سباتها الطويل، حين تم اللقاء العاصف بين المجتمع المصرى المتخلف والحملة الفرنسية التى حملت وقتذاك علامات النهضة الأوروبية ودلائل التقدم العلمى الغربى. منذ تلك الفترة حاول جيل من الرواد العظام تحديث الشخصية المصرية من كافة زواياها وأقطارها. ولم تنقطع محاولات التجديد منذ ذلك الحين، وإن كان العامل الأجنبى المتمثل فى الاحتلال كان يتعمد إجهاض كثير من هذه المحاولات. وحين آذنت بالزوال حقبة الاستعمار الأجنبى المباشر عن العالم العربى، زرع الاستعمار العالمى إسرائيل فى المنطقة، بؤرة عدوانية لاستنزاف الطاقات العربية العظمى، وإعاقة نموها وانطلاقها فى طريق التقدم والعصرية.

وخلاصة ما نريد أن نركز عليه، أن الشخصية المصرية تضم عددا من السمات

السلبية الناجمة عن تخلف أنماط الإنتاج، وعن بقايا السيطرة الاستعمارية القديمة وما طبعته فى نفوس البشر، وعن آثار العلاقات الاستغلالية للصفوة المستغلة السياسية والاقتصادية، التى حاولت أن تقضى على كل ما هو نبيل فى الشخصية المصرية، لضمان الخنوع السياسى، والامتثال الاقتصادى لهذه الطبقات. غير أن الشخصية المصرية فى نفس الوقت تزخر بعديد من الإيجابيات، التى هى ميراث الأجيال المناضلة المتعاقبة التى كافحت بشرف وسخاء ضد المحتل الأجنبى، والتى رفضت - بالرغم من الصعوبات الشاقة التى مارست فيها نضالها - أن تفرط فى شبر واحد من التراب الوطنى، هذه الأجيال التى مارست النضال الطبقى ضد الفلاحين والعمال والمثقفين أكثر من مرة، لتحقق العدالة الاجتماعية للجماهير.

إن الشخصية المصرية جديرة منا بنظرة علمية متوازنة، لا تسقط فى هوة اليأس القاتل بالتركيز على السلبيات، ولا تغامر بالمبالغة الفجة حول الإيجابيات. إننا شعب نحاول أن نعيد صياغة شخصيتنا القومية وسط معركة دولية وحضارية ضارية، عن طريق تجديد مؤسساتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، سعيا وراء التقدم الإنسانى المستنير، والعصرية الموجهة التى تشبع احتياجات الإنسان. وفى خضم ذلك كله، تتفاعل بصورة جدلية دائمة سلبياتنا وإيجابياتنا، ومحك إبداعنا الحقيقى هو كيف نخطط للتغيير بصورة عقلانية، وعلى ضوء قيم حضارتنا الأصيلة ذات الجذور الراسخة فى تكويننا النفسى والاجتماعى.

لا نريد بذلك أن نعود إلى الوراء كما ينادى. بعض المفكرين الرجعيين، فذلك ضد منطق التاريخ، ولكننا لا نريد أيضا أن نقفز قفزة عشوائية إلى الأمام، تقليدا أعمى لمجتمعات أجنبية. يفتقر بعضها إلى أصول حضارية عريقة، أو مازال بعضها فى مرحلة إعادة صياغة الهوية الحضارية، بتأثير الثورة العلمية والتكنولوجية. فليس محتما علينا أن نضحى بأصالتنا فى سبيل عصريتنا.

١٣ - الرؤية الإسرائيلية لحرب أكتوبر (*)

ما كادت حرب أكتوبر تندلع شرارتها، حتى ظهرت بوادر ردود الفعل الإسرائيلية الأولى تندفع بالقصور الذاتى، محملة بكل بصمات تضخم الذات الإسرائيلية الذى ظهر جليا بعد الهزيمة فى يونيو سنة ١٩٦٧، وأتيح له أن يعبر عن نفسه بمختلف الأشكال والصور إلى ما قبل أكتوبر سنة ١٩٧٣.. سرعان ما ظهرت التصريحات النارية لجنرالات إسرائيل عن "دق عظام العرب فى ساعات قليلة"، ولم تتباطأ التحليلات السياسية عن التنبؤ بالهزيمة السياسية الكبرى التى ستلحق بهم، ونتيجة محاولتهم الانتحارية. غير أنه لم يمض على وقوع الحرب يومان، حتى ظهرت بوادر القلق العميق بين صفوف الجماهير الإسرائيلية، وانعكس ذلك جليا على صفحات الصحف. ودارت المعركة، وتوالت النكسات الإسرائيلية، وأصبح من غير المعقول أن يتجاهل العقل الإسرائيلى الواقع المؤلم، وبدأت تتصاعد - بسرعة غير متوقعة - حملات النقد العنيفة ضد المخططين والمقصرين، سواء كانوا حكاما سياسيين، أم قادة للجيش، وليس من قبيل المبالغة بأى حال التأكيد بأن الرؤية الإسرائيلية لحرب أكتوبر هيمن عليها مناخ الهزيمة بكل أبعادها.

ويمكن القول إن حرب أكتوبر قد أدت إلى بروز ثلاث ظواهر فى المجتمع الإسرائيلى:

حملة نقد ذاتى بالغة العنف وظهور ردود أفعال بارزة من القوى الاجتماعية

(*) جريدة الأهرام، ١٢/٢/١٩٧٤.

والسياسية المختلفة.

وأخيرا بداية وضع تساؤلات جديدة عن مستقبل إسرائيل.

ولقد كان من المنطقى أن يعقب الفشل الإسرائيلى الواضح فى الحرب، الذى جاء بعد ثقة مفرطة فى النصر على العرب فى أى معركة تدار ضدهم، أن يعيد الإسرائيليون النظر إلى ذاتهم أولا، وإلى الطرف الآخر ثانيا. فى نظرتهم لذاتهم، ركز الإسرائيليون على عاملين أساسيين: فشل المؤسسة العسكرية، وقصور السياسة الإسرائيلية، فيما يتعلق بفشل المؤسسة العسكرية، تبين أن إسرائيل - وعلى عكس ما أعلنته فى بداية الأمر - لم تفاجأ بنشوب الحرب، ذلك أن الحشود المصرية والسورية كان قد تم رصدها، ومع ذلك فقد عجز الجيش الإسرائيلى عجزا واضحا عن استخدام نظام استدعاء الاحتياطى بفعالية وسرعة كما كان مقدرا. فقد سادت الفوضى هذه العملية لدرجة أن وحدات عسكرية هرولت إلى الميدان بدون قياداتها فى بعض الأحيان، وبدون أجهزة اتصال فى أحيان أخرى. غير أنه أخطر من ذلك، فقد فشل الجيش الإسرائيلى فى صد الهجوم المصرى، وفشل فشلا فادحا فى توجيه هجوم مضاد فعال فى المرحلة الأولى من الحرب. وفى هذا المجال المتسع شنت حملات لا نهاية لها، تحاول البحث عن أسباب الإهمال والتقصير.

غير أن أخطر الانتقادات ما وجه إلى قصور السياسة الإسرائيلية وثبات فشلها. هذه السياسة التى أرادت أن تفرض الأمر الواقع على العرب، باستمرار احتلال أراضيهم، بل وبضمها نهائيا إلى إسرائيل. ويتساءل النقاد الإسرائيليون بهذا الصدد: هل حقا سعت إسرائيل سعيا مخلصا نحو سلام عادل مع العرب، أم أن الانتهازية السياسية التى يكشف عنها عمق الفجوة بين الأقوال والأفعال هى التى هيمنت على سلوك حكام إسرائيل؟

يقرر أحد النقاد البروفيسور ليبوفيتش الأستاذ بالجامعة العبرية "بماذا أخطأنا طوال الأعوام الستة الأخيرة؟.. بل طوال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة؟.. كان الخط المرشد لسياستنا ولا يزال الرأى القائل إن وضعاً دائما من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة هو أحسن وضع بالنسبة إلينا، وينبغى المحافظة عليه بكل الطرق.. "وبذلك وضعت مشكلة الأمن فى مركز كل تفكير وكل نشاط سياسى واقتصادى

واجتماعى وثقافى" مما أدى إلى استبعاد أكثر المشكلات صعوبة بالنسبة إلى الوضع الداخلى "الفجوة بين الطوائف، ومشكلة الدين والدولة، ومشكلة التعليم، أمام مشكلة الأمن"، ثم يقرر "لقد سادت هذه السياسة الإجرامية والشريرة، طوال ٢٥ عاما، كما توقع باعثوها، حتى أدت بنا إلى الأزمة التى نعيشها الآن بعد أن دحضت جميع افتراضات تلك السياسة.. إننا لم نسع للسلام طوال خمسة وعشرين عاما، وكل التصريحات بشأن ذلك ليست إلا تصريحات متلونة وكذبا مقصودا" [جريدة ها آرتس فى ٧٣/١١/٣٠].

والحقيقة أن البروفيسور ليبوفيتش يضع يده من خلال هذه الملاحظات النقدية على عدد من العلامات البارزة للسياسة الإسرائيلية التى وضعت استراتيجيتها المؤسسة السياسية - العسكرية. وهى تتمثل فى فرض مناخ دائم زاخر بالتوتر على المجتمع الإسرائيلى، حتى تتمكن من القضاء على حركة الجدل الاجتماعى بكل صورها، وبوجه خاص لمنع تصاعد مد الصراع الاجتماعى العنيف بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، ولقمع تبلور الوعى الطبقى لدى الطبقات المسحوقة فى المجتمع الإسرائيلى، وذلك كله بحجة "الأمن الإسرائيلى" الذى زعمت المؤسسة الإسرائيلية أن العرب يهددونه. ومن ناحية أخرى تركز هذه الانتقادات على الانتهازية الإسرائيلية، التى تمثلت فى رفع شعارات الرغبة فى السلام والتعايش مع العرب، فى الوقت الذى تمارس فيه المؤسسة الإسرائيلية سياسة فعلية من شأنها إبقاء حالة الصراع مع العرب حية ومحتدمة طوال الوقت. ولم تقف حدود الانتقادات عند المجالات العسكرية أو السياسية، بل لقد تعدتها إلى مجالات الفهم العلمى للشخصية العربية. كان خبراء الشئون العربية الإسرائيليون قد صاغوا نظرية متكاملة عن عناصر "الشخصية العربية" نجحوا فى الترويج لها فى العالم الغربى وأخطر من ذلك أصبحت أساسا للاستراتيجية الإسرائيلية إزاء العرب. وتنطلق هذه النظرية من مسلمات أربعة هى: العرب - بسبب ثقافتهم الخاصة - يتجاهلون الواقع، ويقعون ضحية خيالهم.. العرب لا يفهمون إلا لغة القوة والردع.. العرب مفككون ولا يمكن أن يتحدوا.. وأخيرا أن للعرب نمطا معينا من التفكير يختلف عن التفكير الغربى.

وقد شن أحد النقاد الإسرائيليين [أغرون غيفح، فى جريدة دافار ٧٣/١٢/١٠]، هجوما عنيفا على هذه النظرية، مقررا أنه قد ثبت فى حرب أكتوبر زيف مسلماتها

جميعا. فقد أثبتت الحرب أن الزعم بتجاهل العرب للواقع لا أساس له، "فقد كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية". ومن ناحية أخرى ثبت أن العرب لا يرضخون للغة القوة، وأنهم استطاعوا أن يقفوا كتلة واحدة متحدة فى الحرب، وأخيرا أن نمط تفكيرهم ليس بعيد الشقة عن التفكير الغربى كما تزعم النظرية وينتهى إلى أن "زمن الخبراء بالنفسية العربية" على اختلاف أنواعهم قد انتهى وأنه من الأفضل أن يفتشوا عن مصدر رزق آخر"!

وبهذا الاعتراف الإسرائيلى، تسقط - حتى فى إسرائيل - النظريات العنصرية التى روّج لها بعد حرب سنة ١٩٦٧ "هاركابى" و"صنوع" وغيرهما من خبراء الدعاية الإسرائيلية عن الشخصية العربية، هذه الشخصية التى أثبتت - بما لا يدع مجالا للشك – فاعليتها القصوى.

إن حملات "النقد الذاتى" الإسرائيلية التى هى أشبه ما تكون "بالمحاكمات القومية"، لم تكن سوى إحدى آثار حرب أكتوبر. يبقى أن نحلل فيما بعد، ردود أفعال القوى الاجتماعية والسياسية والتساؤلات المثارة فى الوقت الراهن حول مستقبل إسرائيل.

١٤ - المشكلة الفلسطينية
فى وعى الشباب الإسرائيلى(*)

من بين المسلمات اليوم فى العلم الاجتماعى أن الوعى الإنسانى - بما يتضمنه من اتجاهات محدودة إزاء الكون والمجتمع والإنسان - لا يتشكل فى فراغ، وإنما ينشأ وينمو ويتغير من خلال حركة جدلية خصبة ومتنوعة مع أحداث العالم الخارجى.

غير أنه يمكن أن تنشأ ظروف معينة، تؤدى إلى تشويه الوعى الإنسانى، بمعنى قيامه على الأوهام والأساطير لا على الحقائق، ويصبح بالتالى وعيا زائفا، يؤدى إلى تخبط الإنسان فى سلوكه الاجتماعى. وليس يعنى ذلك أن الوعى الزائف يتسلط على فئة معينة من البشر فى ظروف تاريخية معينة، بحيث لا يستطيعون منه فكاكا. فالتاريخ يعلمنا أن كثيرا من صور الوعى الزائف قد اختفت لتعطى الفرصة للوعى الحقيقى أن يعبر عن ذاته.

وليس أدل على ذلك من اختفاء النازية وهى أيديولوجية مريضة قامت على العنصرية والتمييز بين الشعوب، وأسهمت فى إعطاء الشعب الألمانى، فى حقبة تاريخية محددة الوعى الزائف بعظمة الجنس الآرى وتفوقه على باقى الشعوب، ولم ينحطم هذا الوعى إلا عندما تحطمت آلة الحرب الألمانية بواسطة قوات الحلفاء من ناحية، ومن خلال تغيير البناء الاجتماعى الألمانى تغييرا جوهريا من ناحية أخرى، حيث تمت - من خلال إجراءات مدروسة - إعادة صياغة لنسق القيم فى المجتمع الألمانى.

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٥/٥/١٢.

ولقد قامت الصهيرنية - كأيديولوجية - بدور رئيسي فى إكساب اليهود فى العالم وعيا زائفا، يقوم فى جوهره على الأوهام التاريخية والأساطير الخرافية. ولسنا فى حاجة إلى الحديث عن هذه الأوهام وتلك الأساطير بالتفصيل إذ تكفى الإشارة إلى أسطورة العودة إلى أرض الميعاد، والوهم الخاص بوحدة الشعب اليهودى، والآخر متعلق باستمرارية الارتباط العاطفى بين اليهود وأرض فلسطين عبر آلاف السنين. ويعنينا فى هذا المقال تعقب التغيرات التى طرأت على الوعى الزائف لدى الشباب الإسرائيلى إزاء المشكلة الفلسطينية. وهذه التغيرات يمكن رصدها فى ثلاث مراحل، يكمن منطق التمييز بينها فى ثلاثة أحداث جسيمة أثرت تأثيرا نوعيا على اتجاهات الوعى لدى الشباب الإسرائيلى. وهذه المراحل كما يلى: من عام ١٩٤٨ [تاريخ إنشاء دولة إسرائيل] حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧، ومن يونيو ١٩٦٧ حتى أكتوبر ١٩٧٣، ومن أكتوبر ١٩٧٣ حتى الوقت الراهن. غير أنه ينبغى الإشارة إلى أن الوعى لا يتغير بطريقة آلية استجابة للحدث الخارجى، ذلك أنه عادة ما يتم التغير بصورة تدريجية بطيئة وخفية فى بعض الأحيان، ولذلك يمكن أن نرد تغيرات الوعى فى مرحلة لاحقة إلى دورها فى مرحلة سابقة. وقبل أن نتحدث عن كل مرحلة من هذه المراحل، تجدر الإشارة إلى أن أهمية فئة الشباب فى المجتمع، وخصوصا فى ظل نظام استعمار استيطانى كما هو الحال فى المجتمع الإسرائيلى، ترد إلى أنه يلعب دورا أساسيا فى نقل قيم المجتمع عبر الأجيال. وبدون هذه العملية يصبح من الصعوبة بمكان ضمان شرعية النظام واستمراريته. وشرعية النظام تتحقق فى الواقع من خلال هيمنة السلطات الحاكمة على أجهزة التنشئة الاجتماعية كالمدرسة ووسائل الإعلام والجيش إلى غير ذلك. وبالرغم من أن هذه العملية هامة بالنسبة لأى مجتمع تقليديا كان أو حديثا، إلا أنها حيوية بالنسبة لمجتمع استيطانى يهدف أساسا إلى زرع قيمه الخاصة فى بيئة وطنية غريبة بالنسبة إليه.

ومن هنا حين تظهر بوادر تفكك الوعى الزائف لدى الشباب الإسرائيلى تجاه أهل البلاد الشرعيين، ونعنى الفلسطينيين فإن السلطات الإسرائيلية تصاب بفزع شديد، لأن فى ظهور تيار فكرى نقدى بين صفوف الشباب يتبنى - ولو جزئيا بعض مطالب الفلسطينيين - تهديدا حقيقيا للمنطق الأساسى الذى قامت عليه الدولة الاستيطانية، ومن هنا تحاول هذه السلطات بكل ما تملك احتواء هذا الفكر النقدى.

المرحلة الأولى: ١٩٤٨ - ١٩٦٨:

شغل موضوع الشباب ودوره فى حركة الاستيطان الصهيونى المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة، غير أنه فى الستينات - على وجه الخصوص - وبتأثير حركة الشباب العالمية، ثارت تساؤلات عن اتجاهات الشباب الإسرائيلى. وتركزت المشكلة حول الانفصال بين الشباب الإسرائيلى والشباب اليهودى فى العالم. ولخص ناحوم جولدمان مخاوف الحركة الصهيونية بهذا الصدد حين قرر أنه "مهما حدث للشباب الإسرائيلى فإنه سيظل إسرائيليا، فى حين أن الشباب فى الدياسبورا لو لم يحافظ على يهوديته فإننا سنفقده". غير أن هذه العبارة تكشف عن قصور جولدمان فى فهم خطورة تغير اتجاهات الشباب الإسرائيلى وتأثير ذلك على مسار الصراع العربى الإسرائيلى فى المستقبل. وقد أعطيت تفسيرات لضعف توحد الشباب الإسرائيلى مع الشباب اليهودى فى العالم، أو مع أهداف الدولة، ترد أساسا إلى أنه مع إنشاء الدولة عام ١٩٤٨ اختفى الطابع التجديدى و"الثورى" لحركة الاستيطان الصهيونى، وتحول الأمر إلى محاولة للحفاظ على الوضع القائم.

ويمكن القول بأن الوعى الزائف للشباب الإسرائيلى تجاه الفلسطينيين فى هذه المرحلة كل فى صورته الخالصة إن صح التعبير! فالفلسطينيون خارجون - شعوريا أو لا شعوريا - عن الإطار الإدراكى لهم. غير أننا نستطيع فى نهاية هذه الحقبة - ونعنى قبيل حرب ١٩٦٧ - أن نلاحظ الاتجاهات السلبية لدى الشباب الإسرائيلى إزاء عديد من مثاليات التجمع الاستيطانى الصهيونى. يدل على ذلك بحث هام أجرى عام ١٩٦٦ على عينة من طلبة المدارس الثانوية حول "وجهات نظرهم إزاء الصهيونية وإدراكهم للرموز السياسية القومية". وتدل نتائج هذا البحث على أن السمات الراهنة لاتجاهات الشباب الإسرائيلى، يمكن ردها إلى هذه الحقبة. ويمكن تلخيص أهم نتائج البحث فيما يلى:

٧٣٪ أجابوا بأى أرض "الميعاد" ليست سوى تعبير "رمزى" أو "صهيونى".

٨٧٪ أجابوا بأنهم يعتبرون أى يهودى فى الدياسبورا غريبا، ويمكن النظر فى اعتباره "أخا" بصعوبة.

٦٤٪ لا يعتقدون فى الصواب المطلق فى حث اليهود للهجرة إلى فلسطين.

١٠٠٪ ثبت نقص معرفتهم الأساسية فى التاريخ الحديث للدولة ولليهود فى

الدياسبورا.

٧١٪ من بينهم عجزوا عن كتابة كلمات البيت الأول من [الهاتكفاه] النشيد القومي بغير أخطاء.

من الواضح أن هذه النتائج تشير إلى بداية تبلور اتجاهات سلبية إزاء مثاليات الصهيونية. غير أن أهم ملاحظة أنه فى هذه المرحلة غابت صورة الفلسطينيين من وعى الشباب الإسرائيلى. نتيجة عوامل متعددة، أهمها عدم وجود الاتصال الاجتماعى، بحكم القوانين العرفية التى حددت إقامة العرب داخل إسرائيل، ونتيجة لتجمد الصراع العربى الإسرائيلى خلال هذه الحقبة، إذا استثنينا عدوان ١٩٥٦، الذى لم يتح له، بحكم الظروف الدولية التى محت آثاره بسرعة، أن يترك بصمة بارزة فى إطار وعى الشباب الإسرائيلى.

المرحلة الثانية: ١٩٦٧ حتى أكتوبر ١٩٧٣:

شهدت هذه المرحلة تبلور الاتجاهات الراديكالية بين صفوف الشباب الإسرائيلى بصورة غير مسبوقة. وتركزت آثار هذه الاتجاهات بوجه خاص خلال معارك الاستنزاف بين مارس ١٩٦٨ وأغسطس ١٩٧٠ على جبهة السويس. ويمكن فى الواقع رد جذور الانتقادات التى وجهت للمؤسسة الإسرائيلية عقب حرب أكتوبر إلى هذه الفترة.

لقد أدت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى أن يثير الشباب الإسرائيلى عديدا من الأسئلة لم يسبق له أن أثارها. من أهمها أنه ثبت لهم أن استخدام القوة العسكرية لم يؤد إلى السلام ولا إلى الحدود الآمنة كما زعم قادتهم. وأخطر من ذلك كله، هو المجابهة الأولى بين الجنود الشبان الإسرائيليين وبين اللاجئين الفلسطينيين. ويصف أموس إيلون فى كتابه المعروف: "الإسرائيليون المؤسسون والأبناء" هذه الخبرة الفريدة. فيقرر أن الشباب الإسرائيلى أكتشف لأول مرة بين اللاجئين صورة من "الصهيونية العربية". ويعنى بذلك أن اللاجئين يعيشون وفى مخيلتهم ذكريات الوطن الذى طردوا منه، والذى تركزت آمالهم حول العودة إليه يوما. أغرب من ذلك ما اكتشفه بعض الجنود الإسرائيليين الشبان فى أن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، كانت مقسمة حسب القرى والمدن وأحيانا حسب الشوارع التى كانوا يسكنون فيها من

قبل. وهى قرى ومدن أصبحت الآن إسرائيلية مثل بير سبع ورام الله واللد.

وقد أتيح لهذا التيار أن ينمو في نهاية الستينات مع حرب الاستنزاف وسيادة اتجاهات القلق وعدم الأمن بين الجمهور الإسرائيلى بوجه عام وبين الشباب بوجه خاص.

وإذا كانت المرحلة الأولى من تطور وعى الشباب الإسرائيلى اعتبرناها مرحلة الوعى الزائف فى صورته الخالصة، فإن هذه المرحلة يمكن اعتبارها مرحلة الوعى الزائف المضطرب. ويعكس ذلك بعض المواقف المتناقضة للشباب الإسرائيلى الذى اكتشف فى هذه المرحلة "الحقيقة الفلسطينية" غير أنه لم يستطع أن يتجاوز الحدود الضيقة لوعيه الزائف، لكى يصل إلى نتائج صحيحة بصددها. يؤكد ذلك أنه فى عام ١٩٧٠ أصدر الاتحاد العالمي للطلبة اليهود توصية دعا فيها الحكومة الإسرائيلية للاعتراف بحقوق الفلسطينيين، مع تأكيد حق إسرائيل فى البقاء، غير أن الوفد الإسرائيلى انسحب من المؤتمر احتجاجا على هذه التوصية.

وهكذا يمكن القول إنه بالرغم من أنه بدأت تظهر فى هذه المرحلة بوادر تفكك المنطق الصهيونى فى استيطان أرض فلسطين، ألا أن الحيرة هى الملمح البارز لوعى الشباب الإسرائيلى، الحيرة بين عدم صحة المنطق، والرغبة فى إثبات شرعية الوجود الإسرائيلى.

المرحلة الثالثة: بعد أكتوبر ١٩٧٣:

برزت فى هذه المرحلة الحقيقة الفلسطينية واضحة، ولم تعد تجدى صيحة جولدا مائير: من هم الفلسطينيون؟! ومن ناحية أخرى أدت حرب أكتوبر إلى أن يشغل كل طرف من أطراف الصراع حجمه الحقيقى، وأخطر من ذلك ظهرت أمام عيون الشباب الإسرائيلى فى مسارح الحرب ذاتها. حدود ومخاطر استخدام القوة كأسلوب للحياة.

ومن هنا تصاعدت انتقادات ومخاوف الشباب الإسرائيلى بصورة غير مسبوقة. يكشف عن ذلك بوضوح محضر اجتماع حضره مائة وخمسون طالبا وطالبة من طلاب المدارس الثانوية فى مارس ١٩٧٤، لمناقشة كيف هزت حرب أكتوبر "القيم القومية والصهيونية لدى الشباب". وقد سجلت المناقشات بواسطة الكاتب الإسرائيلى

يزهار سميلانسكى، وأصبح يشار لها بعد "بوثيقة سميلانسكى". أن التساؤلات التى أثارت انزعاج السلطات الإسرائيلية تضمنت عبارات انتقادية عنيفة منها: "لقد انتهت الدولة"، "ليس لدينا أيديولوجية ولا مطامح"، "عندنا شكوك حول حقنا فى الوجود على هذه الأرض"، "لماذا نحن هنا، وما المستقبل الذى ينتظرنا؟"، "التاريخ اليهودى لا يعنى شيئا بالنسبة لنا"، "هل أرض إسرائيل هى الإمكانية الوحيدة المتاحة أمامنا للحياة؟"، "إنهم يدعوننا إلى الحرب ويسوقوننا ونحن مغمضو الأعين، ولكن لأى سبب نموت؟".

ويمكن القول إنه فى هذه المرحلة تجمعت حصيلة المراحل السابقة مما ينبئ باحتمال تغير وعى الشباب الإسرائيلى تغيراً كيفياً، الأمر الذى قد يجعل الوعى الزائف ينتقل إلى مرحلة الوعى الصحيح مروراً بمرحلة الوعى الزائف المضطرب.

ولكن علينا أن نحذر أخطاء التعميم بهذا الصدد. ونعنى على وجه التحديد أن النقد الذاتى المرير بعد حرب أكتوبر ظاهرة مركبة، قد نجد فيها التمرد على القيم السائدة التى تدعمها السلطة الإسرائيلية، ولكن قد تؤدى من ناحية أخرى إلى ردود فعل رجعية متطرفة. كل ذلك بالإضافة إلى أن ما يطلق عليه الشباب الإسرائيلى، من الصعب أن يصدر فى مجموعة من اتجاهات واحدة ومتسقة. فهناك شواهد على غلبة الاتجاهات المحافظة على طلبة الجامعات على وجه الخصوص، وهناك وقائع تشير إلى أن بعض فئات الشباب الإسرائيلى مازالت أسرى الأوهام القديمة، يدل على ذلك محاولات الاستيطان فى الضفة الغربية التى قامت بها بعض المجموعات الشبابية المتطرفة. إن الصراع الحاد العنيف يتمثل فى هذه المرحلة الحاسمة بالذات بين الأوهام والحقائق، بين المثاليات الصهيونية والواقع الإسرائيلى الكئيب.

١٥ - "المشكلة الإسرائيلية" واحتمالات السلام(*)

فى الوقت الذى تتركز فيه الجهود السياسية سعيا وراء التوصل إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى تحقق المطالب المشروعة للأمة العربية، ينبغى ألا نقنع باجترار الماضى، ولا بالتركيز على المشكلات الآنية فى الوقت الحاضر، وإنما علينا أن نستشرف المستقبل لنحاول رصد التطورات المحتملة عند الأفق البعيد، وأى محاولة تنبؤية يمكن أن تكون رجما بالغيب إن لم تنطلق من رؤية نقدية شاملة تسع التحليل الواعى للجذور التاريخية للصراع وتطوراته، وتحاول فى نفس الوقت أن تحيط بأبعاد الموقف الراهن فى معسكر الخصم.

ومن خلال استخدام منهج التحليل الاجتماعى فى العلاقات الدولية، الذى يعنى فى المقام الأول بتحليل أيديولوجية كل طرف من أطراف الصراع، ونوعية بنائه الاجتماعى، واتجاهات الصفوة السياسية والمبادئ التى تحكم حركتها، يمكننا أن نضع أيدينا على ظاهرة هامة تكمن وراء كل الحجج السياسية التى يحاول بها الإسرائيليون ممارسة جدلهم حول عديد من القضايا الحقيقية أو المزعومة مثل قضية الأمن والضمانات وغيرها وغيرها. هذه الظاهرة هى ما يمكن أن نطلق عليه "المشكلة الإسرائيلية". ويحدد عالم النفس الإسرائيلى جورج تامارين ملامحها العامة بكونها تتمثل فى التناقض الذى يسم الواقع الاجتماعى والروحى فى إسرائيل، ويعنى به التعارض بين "العقيدة الإسرائيلية" التى تدعو إلى إقامة مجتمع ديمقراطى

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٥/٣/١٦.

تقدمى ومتنور، تسوده المساواة - والتى تزعم الدعاية الإسرائيلية أنه قد تحقق فعلا - وبين القوانين الثيوقراطية - العنصرية، والمناخ السائد الذى يتسم بالتعصب والثقافة المنغلقة، بالإضافة إلى الإجراءات الشمولية القهرية التى تطبقها السلطات الإسرائيلية".

إن هذه المشكلة تعبر فى الواقع عن فشل الصهيونية فى تحقيق برنامجها المعلن، والذى زعم أن إنشاء دولة إسرائيل سيكون تجسيدا للحلم الصهيونى فى أن يعيش اليهود لأول مرة فى تاريخهم فى إطار طبيعى تختفى فيه اللاسامية، ويعيش فى جنباته شعب الله المختار الذى تهددته مختلف ضروب التهديد عبر تاريخه المتصل كما يزعم المؤرخون الصهيونيون. ويضع تامارين يده على جذور المشكلة فيقرر أن الصراع داخل المجتمع الإسرائيلى يعلن عن نفسه فى التناقص الجذرى بين أنصار الاتجاهات التى تميل إلى صياغة إسرائيل باعتبارها "جيتو" بالمعنى المادى والروحى للكلمة، وبين هؤلاء الذين يجاهدون لإقامة مجتمع حر ومفتوح - هذا التعارض الجوهرى، بالإضافة إلى الخلاف بين أنصار التكامل مع الحضارة الإنسانية المعاصرة، أو الانعزال أو البعد عنها، هو جوهر "المشكلة الإسرائيلية". وفى رأى تامارين أن حل هذه المشكلة من يهدد فقط الملامح الأساسية الاجتماعية والحضارية للدولة، ولكن أهم من ذلك سيكون حاسما فى تحديد مستقبلها السياسى.

فى ضوء هذا التأصيل "للمشكلة الإسرائيلية" نستطيع أن نفهم تخوف عدد من القادة الإسرائيليين من السلام مع العرب، هذا التخوف الذى يصوغونه أحيانا - ويا للمفارقة - فى عبارة غريبة هى "مخاطر السلام على إسرائيل" ما هى هذه المخاطر على وجه التحديد؟ هناك أولا خطر تفكك الدولة اليهودية "النقية"!، وذلك أنه إذا فتحت الحدود مع البلاد العربية - إذا تصورنا "سيناريو" التسوية الشاملة، فى نظرهم، بما تتضمنه من ممارسة علاقات عادية بين إسرائيل والبلاد العربية - فمن يضمن بقاء النقاء اليهودى كما هو؟ وهناك أيضا خطر انخفاض معدل تدفق رءوس الأموال اليهودية على إسرائيل، التى ظلت لفترة طويلة تعتمد على شعار إسرائيل فى خطر، وذلك لإثاره الوعى الصهيونى الكامن لدى أفراد الجاليات اليهودية فى الغرب. غير أن هناك الخطر الأكثر جسامة، والذى لا يعترف به قادة إسرائيل صراحة، وهو أن السلام الحقيقى من شانه أن تشتد بصورة خطيرة حدة الصراعات الاجتماعية والسلالية بين الفئات الإسرائيلية المتصارعة. ومن ناحية أخرى سيؤدى

السلام إلى فض حصار العزلة الذى فرضته الدولة الإسرائيلية على الإسرائيليين، خصوصا على الشباب منهم، مما من شانه أن يؤدى إلى تساقط الأوهام التى زرعتها فى أذهانهم، من خلال عمليات التنشئة الاجتماعية المختلفة، عن العرب كجنس وشعب وحضارة وتاريخ، وكذلك عن الشعوب الأخرى.

ومن هنا يمكن القول إن حل "المشكلة الإسرائيلية" على مستوى الأيديولوجية، هو الذى سيحدد إمكانيات إسرائيل فى السير نحو السلام الحقيقى. وبذلك فإسرائيل فى مفترق الطرق: هل تندمج فى الحضارة الإنسانية المعاصرة، بكل ما يتضمنه ذلك من فتح حدودها المادية والمعنوية من خلال ممارسة علاقات سوية مع باقى الشعوب، ومع الشعب العربى على وجه الخصوص، أم ستظل منعزلة ومنغلقة داخل قوقعتها الجيتوية المحصنة اعتمادا على آلتها الحربية المتضخمة!

أن الاتجاه الانغلاقى بالمعنى الحضارى، والحربى بالمعنى السياسى، والذى ساد منذ إنشاء دولة إسرائيل، وبلغ الذروة بعد حرب يونيو ١٩٦٧، أصيب بضربة قاصمة فى حرب أكتوبر التى أسهمت فى كشف الوعى الزائف لدى الإسرائيليين.

خلاصة ذلك كله، أن التسوية الحقيقية والشاملة، ليست مجرد اتفاق سياسى، بل هى تقتضى فى الواقع تغييرا جوهريا فى الإطار الأيديولوجى وفى البناء الاجتماعى لكل طرف من طرفى الصراع. وفى رأينا أن الطرف العربى قد تغير بصورة إيجابية منذ حرب يونيو ٦٧ مما كشفت عنه حرب أكتوبر ومانتج عنها من مبادرات. ترى هل يمكن أن يتحقق ذلك بالنسبة للطرف الإسرائيلى فى المستقبل القريب؟!

١٦ - الرؤية الصهيونية لمستقبل إسرائيل(*)

لا يمكن فى الواقع أن القول هناك رؤية صهيونية واحدة لمستقبل إسرائيل، فقد تعددت هذه الرؤى بتعدد المهام والأدوار التى رأى العقل الصهيونى أن على إسرائيل أن تقوم بها. فمن ناحية اتجه بعض المفكرين الصهيونيين إلى أن تكون إسرائيل موطنا لكل يهود العالم بالمعنى المادى للكلمة، أى جمع شتات يهود العالم جميعا على "أرض إسرائيل"، ومن ناحية أخرى اتجه البعض الآخر - ولعل أبرزهم كان الفيلسوف اليهودى آحاد هاعام - إلى أنه ينبغى أن تكون إسرائيل فى المقام الأول موطنا روحيا لليهود فى فلسطين، يسهم فى تزويدهم بالقيم الحضارية، ويساعد فى تدعيم استمراريتهم التاريخية، لا أن تكون دولة متجسدة بالفعل. وإن لم يرفض هذا الفريق احتمال إنشاء دولة يهودية مستقلة فى النهاية. وأخيرا نجد فى الحقبة الأخيرة - وخاصة بعد إنشاء إسرائيل - تركيزا على تصور محدد لدور إسرائيل فى المنطقة يقوم على أساس كونها تمثل "الطليعة" الحضارية للغرب، والدولة المتقدمة صناعيا وتكنولوجيا، والتى تستطيع أن تقود التطور الحضارى فى هذه المنطقة من العالم.

وقد تكفلت الممارسة الواقعية بتكذيب التصور الصهيونى الأول. فقد فشلت إسرائيل فى أن تكون قطبا يجذب كل يهود العالم. وتعانى إسرائيل فى الوقت الراهن معاناة حقيقية من انخفاض معدلات تدفق المهاجرين إليها. والحقيقة أن القلق

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٥/٦/١٥.

الإسرائيلى بهذا الصدد له ما يبرره، ليس من وجهة نظر اقتصادية محضة، بل من وجهة نظر نفسية أساسا.

ذلك أن إسرائيل هى نموذج حى للاستعمار الاستيطانى، ومن المعروف تاريخيا بصدد تجارب الاستعمار الاستيطانى أنه عادة ما يتسم التشكيل النفسى لأعضاء الجماعات الاستعمارية المستوطنة بسمات نوعية خاصة، من أبرزها القلق إزاء المستقبل والمصير، خصوصا فى مراحل تصاعد وعى أعضاء المجتمع الأصيل، ونمو المقاومة والثورة. ومن هنا فتدفق المهاجرين إلى إسرائيل يمثل فى الحقيقة علامة رمزية لها دلالتها فى الوجدان الإسرائيلى، لأن استمرار التدفق، يشير إلى إمكانية استمرارية الدولة، فى حين أن الانقطاع يترك الإحساس بقرب النهاية، نتيجة لانخفاض معدلات الخصوبة لدى الجماعات الإسرائيلية، إذا ما قورنت بتلك السائدة لدى الجماعات العربية الفلسطينية.

ومن ناحية أخرى، لم يصدق التصور الثانى الذى كان يرجو أن تكون إسرائيل موطنا روحيا لليهود فى العالم، ومنبعا لا ينفد للتجدد الحضارى. ذلك أن الدولة الإسرائيلية قد أنشئت بالعنف والقوة، ولم يعد - بعد ذلك - مجال للحديث عن الدور الروحى لدولة إسرائيل، وخصوصا إذا ما نظرنا إلى الخلل الاجتماعى الجسيم فى المجتمع الإسرائيلى فى الوقت الراهن، بالإضافة إلى انهيار القيم، وظهور أزمة أخلاقية واسعة المدى، كشفت عنها سيادة صور الانحراف والجريمة بين الطبقات العليا والحاكمة.

ولعل التصور الثالث المتعلق بالتفوق التكنولوجى لإسرائيل وقدرتها على مساعدة العرب للخروج من دائرة التخلف هو الذى يتعلق بنا مباشرة، بحكم أنه يتضمن تصورا خاصا لعلاقة إسرائيل بالعالم العربى. فى هذا التصور بالذات تكمن كل العقد الإسرائيلية المركبة، بما فيها من عنصرية، وادعاء، وتمركز حول الذات، وتجاهل للواقع.

فى ضوء هذا التصور الذى يقوم على مسلمة سادت الفكر الإسرائيلى على وجه الخصوص من يونيو ٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣ مفادها أن قوة إسرائيل لا تقهر، وإن العجز العربى، ظاهرة ستستمر آجالا من السنين، صيغت كل السياسات الإسرائيلية، العسكرية والاقتصادية والسياسية. فى المجال العسكرى سادت القناعة بأن إسرائيل

لن تتخلى عن الأراضى المحتلة. فى المجال الاقتصادى ابتدعت سياسة "الجسور المفتوحة" بين إسرائيل والعالم العربى، وشرع فى إدماج عرب الضفة الغربية فى الاقتصاد الإسرائيلى، فى المجال السياسى استقر الرأى على أن حالة "اللاحرب واللاسلم" هى السياسة المثلى التى تضمن مصالح إسرائيل.

غير أنه فى غمار النشوة الإسرائيلية العارمة بتفوق إسرائيل الساحق، ظهر صوت ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودى العالمى عام ١٩٧٠ بمقال شهير عنوانه "مستقبل إسرائيل" محذرا السلطات الإسرائيلية من الركون إلى الوهم الخادع الخاص بأن العجز العربى سيستمر إلى الأبد. واستفاد جولدمان من بعده عن المسرح السياسى الفعلى فى إسرائيل بما يحفل به من صراعات وتحالفات أدت فى كثير من الأحيان بالساسة الإسرائيليين إلى عدم رؤية الطرف العربى فى حجمه الحقيقى، وكذلك من صلاته العالمية المتعددة، فى التوصل إلى نتيجة بالغة الأهمية، سرعان ما أثبتت صحتها حرب أكتوبر. وتتمثل هذه النتيجة التى استخلصها فى ضوء تأمله لتاريخ العرب، أن العالم العربى الذى خضع لضغوط التخلف آجالا من السنين، يصحو الآن من سباته، ويندفع بقوة فى مجال التنمية، مما يجعل مستقبل إسرائيل محفوفا بالمخاطر، وخصوصا إذا سقطت معادلة الكيف الإسرائيلى والكم العربى، ومن هنا دعا جولدمان ساسة إسرائيل إلى اتباع سياسة متوازنة مع العرب، ولو أدى ذلك إلى التنازل عن الأراضى العربية المحتلة. غير أن مبادرة جولدمان انتقدت بشدة فى إسرائيل من أوساط متعددة، لم تكن مستعدة فى هذا الوقت لأن تتصور أن دول المواجهة العربية قادرة على الحركة.

وحين اندلعت حرب أكتوبر، وتساقطت الدعاوى الإسرائيلية عن الهيمنة الإسرائيلية الكاملة، وعن العجز العربى المطلق، برز جولدمان مرة أخرى، مذكرا الإسرائيليين بنبوءاته السابقة التى تحقت فى أكتوبر. وركز جولدمان على عامل الزمن فى تأثيره على مصير التجربة الإسرائيلية.

ومن الجدير بالذكر أن موضوع الزمن وتأثيره على مستقبل إسرائيل، يقع فى صميم دائرة التفكير الإسرائيلية، ولعل ذلك أيضا من بين السمات النفسية لأعضاء الجماعات الاستيطانية التى أشرنا إلى بعضها من قبل. وإذا كان من المنطقى - فى أى مجمع إنسانى - أن يشغل موضوع المستقبل أعضاء المجتمع، إلا أنه بالنسبة

للمجتمعات الاستيطانية على وجه الخصوص يمثل هذا الموضوع محورا رئيسيا من محاور اهتماماتها.

ونجد فى العقل الإسرائيلى ثلاثة اتجاهات إزاء موضوع الزمن وتأثيره على مستقبل إسرائيل: الاتجاه الأول مبناه أن الزمن هو لصالح إسرائيل، وينطلق أغلب الزعماء الإسرائيليين من هذا التصور.

والاتجاه الثانى هو أن الزمن لصالح من يستغله ويحسن استثماره. أما الاتجاه الثالث والذى يتسم فى الواقع بانطلاقه من الفهم التاريخى للصراع العربى الإسرائيلى فهو أن الزمن يعمل لصالح العرب، أو كما يقول جولدمان - أبرز ممثلى هذا الاتجاه - يعمل لغير صالح إسرائيل. ولعل هذا هو الذى أدى إلى أن تطلق عليه الصحافة الإسرائيلية "المتشائم" "ونبى السوء".

ويؤسس هذا الاتجاه تصوره - بالإضافة إلى تزايد قوة العرب وفعاليتهم - على عدة عوامل أخرى، أبرزها اتساع روح الكراهية تجاه إسرائيل بين أوساط الأجيال العربية المتلاحقة فى حال عدم التوصل إلى سلام نتيجة اتساع الهوة بين الطرفين المتنازعين. وفيما يتعلق بالبعد الدولى الذى أحسنت إسرائيل استثماره فى الماضى، وخصوصا اللعب على وتر الإحساس بالذنب لدى الرأى العام الغربى بصدد المآسى التى ارتكبها هتلر فى حق اليهود، فإن مقدرة إسرائيل فى الاعتماد عليه آذنت بالزوال. فقد نشأت أجيال أوربية جديدة لا علاقة لها بما حدث فى الحرب العالمية الثانية، وبالتالى تساقطت "لعبة الإحساس بالذنب" بالتقادم! غير أن إحساس جولدمان المرهف بالتاريخ - بالرغم من وقوعه هو أيضا أسير تناقضاته كصهيونى عريق - جعله يربط بين مستقبل إسرائيل وبين مستقبل الغرب الذى كان هو السند الحقيقى للدولة الإسرائيلية. ويرى جولدمان أن الغرب بدأ يدخل فى مرحلة الضعف الاقتصادى، بل إنه ليعمم الحديث عما يسميه "أزمة الغرب"، وفى نفس الوقت تزداد قوة البلاد الاشتراكية، وتنمو فعاليات العالم الثالث، وخصوصا الدول البترولية - وأغلبها عربية - ودول المواد الخام.

ومن هنا ينصح جولدمان ساسة إسرائيل بانتهازية واضحة - ليست غريبة على تقاليد الحركة الصهيونية فى كل تاريخها - بمحاولة تدعيم علاقات إسرائيل بكل الطرق مع الاتحاد السوفيتى والعالم الاشتراكى، تحسبا ليوم ينتهى فيه النفوذ

الغربى، ويصبح ارتباط إسرائيل بالعرب غرماً لا غنماً، باعتبار أن اتباع سياسة سليمة مع الغرب هو الضمان الوحيد لمستقبل إسرائيل.

غير أن هناك من بين الساسة الإسرائيليين من يرون أن السلام مع العرب لن يكون هو نهاية الصراع العربى الإسرائيلى، بقدر ما هو بداية نهاية التجربة الصهيونية فى إسرائيل.

١٧ - حرب أكتوبر:
الدلالة التاريخية والأبعاد الاجتماعية(*)

قرر الرئيس أنور السادات فى خطابه أمام مجلس الشعب فى ١٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ "أن التاريخ العسكرى سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس أمام عملية السادس من أكتوبر". والحقيقة أن حرب أكتوبر لن تكون موضوعا للبحث فقط أمام المحللين العسكريين، ولكنها - بالقطع - ستتعرض لبحوث متعددة من قبل العلماء الاجتماعيين، الذين يعرفون قبل غيرهم أن الحرب ليست مجرد عملية عسكرية خالصة، بقدر ما هى تعبير عن شخصية قومية محددة، تعكس السمات النفسية الاجتماعية لشعب ما، كما أنه يؤثر فى مجراها وفى نوعيتها طبيعة البناء الاجتماعى والتنظيم السياسى لمجتمع معين.

لقد استطاع الرئيس السادات - وسط المخاطر المحدقة، والشدائد المحيطة، والضغوط السياسية والعسكرية العنيفة - بقراره التاريخى بالاقتحام والعبور، أن يقضى بضربة واحدة على سلسلة الحتمية التى كان من شان الخضوع لها الاستسلام لإرادة إسرائيل المطلقة. لقد كان قرارا أخذ مسئوليته السادات وحده ولكنه كان تعبيرا شديد الصدق عن إرادة أمة رفضت الاستسلام بعد أن أيقنت الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧.

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٥/١٠/١٢.

ومن هنا يمكن القول، إن حرب أكتوبر، تتجاوز بكثير إنجازاتها العسكرية، وآثارها السياسية، سواء على صعيد الصراع العربى الإسرائيلى، أو على الصعيد الدولى. ذلك لأن الصراع العربى الإسرائيلى ليس مجرد صراع عسكرى بسيط على الحدود، بقدر ما هو صراع حضارى ضار، حاولت فيه إسرائيل بكل طاقاتها إثبات عجز الشعب العربى، وتشويه شخصيته القومية. لقد أسقطت حرب أكتوبر المجيدة النظريات العنصرية الغربية - الإسرائيلية التى زعمت أن العرب بارعون فى الكلام، عاجزون عن الفعل، غير أنه أهم من ذلك كله بروز ما يمكن أن نطلق عليه الدلالة التاريخية لحرب أكتوبر. ونعنى بذلك على وجه التحديد، أن حرب أكتوبر أثبتت قدرة الشعب العربى على تحدى النموذج الصهيونى الغربى الجذور الذى حاول خلال عشرات السنين أن يرسخ فى الأذهان تفوقه الحضارى، وقوته العسكرية الخارقة. لقد كانت هذه أول مرة فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى الحافل بالإخفاقات العربية، يتم فيها التصدى بنجاح للمشروع الصهيونى فى المجال العسكرى الذى احتكر التفوق فيه أمدا طويلا من الزمان.

الدلالة التاريخية لحرب أكتوبر:

لا يمكن تقدير الدلالة التاريخية لحرب أكتوبر بغير وضعها فى السياق التاريخى لتطور المواجهة الصهيونية - العربية من جانب، ولتصاعد الصراع بين الاستعمار الغربى والعالم العربى من جانب آخر. وإذا كان المشروع الصهيونى قد دعمته القوى الاستعمارية الغربية منذ البداية، إلا أنه استطاع بالرغم من ذلك، وعبر كل مراحله، أن يحتفظ لنفسه بقدر من حرية الحركة النسبية، حتى يستطيع تحقيق أهدافه النوعية الخاصة حتى لو تناقضت فى بعض المراحل التاريخية مع أهداف الاستعمار الغربى. وتظهر دلالة أكتوبر فى المواجهة العربية الإسرائيلية لو وضعناها فى سياق تصنيف مراحل تاريخ الغزوة الصهيونية فى العالم العربى. فوفقا لما يراه بعض الباحثين العرب تنقسم هذه المراحل إلى أربع. المرحلة الأولى هى مرحلة التسلل وتمتد بين عامى ١٨٨٢ و١٩١٧. فقد جاءت إلى فلسطين موجة الهجرة الصهيونية الأولى عام ١٨٨٢، ولنلاحظ أنه أيضا العام الذى بدأ فيه الاحتلال البريطانى لمصر. فى هذه المرحلة أخذ التهجير اليهودى صورة التسلل

لأن الدولة العثمانية لم تسمح به رسميا، واستمرت المرحلة إلى أن احتلت بريطانيا فلسطين ودخل اللنبى القدس أواخر عام ١٩١٧.

والمرحلة الثانية هى مرحلة التغلغل وتمتد ما بين عامى ١٩١٧ و١٩٤٨. وأبرز ما فى هذه المرحلة هو صدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧، واحتلال بريطانيا لفلسطين فى ديسمبر ١٩١٧. وعبر ثلاثين عاما استغرقتها هذه المرحلة نجح التحالف الصهيونى الاستعمارى فى تهجير مئات الألوف من يهود أوربا إلى فلسطين. ومع بداية هذه المرحلة أكمل الاستعمار الأوربى سيطرته على العالم العربى، وبدأ النضال العربى يجابه قوى الاحتلال فى أجزاء عديدة من الوطن العربى. وتأتى المرحلة الثالثة ونعنى مرحلة الغزو ما بين عامى ١٩٤٨ و١٩٦٧. وهذه هى المرحلة التى تجسد فيها المشروع الصهيونى حقيقة كاملة، بدأت بإعلان قيام الدولة بعد انسحاب الانتداب البريطانى من فلسطين عام ١٩٤٨، وبعد تواطنه لتسليم كثير من الأراضى الفلسطينية لليهود. ونجح المشروع الصهيونى باعتباره استعمارا استيطانيا فى طرد مليون فلسطينى من أرضهم وإحلال مستوطنين يهود محلهم بلغ عددهم حتى حرب ١٩٦٧، مليونى مهاجر. وخلال هذه الفترة ساهمت إسرائيل عام ١٩٥٦ فى العدوان الثلاثى، وكأنها كانت تجرب خططها فى العدوان والتوسع، فاحتلت قطاع غزة وشبه جزيرة سيناء ولكنها اضطرت للانسحاب منها. وبالعدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧ تبدأ مرحلة التوسع التى انتهت بحرب أكتوبر عام ١٩٧٣. فى هذه المرحلة بالذات كشف المشروع الصهيونى عن نفسه القناع، وبدلا من تركيز الدعاية الإسرائيلية فى المرحلة السابقة على إسرائيل الدولة الصغيرة التى تخشى من أن يبتلعها العرب، إذا بها فى هذه المرحلة تمارس وتنفذ مخطط إنشاء دولة "إسرائيل الكبرى"، وقد ساعدها على ذلك احتلالها لمساحات شاسعة من مصر وسوريا. وعملت إسرائيل على تهجير مزيد من يهود العالم إلى الأراضى العربية المحتلة، وإقامة المستوطنات لهم، واستعدت إسرائيل لضم الأراضى العربية المحتلة لها نهائيا متعللة بأن الحدود التى رسمتها هى "الحدود التاريخية" لإسرائيل. وكان مقدرا أن يتم تنفيذ كل هذه المخططات التوسعية حتى فاجأت حرب أكتوبر إسرائيل والعالم.

وهكذا يمكن القول إن الدلالة التاريخية الخطيرة لحرب أكتوبر لا تكمن فحسب فى أنها أثبتت القدرة العصرية للشعب العربى على التعامل مع التكنولوجيا الحديثة،

ولا فى كونها تعبر عن الإرادة القومية التى قبلت وخاطرت بتحدى النموذج الصهيونى الغربى فى القوة العسكرية، ولكن فى أنها أحدثت قطعا نهائيا فى مسار خطط التوسع الصهيونى فى العالم العربى. ومن هنا يصدق تكييف بعض الباحثين لحرب أكتوبر بأنها - بالمعنى التاريخى للكلمة - تمثل بداية انحسار الغزوة الصهيونية للعالم العربى. ولا يعنى ذلك أن الخطر الإسرائيلى سيتضاءل، على العكس بل إنه سيتعاظم فى المراحل القادمة. ويستدعى هذا تعبئة قومية شاملة فى العالم العربى، لأن إسرائيل ولو أنها تجربة استعمارية تسير ضد منطق العصر والتاريخ، ألا أنها ستستميت دفاعا عن بقائها، ولن تتورع عن اصطناع أى أسلوب فى سبيل ذلك. من هنا فإن المسئولية الملقاة على العالم العربى - بمختلف أنظمته - جد جسيمة. فليست القوة العسكرية - رغم أهميتها - هى السبيل الوحيد لدرء الخطر، ولكن قبل ذلك يأتى أهمية التطوير الاجتماعى الثورى للمجتمع العربى، ولوشئنا أن نعمم العبارة، لقلنا ضرورة تحقيق النهضة الحضارية الشاملة. من هنا تلتحم الدلالة التاريخية للحرب بأبعادها الاجتماعية.

الأبعاد الاجتماعية لحرب أكتوبر:

ما هى الأبعاد الاجتماعية لحرب أكتوبر؟ وكيف يمكن استخلاص الدروس المستفادة منها؟ إن هذه الحرب، لا تمثل فقط - بالنسبة للشعب المصرى - تجمع الإرادة القومية واندفاعها نحو هدف محدد هو مجابهة الاحتلال الإسرائيلى ودفع العدوان الصهيونى، ولكنها قبل ذلك تمثل نجاحا خارقا فى التنظيم العسكرى: يعكس نضجا لاشك فيه فى التنظيم الاجتماعى. فبالرغم من كل ما قيل عن تخلف المجتمع العربى - وبعض ما قيل حقيقة إذا أبعدت عنه المبالغات - فقد استطاع المجتمع المصرى فى مرحلة زمنية لا تتجاوز السنوات الست، أن يستوعب صدمة الهزيمة الساحقة فى يونيو ١٩٦٧، وأن يعيد بتركيز شديد تجديد قواته المسلحة، وأن يهب نفسه للإعداد للحرب، متبعا فى ذلك أحدث الوسائل والأساليب. وحرب أكتوبر التى أذهلت العالم بنتائجها العسكرية والسياسية والاقتصادية، تستحق منا وقفة متأنية لنتأمل - من وجهة النظر الاجتماعية - أبعادها الحقيقية وما تشير إليه.

لقد كشفت إنجازات الحرب عن مجموعة متماسكة من القيم والمؤشرات والمبادئ

من أبرزها:

- أهمية التخطيط العلمى المقتن الذى يضع فى اعتباره كل الاحتمالات.
- أثر الجدية فى السلوك - التى تمثلت فى التدريب الشاق المتواصل للقوات المسلحة - فى تحقيق معدلات عالية فى الإنجاز.
- القدرة الخارقة للمواطن المصرى على التكيف مع أعقد المبتكرات التكنولوجية.
- الجسارة فى مواجهة المجهول والقدرة على تحمل المخاطر.
- أثر الجماعية فى التخطيط والتنفيذ، وسيادة روح الفريق، التى كانت وراء كل الانتصارات العسكرية.
- رشد السلوك الجماعى للجماهير، الذى تمثل فى انضباطها وانتظامها، ووقوفها وراء قواتها المسلحة.

لو تأملنا بعمق القيم والمؤشرات والظواهر السابقة لاستطعنا القول إن بعضها قد أسقط إلى الأبد الدعاوى العنصرية عن عجز الإنسان العربى وتخلفه، وبعضها الآخر قد كشف زيف ما وصفت به الشخصية القومية العربية من فردية، وهروب من الواقع، وعجز عن مواجهة المخاطر، وممارسة الكلام بدلا من ممارسة الفعل. غير أنه أخطر من ذلك كله نستطيع أن نكتشف أن "تجربة أكتوبر" تبدو غير متناسقة تماما مع صور الخلل الاجتماعى فى المجتمع المصرى. فمن السهولة بمكان، أن نلاحظ سيادة روح السلبية والاستهتار فى قطاعات عديدة، ومن الواضح أيضا عجز عديد من المؤسسات الصناعية والتجارية والإدارية عن تنظيم أعمالها بطريقة عصرية رشيدة، مما يترتب عليه ضياع للمال العام، وانخفاض فى الإنتاجية، وتحميل فئات الشعب المختلفة متاعب شتى للحصول على ما تحتاجه من سلع أو خدمات. باختصار شديد، فى مقابل العصرية فى تجربة أكتوبر نجد التخلف، وفى مقابل الانضباط نجد التسيب، وفى مقابل ارتفاع معدلات الإنجاز، نجد الفشل فى التخطيط والتنفيذ معا.

ترى ما الذى يفسر هذا التناقض من وجهة النظر الاجتماعية؟ هل يرد نجاح تجربة أكتوبر إلى السمات النوعية الخاصة للتنظيم العسكرى بما يفرضه من انضباط حديدى وتحدد صور الحوافز والروادع؟ هل يرجع الإنجاز الباهر فى أكتوبر، إلى أن الأمة المصرية، اعتبرت التصدى للاحتلال الإسرائيلى هو

المشروع القومى الأول الذى ينبغى أن تعطى له كل الطاقات، وتبذل فى سبيله كل الجهود؟ هل ترجع الفدائية النادرة فى سلوك المقاتل المصرى، إلى التراث النضالى المصرى العريق الذى يظل كامنا إلى أن ينكشف عنه الستار، إذا ما توافرت له الظروف التنظيمية المهيئة؟

كل هذه تساؤلات، لا أزعم أننى امتلك أجوبتها. غير أننى أدعو إلى الدراسة العلمية الاجتماعية الشاملة "لتجربة أكتوبر".

وهذه الدراسة يمكن أن تكون مدخلا ضروريا لنا، ونحن على أعتاب المرحلة الخامسة للمجابهة العربية الإسرائيلية، التى ليس شرطا أن تتقابل فيها الأمة العربية مع التجمع الإسرائيلى فى ساحة القتال، بل لقد نجد أنفسنا فى ساحة التنمية الاجتماعية بالمعنى الضيق، أو فى ميدان النهضة الحضارية بالمعنى الواسع. وحينئذ لن يجدينا مجرد التغنى بأصالتنا الماضية، بل إن المحك الحقيقى سيكون قدرتنا على تكرار "نموذج أكتوبر" فى الميدان الاجتماعى بكل ما يتضمنه من عصرية فى التخطيط والتنفيذ، ومن ثورية فى مجال السلوك السياسى والاجتماعى.

١٨ - التنبؤ الأمريكى بحرب أكتوبر
بين النظرة الجامدة والقياس الخاطئ(*)

فى دراسة سابقة لنا عن حرب أكتوبر: الدلالة التاريخية والأبعاد الاجتماعية، اقتبسنا ما قرره الرئيس السادات من "أن التاريخ العسكرى سوف يتوقف طويلا بالفحص والدرس أمام عملية السادس من أكتوبر". وقررنا أن حرب أكتوبر لن تكون موضوعا للبحث فقط أمام المحللين العسكريين، ولكنها - بالقطع - ستتعرض لبحوث متعددة من قبل العلماء الاجتماعيين.

وقد أتيح لنا أن نشهد مصداق هذا القول فى المؤتمر الدولى للدراسات السياسية الذى عقد فى تورنتو بكندا فى مارس الماضى، حيث قدمت عدة بحوث عن الجوانب النفسية الاجتماعية فى حرب أكتوبر. ومن أبرز هذه البحوث دراسة تجريدية قامت بها مجموعة من الباحثين الأمريكيين هم الأساتذة لوتهام وترمبل وشابيرو من الجامعة الأمريكية فى نيويورك. وموضوع هذه الدراسة الهامة هو كيف فشل خبراء الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية فى التنبؤ بحرب أكتوبر.

والحقيقة أن فشل هؤلاء الخبراء فى التنبؤ بحرب أكتوبر يوضح بجلاء الأهمية القصوى لعمليات التفكير المتضمنة فى صنع القرارات الخاصة بالسياسة الخارجية.

(*) جريدة الأهرام، ١٩٧٦/٤/٢٣.

فقد أثرت الاعتقادات المسبقة للمسئولين الأمريكيين عن العرب بأنهم أضعف عسكريا من أن يقوموا بمغامرة الهجوم على إسرائيل، فى التقدير الصحيح لنوايا العرب. يؤكد ذلك أنه فى ربيع وصيف عام ١٩٧٣ كانت مجموعة المعتقدات السائدة لدى مستشارى السياسة الخارجية الأمريكيين، وكذلك خبراتهم السابقة وتوقعاتهم للتطورات فى منطقة الشرق الأوسط، تتجه وجهة تؤدى إلى نفى أى احتمال لهجوم عربى.

وفى تعليق كيسنجر على فشل أجهزة الخارجية الأمريكية فى التنبؤ بالحرب قرر "أن الحقائق لا تشرح نفسها، وأن المفاهيم التى يعتنقها الشخص تحدد إلى درجة كبيرة نوع التفسيرات التى تعطى للوقائع التى يتم جمعها".

وأضاف كيسنجر مفسرا هذا الفشل الذريع بأن المعلومات التى تلقاها عن الموقف والتى سبقت الحرب كانت كما يلى: فى الأسبوع السابق على الحرب كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعرف بوجود حشود ضخمة من القوات السورية والمصرية، وفسرته المخابرات الأمريكية وكذلك المخابرات الإسرائيلية بأنها عبارة عن مناورات المصريين والسوريين العادية الفاشلة. ولقد سئلت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية فى ثلاث مناسبات منفصلة فى الأسبوع السابق على الحرب، لكى يعطوا تقديرات لما يمكن أن يحدث، وقد أجمعنا على أنه لا توجد أدنى فرصة للحرب.

تساؤلات عن أسباب الفشل:

والسؤال الرئيسى الذى تثيره الدراسة هو: ما هى أسباب الفشل بالتنبؤ بالحرب؟

هل كان ذلك نتيجة لنقص المعلومات أم فى عدم القدرة على إعطائها الدلالة الحقيقية؟

تحاول الدراسة - مستخدمة فى ذلك الأفكار الرئيسية فى النظرية المعرفية. وبناء على عدد من المقابلات التى أجريت مع مستشارى السياسة الخارجية الأمريكيين قبل الحرب وبعدها - أن تفسر الفشل على أساس أن صانع القرار حينما يتبنى عددا من المعتقدات الأساسية عن شخصية وقدرات وسلوك طرف من الأطراف الدولية،

قد لا يستطيع إذا تجمدت معتقداته، أن يلائم بينها وبين الوقائع والبيانات التى ترد إليه، والتى قد تكون متناقضة مع هذه المعتقدات فالأسهل بالنسبة إليه أن يحور هذه البيانات والوقائع حتى تتلاءم مع الإطار الذهنى له بدلا من أن يتخلى عن إطاره الذهنى الثابت فى سبيل فهم الوقائع الفهم الصحيح. فعلى سبيل المثال إذا كانت المعتقدات السائدة لدى مستشارى الخارجية الأمريكية أن العرب أضعف جدا من إسرائيل، وأنهم لا يجرأون على شن حرب هجومية عليها، فإنه حينما ترد بيانات عن الحشود المصرية السورية فى الأسبوع السابق على الحرب، فإنها تفسر بأنها مناورات عادية لا تمثل فى ذاتها خطر نشوب الحرب.

وقع الحرب على المستشارين الأمريكيين:

تبين من واقع الدراسة أن الدهشة كانت هى الاستجابة الأولية للحرب، بالإضافة إلى توقع النصر السريع لإسرائيل يكشف عن هذا تعبير أحد هؤلاء المستشارين "كانت الحرب صدمة لنا، وتنبأنا أن الموقف سينقلب كلية فى خلال: أسبوع لصالح الإسرائيليين" وكان موضوع الدهشة يتضمن ثلاث أفكار سائدة متكررة:

الدهشة أولا من فشل المخابرات الأمريكية. صحيح كانت كلالدلائل العسكرية عن الاتجاه إلى الحرب موجودة، غير أن المعتقدات المسبقة عن الإمكانيات العربية وضعفها لم تسمح لها بالتقدير السليم لإمكانية الحرب.

ومن ناحية أخرى كانت هناك دهشة لفشل المخابرات الإسرائيلية بالتنبؤ بالحرب. وقد عبر أحد الرسميين عن مشاعره جيداً حينما قال "فى يوم الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ حدثت عملية تبادل للمعلومات فى مجال المخابرات بيننا وبين إسرائيل، وكانت سجلات الإسرائيليين جيدة جدا، وتشير إلى عدم احتمال وقوع أى هجوم".

وأخيرا، كانت هناك دهشة لما أطلق عليه ثلاثة على الأقل من المستشارين من عدم التعقل العربى، الذى يدفع بمصر وسوريا إلى شن حرب على إسرائيل.

وقد عبر أحد هؤلاء المستشارين بذكاء عن مشكلة عدم فهم العقلية الغربية للعقلية العربية حين قرر أن "هذه مشكلة الغربيين الذين يتعاملون مع العرب. فنحن - خاطئين - نطبق معايير منطقية بحتة، ومن خلالها اعتقدنا أنه من غير المعقول، أن يهاجم العرب. وكذلك ارتكبت المخابرات الإسرائيلية نفس الخطأ" ومن ناحية أخرى

كانت الاستجابة الثانية المبدئية توقع نصر إسرائيلى سريع. وقد بنيت هذ الاستجابة على إدراك أن الإسرائيليين لا يقهرون فى مواجهة العرب العاجزين. وقد لخص أحد المستشارين هذا الإدراك بقوله "قدرنا أن الحرب ستكون قصيرة، وأن الإسرائيليين سيأخذون نصيبهم من الغنيمة وأن المصريين لن يستطيعوا عبور القناة".

لقد كان هذا الإدراك فى الواقع قياسا تاريخيا خاطئا على حرب ١٩٦٧. وكأن حركة التاريخ قد تجمدت عند الهزيمة العربية الجسيمة، حيث ظهر مدى التفوق العسكرى الإسرائيلى، ومدى الضعف العربى.

وتتساءل الدراسة: ما هى المعتقدات التى هزتها حرب أكتوبر لدى هؤلاء المستشارين؟

وتجيب أنهما معتقدان أساسيان: الأول منهما، أن قوة إسرائيل العسكرية كفيلة بضمان الاستقرار فى المنطقة، والثانى فعالية المبادرات الأمريكية للسلام فى المنطقة.

الإرادة القومية العربية والإدراك الغربى:

الواقع أن هذه الدراسة تثير موضوعات تستحق أن نقف أمامها متأملين وباحثين. ولعل أول ما يلفت النظر هو رد الفعل العنيف إزاء فشل الأجهزة الأمريكية فى التنبؤ بحرب أكتوبر، هذا الفشل الذى تصفه الدراسة بأنه أسوأ فشل من الهجوم على بيرل هاربر فى الحرب العالمية الثانية ذلك أن تحرك الأجهزة الأمريكية وكذلك ترسانة البحوث العلمية الأمريكية لبحث أسباب هذا الفشل، ليكشف فى حد ذاته عن تبنى العقلية الأمريكية السائدة لمسلمة زائفة فى ذاتها مؤداها، أن فى قدرة الولايات المتحدة الأمريكية أن تهيمن على حركة التاريخ، من خلال الاعتماد على تكنولوجيتها العسكرية والعلمية المتطورة! مع أن الفشل الذريع الذى لاقته فى فيتنام، كان ينبغى أن يجعل هذا الاعتقاد الموهوم ينهار من أساسه. وقد عبر ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى السابق عن هذا المعنى بمنتهى الدقة فى أحد كتبه التى عبرت عن النقد الذاتى للسياسة الأمريكية، أن العقل الإلكترونى الأمريكى - أثناء حرب فيتنام - خزن بكل أنواع البيانات المتصورة عن الفيتناميين غير أنه

أغفل عاملا واحدا بالغ الأهمية، هو الإرادة القومية للشعب الفيتنامى الذى كان مصمما على تحرير بلاده من الاحتلال الأجنبى.

ونحن هنا فى مجال الصراع العربى الإسرائيلى نجابه مع الغرب مشكلة مماثلة. فالعقلية الغربية تحاول أن تطبق ما تراه أنه القواعد المنطقية المعقولة لفهم سلوك العرب. غير أن هذ القواعد المنطقية - التى كانت تقر بالعجز النهائى للعرب وبالتفوق الدائم لإسرائيل - قد فشلت فى حرب أكتوبر، لأن العرب - فى تقدير العقل الغربى - قد قاموا بعمل لا عقلانى حينما شنوا حرب أكتوبر ضد إسرائيل.

ومعنى ذلك أننا بإزاء حالة حقيقية من حالات أزمة الفهم بين عقليتين: العقلية الغربية والعقلية العربية. وهذه الأزمة ترد فى الواقع إلى النظريات المتحيزة التى روجت فى الدوائر الغربية عن الشخصية العربية. غير أنه فى تقديرنا أن دراسة موضوعية لهذه الشخصية لابد أن تثبت أن الحس التاريخى المرهف لدى العرب، بالإضافة إلى كبريائهم القومى المتوارث، لا يمكن أن يؤدى إلى الاستكانة امام الاحتلال الأجنبى أيا كان مصدره.

ومن هنا يصح القول إن حرب أكتوبر، كان من بين نتائجها الإيجابية، سعى الغرب إلى إعادة اكتشاف العرب، ولكن على أسس علمية موضوعية هذه المرة.

التغييرات الاجتماعية داخل إسرائيل

قد يكون من قبيل استباق الأحداث، التنبؤ بالآثار المتعددة التى ستلحق ببنية المجتمع الإسرائيلى نتيجة حرب أكتوبر. وقد يدعم من هذا الحذر العلمى المشروع. ما هو معروف من كون التغيرات الاجتماعية العميقة لا يمكن استكشاف معالمها، ولا رصد اتجاهاتها الحقيقية، إلا بعد فترة كافية من الزمن. منذ اللحظة التي يقع فيها حادث جسيم يلحق بالبناء الكلى للمجتمع.

غير أنه مع وضع كل هذه الأمور موضع الاعتبار، يمكن القول أن دراستنا لملامح التطور فى بناء المجتمع الإسرائيلى. يمكن أن تساعدنا على صياغة بعض الفروض الخاصة بتيارات التغير التى ستهب على هذا المجتمع الإسرائيلى.

ولعل الأسئلة التى تنبغى أثارتها بهذا الصدد تنحصر فى ثلاثة: ما هى نوعية مرحلة التطور الراهنة التي يمر بها المجتمع الإسرائيلى، وما هى المشكلات الأساسية التى كانت تجابهه قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأخيراً ما هى تيارات التغير المرتقبة نتيجة لحرب أكتوبر ١٩٧٣؟

أولا: نوعية المرحلة التى يمر بها المجتمع الإسرائيلى فى مرحلة تطوره الراهنة:

١ – أن التتبع الدقيق للمرحلة التى يمر بها المجتمع الإسرائيلى. يكشف عن خط عام للتطور يعد مفتاحا لفهم عديد من العمليات والمشكلات الاجتماعية السائدة فى

هذا المجتمع[1].

ولعل هذا الخط العام، يمكن إيجازه فى عبارة مفردة، لو قلنا أنه يتمثل فى انتقال المجتمع الإسرائيلى من مجتمع أيديولوجى إلى مجتمع صناعى استهلاكى[2]. ومن الحقائق المعروفة، أن المجتمع اليهودى فى فلسطين (قبل إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨) نشأ عن طريق تتابع وتدفق موجات المهاجرين اليهود من مختلف أنحاء العالم، تحقيقا للبرنامج السياسى الذى وضعه أقطاب الصهيونية، والذى أشرفت على متابعة تنفيذه بدقة المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة والمنظمات الصهيونية. ولم تكن الهجرة إلى فلسطين - فى نظر غالبية المهاجرين - مجرد هجرة من أوطانهم الأصلية إلى قطر جديد، ولكنها كانت عودة إلى أرض الميعاد. ليس ذلك فقط، ولكن لإحياء الشعب اليهودى. وإعادة صياغة ثقافته المتفردة التى شوهتها الحياة فى الدياسبورا. فى أرض الميعاد سيبعث اليهودى من جديد، مزارعا مرتبط الجذور بالأرض، ليس ذلك فقط ولكن سيصوغ اليهود المهاجرون تجمعا مثاليا جديدا تسوده قيم العدالة والمساواة. ومن هنا منطق دعوات العمل العبرى والاشتراكية الصهيونية، وحركة الكيبوتز، والهستدروت. وكانت الصورة المثلى فى هذه المرحلة هى صورة الرائد، الذى يضحى بنفسه فى سبيل المجموع.

غير أنه مع تبلور مؤسسات المجتمع اليهودى في فلسطين وتمايزها، بدأت بذور التحلل تفعل فعلها فى أيديولوجية الريادة. وكان الحكم النهائى من أنصار تحديث المجتمع اليهودى فى فلسطين، حين قرروا أن أيديولوجية الريادة تناسب مجتمعا بسيط التكوين، ليس فيه مجال للتمايز والتخصص، أما البناء الاجتماعى المتبلور، فإنه يحتاج إلى تمايز اقتصادى واجتماعى، مما يفترض درجة عالية من التخصص والفردية[3].

ولعل مما له دلالة بالغة، أن هذا الاتجاه ظهر وبدأ تأثيره مع نشوء القطاع الخاص فى الاقتصاد الإسرائيلى، ووقوفه منافسا للأنشطة الاقتصادية والمهنية فى القطاعات العمالية (الهستدروت أساسا).

(١) انظر: Eisenstadt, S. N., Isralie Society, London: Weidenbeld and Nicolson, 1967.

(٢) انظر: السيد يسن، انهيار فلسفة الكيبوتز، الأهرام ١٩٧٢/١١/٢٤.

(3) Eisenstadt, S. N., Isralie identity, Ann. Amer. Pol & Soc Sc., March, 1967, 116-128.

٢ – وقد ارتبطت بنشأة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ثلاث عمليات رئيسية، كانت لها تأثيرات بالغة العمق فى الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الإسرائيلى وهى:

- تدفق مهاجرين جدد.
- تمايز البناء الاقتصادى والاجتماعى.
- تحول صفوة الرواد إلى صفوة حاكمة.

وقد أدت كل عملية من هذه العمليات إلى آثار متعددة. فقد أدى تدفق المهاجرين الجدد (الذين كان أغلبهم من اليهود الشرقيين) إلى مشكلات جسيمة تتعلق باستيعاب المهاجرين من ناحية، ونشأة وزيادة حدة الصراع السلالى من ناحية أخرى، وقد أدت هذه الهجرات الشرقية إلى تعديل جوهرى فى التركيب الديموجرافى للمجتمع الإسرائيلى، نتيجة لازياد عدد اليهود الشرقيين (حوالى ٥٠ فى المائة الآن من مجموع عدد السكان اليهود فى إسرائيل) الذى لا يرد فقط إلى زيادة نسبة المهاجرين منهم إلى إسرائيل بعد ١٩٤٨، ولكن أيضا إلى ارتفاع معدل توالدهم، إذا ما قورنوا باليهود الغربيين. وقد كان ذلك كله الجذر الذى انطلقت منه كل مظاهر الصراع السلالى بين الغربيين والشرقيين فى إسرائيل.

أما تمايز البناء الاقتصادى والاجتماعى، فهو عملية حكمتها بوجه رئيسى هيمنة القطاع الخاص على الاقتصاد الإسرائيلى، وقد ترتب على ذلك كله - بعد انهيار أيديولوجية الريادة - تدعيم القيم الفردية والرأسمالية، التى تحض على الحافز الفردى والطموح الشخصى، وأدت أخطر من ذلك على المدى الطويل، إلى ظهور فجوة هائلة بين الأغنياء والفقراء فى إسرائيل، حيث أخذ المجتمع يتطور ليأخذ ملامح المجتمعات الرأسمالية التقليدية: فى قمة السلم الاجتماعى عدد محدود من الفئات الاجتماعية التى تلتهم أغلب الدخل القومى، وفى القاع الغالبية التى تعانى من سوء الأحوال الاقتصادية.

وقد أدى، أخيرا، تحول صفوة الرواد إلى صفوة حاكمة، إلى تغييرات جوهرية، فى السلوك السياسى. لم يعد الشعار السائد هو خدمة المجتمع، بغض النظر عن أى مكاسب مادية أو شخصية. بل أصبح الطموح الشخصى، والسعى للحكم، والحصول على القوة السياسية هى القيم السائدة. وقد أدى ذلك فى الواقع إلى قيام صراع حاد

ومرير بين الأجيال فى إسرائيل. فالجيل السياسى القديم متشبث بمواقعه، ولا يريد تركها على وجه الإطلاق، برغم أنهم جيل المؤسسين، فى حين أن الجيل الأصغر، يحس أنه ممنوع من أخذ فرصته، لتحقيق التطور للمجتمع الإسرائيلى من خلال مناظير لا تتفق بالضرورة مع وجهات نظر "الحرس القديم".

ثانيا: المشكلات النوعية التى كانت تجابه المجتمع الإسرائيلى قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣:

فى ضوء الخلفية العامة التى حاولنا عن طريقها رصد خط التطور العام للمجتمع الإسرائيلية، يمكن لنا أن نعرض - فى إيجاز - للمشكلات الأساسية التى كانت تجابهه قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣.

١-الصراع الطبقى والسلالى:

نظرا لحداثة تكون المجتمع الإسرائيلى، ولطابعه الخاص المتميز، باعتباره مجتمعا من المهاجرين، الذين حاولوا - فى البداية - إقامة مجتمع أيديولوجى، يقوم على إلغاء التفاوت بين الناس، اعتماد على تدعيم قيم المساواة، فإنه من أصعب الأمور ممارسة التحليل الطبقى لهذا المجتمع. بل أن بعض الباحثين يغالى لدرجة الزعم بأن المجتمع الإسرائيلى لا يتكون من طبقات. وبغير أن ندخل فى مناقشة تفصيلية مع أنصار هذا الرأى، يمكن القول أنه يجرى فى الوقت الراهن عمليات اجتماعية بالغة العمق، تتبلور فى ضوئها طبقات اجتماعية متمايزة. وهذه العمليات لا تجرى فى انعزال عن خط التطور العام للمجتمع الإسرائيلى الذى حددنا سماته. فمع زيادة هيمنة القطاع الخاص على الاقتصاد الإسرائيلى، ومع انهيار أيديولوجية الريادة، وصعود القيم الرأسمالية والفردية. تعاد صياغة هذا المجتمع الذى أريد له فى البداية - تحقيقا لحلم طوباوى - أن يكون مجتمع المساواة، لكى يصبح مجتمعا لا يختلف بناؤه عن بناء المجتمعات الرأسمالية الصناعية. بما تتضمنه من تمايز طبقى ملحوظ، ووعى طبقى تزداد حدته مع الأيام، وصراع طبقى فى النهاية يعلن عن نفسه من خلال مظاهر شتى. ويصبح هو المحرك الأساسى للمجتمع.

ويساعد على هذا التطور الذى يأخذ طريقة ببطء شديد، تهاوى المؤسسات

الجماعية التى كانت تنتمى للمجتمع الأيديولوجى القديم، بكل ما تتضمنه من أيديولوجيات ورموز وقوى دافعة. ولعل أبرز مظاهر هذا الانهيار، تهاوى أيديولوجية الكيبوتز، والانهيار الذى أصاب بناءها الاجتماعى، والذى تمثل فى ارتفاع معدلات الهجرة منها إلى المدن، وإلى تحولها إلى مشاريع رأسمالية تستخدم العمل المأجور، خلافا ظاهرا لقانونها الأيديولوجى الصارم.

غير أنه يضاف لذلك كله، الأزمة الراهنة التى يمر بها "الهستدروت" كمنظمة جماعية عمالية. ففى السنوات الأخيرة، ثارت القاعدة الهستدروتية عدة مرات وبعنف بالغ ضد القيادات الهستدروتية، متهمة إياها بأنها عميلة للحكومة (الطبقة المسيطرة!) وأنها لم تعد تمثل مصالح العمال. ومن هنا تزايدت الإضرابات العمالية التى تمت بالرغم من معارضة هذه القيادات.

ومن هنا نستطيع القول أن ظواهر الصراع الاجتماعى التى تمثلت فى صورة الإضرابات المتكررة التى قامت بها فئات اجتماعية متعددة (من أول عمال السفن فى الموانئ إلى طيارى شركة العال) تشير إلى البدايات الأولى لنمو وتجدد الوعى الطبقى. والذى مثل للمجتمع الإسرائيلى فى المرحلة ما قبل أكتوبر ١٩٧٣ مشكلة من أخطر مشكلاته.

غير أنه بالإضافة إلى هذا الصراع الاجتماعى ذى الطابع الطبقى، تزايدت بشكل حاد ظواهر الصراع السلالى بين اليهود الغربيين واليهود الشرقين وقد حاولت السلطات الإسرائيلية لفترة طويلة. تجاهل المشكلة والتهوين من شأنها أمام العالم. حتى لا يظهر تفتت وحدة الجنس اليهودى المزعوم، وساندتها فى ذلك محاولات علماء الاجتماع الإسرائيليين. الذين وضعوا المشكلة وضعا مزيفا يكشف عنه عنوان دراسة للعالم الاجتماعى الإسرائيلى "بن دافيد" "تغير اجتماعى أم فروق سلالية؟" يريد بذلك الزعم أن الصراع الدامى بين اليهود الاشكنازيم والسفارديم. لا يرد إلى فروق سلالية أصيلة لا يمكن القضاء عليها. بقدر ما يرد إلى عوامل التفاوت القضاء عليها. بقدر ما يرد إلى عوامل التفاوت فى المستوى الاقتصادى والتعليمى بين الطائفتين، هذا التفاوت الذى ستقضى عليه عملية التغير الاجتماعى الواسعة المدى التى تأخذ مجراها فى المجتمع الإسرائيلى.

غير أنه مع تحول الصراع السلالى المكتوم إلى صراع حاد ومكشوف، أخذ يظهر اتجاه سياسى وعلمى مبناه، أن استراتيجية "بوتقة الصهر" التى صممت

لتذوب الفوارق بين السلالات اليهودية المتعددة فى المجتمع الإسرائيلى، قد فشلت نهائيا، وأنه لا مناص من قبول الحقيقة التى مؤداها، أن كل سلالة إنما تكون حضارة فرعية خاصة بها. تضم قيمها واتجاهاتها ورموزها، وأن الأمل هو أن تتعايش هذه الحضارات الفرعية تحت مظلة حضارة إسرائيلية عامة ومشتركة.

٢-الصراع بين الأجيال:

اتخذ الصرع بين الأجيال فى المجتمع الإسرائيلى، صورتين متمايزتين إلى حد ما:

- الصراع بين أجيال الصفوة السياسية الإسرائيلية الحاكمة.
- والصراع بين الصفوة وبين جماهير الشباب الإسرائيلى.

ففيما يتعلق بالصراع بين أجيال الصفوة السياسية الإسرائيلية الحاكمة. سبق لنا أن أشرنا أنه كان نتيجة لازمة من نتائج تحول صفوة الرواد إلى صفوة حاكمة.

غير إن بعدا أساسيا من أبعاد الصراع. يتمثل فى أن جيل الصفوة التقليدى الذى يلمع فى رصيده تأسيس دولة إسرائيل. هو الجيل الأكثر ارتباطا بالصهيونية كأيديولوجية. وهذا الارتباط يملى على أعضاء هذا الجيل. أكثر المواقف تشددا وتطرفا فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى. ويظهر ذلك فى الإصرار على التوسع الإسرائيلى الدائم، باعتبار ذلك الواجب المقدس للأجيال الإسرائيلية المتتابعة. حتى لو تضمن ذلك العسكرة الدائمة للمجتمع. وابقاءه فى مناخ حرب وصراع دائم. كما يبرز فى الحرص على جلب أكبر عدد من اليهود إلى إسرائيل. تحقيقا للبرنامج الصهيونى، ومن ناحية أخرى يكشف عن نفسه فى الاستراتيجية العدوانية الأصيلة التى وضعت التعامل مع العرب، والتى خلاصتها أن العرب "لا يعرفون إلا لغة والردع".

وهذه الصفوة التقليدية هى التى ضغطت بكل الطرق والوسائل. العلنية والسرية والتآمرية، لضم الأراضى العربية المحتلة إلى إسرائيل نهائيا، وتغيير طبيعتها الجغرافية والديموجرافية إلى الأبد.

غير أن هناك شواهد على أن الجيل الأحدث فى الصفوة السياسية الإسرائيلية - الذى يكافح عبثا لأخذ فرصته فى الحكم واتخاذ القرار - يختلف اختلافات نوعية فى نظرته لإسرائيل وإلى العرب. هذا الجيل - نتيجة سيادة نظرة براجماتية بين

أعضائه - أقل ارتباطا بأحلام الصهيونية، وأكثر التصاقا بالواقع الإسرائيلي المعاصر. ولذلك فإنه يبدو أن الذى يهيمن على أعضائه ليس حلم "إسرائيل الكبرى"، ولكن كيف يمكن الحفاظ على "إسرائيل الصغرى" فى خضم محيط بشرى عربى معاد. ومن هنا استعداد أعضاء هذه الصفوة لاتخاذ مواقف أكثر اعتدالا فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى، ظهرت بوجه خاص فى موقفهم إزاء الأرض العربية المحتلة بعد حرب يونيو ١٩٦٧، ومناداتهم بعدم ضمها، والقناعة بتعديل الحدود، بما يتناسب والوضع الأمن الأمثل لإسرائيل.

غير أنه بالإضافة إلى هذا الصراع الذى يتم بين أعضاء الأسرة الواحدة فى إسرائيل (الصفوة السياسية). هناك صراع آخر قد يكون أكثر خطورة، ونعنى به الصراع الذى لم تتحدد أرضيته ولا ملامحه بعد، بين الصفوة وجماهير الشباب الإسرائيلى.

ويكشف عن هذا الصراع انخفاض معدلات الارتباط بالصهيونية كأيديولوجية بينهم. فهذه الأجيال ترتبط بإسرائيل أساسا، وتريد أن تمارس حياتها فى إطار سلمى. لا يذخر بالتوتر والصراع والعداء.

غير أن هذه الرغبات المشروعة يقف دونها الحاجز الصلب، الذى يتمثل فى القيم العدوانية التى تصدر عنها المؤسسة الإسرائيلية الحاكمة، ولذلك سادت ظواهر سلبية بين هذه الأجيال، أدت إلى قلق أعضاء الصفوة الإسرائيلية الحاكمة.

٣ - الاغتراب والتفكك الاجتماعى:

من بين هذه الظواهر، سيادة مشاعر الاغتراب فى المجتمع، الذى تكشف عنه زيادة درجات التفكك الاجتماعى، متمثلة فى الازدياد المطرد لارتكاب الجرائم عموما، والجرائم المنتظمة خصوصا (جرائم العصابات)، والازدياد الضخم فى عدد من يتعاطون المخدرات.

ولعل أكثر هذه الظواهر السلبية المقلقة، هو بداية ظهور اتجاه سلبي بين الشباب إزاء الحرب. وقد عبر موشى ديان عن مخاوفه من هذا الاتجاه فى محاضرة ألقاها عن "الجيل الجديد والحرب" اعترف فيها بظهور هذا الاتجاه وبانتشاره التدريجى، وركز على خطورته الكبرى بالنسبة لمستقبل إسرائيل.

ويجد هذا الاتجاه منطقة فى الضيق بسيل الوعود الكاذبة التى تعهدت بها المؤسسة السياسية العسكرية الإسرائيلية لجماهيرها. ففى كل مرة كانت تساق هذه الجماهير للحرب بزعم أنها الحرب التى ستنهى كل الحروب. وحتى حرب ١٩٦٧ التى تم فيها الانتصار الإسرائيلى الواسع المدى، اثبت للإسرائيليين جميعا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، أنها كانت مجرد حلقة فى سلسلة ممتدة من الحروب التى يتساقط فيها القتلى والجرحى الإسرائيليين لتحقيق أهداف وضعتها المؤسسة الحاكمة. غير أن هذه الأهداف، وخصوصا بعد ظهور الأطماع الإسرائيلية فى الأرض العربية المحتلة بعد ١٩٦٧، مفضوحة عارية، لم يعد من السهل رفعها إلى مصاف الأهداف العليا لمصلحة المجتمع الإسرائيلى، حماية لسلامته ولأمنه. ومن هنا دار الصراع والخلاف على كافة المستويات. طوال الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ حول هل ينبغى ابتلاع اللقمة العربية السائغة، أم أن ذلك فى حد ذاته قد يكون بداية لتقويض الدولة اليهودية من الداخل؟.

٤-استراتيجية التعامل مع العرب:

اختلفت الاستراتيجيات الإسرائيلية الخاصة بالتعامل مع العرب اختلافات جوهرية حسب المراحل التاريخية، غير أن أهم تحول على الإطلاق لحق بها عقب حرب يونيو ١٩٦٧.

فى مرحلة الاستيطان اليهودى، زعم الصهيونيون - على المستوى الأيديولوجى - أنه ليست هناك مشكلة صراع بين اليهود المهاجرين إلى فلسطين وبين العرب. ولعل الصيغة الشهيرة "شعب بلا أرض هبط إلى أرض بلا شعب" تشير إلى هذا الاتجاه. غير أنه على مستوى الواقع الاجتماعى. جابه اليهود السكان العرب من خلال اتباع وسيلتين رئيسيتين: الخداع والتسرب الذى تمثل فى إغراء الإقطاعيين العرب وكبار الملاك على بيع أراضيهم، واستخدام وسائل الدفاع الذاتى من ناحية، والعنف المكشوف من ناحية أخرى.

ولم تعد هناك مشكلة جسيمة بصدد العرب بعد إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. إذ حدثت - نتيجة الإرهاب الإسرائيلى الذى ترتب عليه نزوح آلاف العرب عن فلسطين وتحولهم إلى لاجئين - خلخلة فى التركيب الديموجرافى للمجتمع فى

إسرائيل، ساعدت عليه موجات الهجرة اليهودية المتدفقة، وسرعان ما تحولت الأقلية اليهودية إلى أغلبية. وتبدلت حال الأغلبية العربية فأصبحت أقلية.

وتمثلت الاستراتيجية الإسرائيلية فى هذه الحقبة، فى تحويل عرب إسرائيل إلى مواطنين من الدرجة الثالثة (بعد اليهود الشرقين)، إذ فرضت عليهم الإقامة الجبرية داخل حدود معينة، ووضعت قيود عديدة على حرياتهم، واخضعوا إخضاعا كاملا للحكم العسكرى.

ثم نشأ واقع جديد بعد حرب يونيو ١٩٦٧ وسقوط الضفة الغربية تحت الاحتلال الإسرائيلى. إذا رأت إسرائيل أن من مصلحتها تدعيم ما يعرف "بالجسور المفتوحة" بين الضفة الشرقية للأردن والضفة الغربية. لتسهيل عملية انتقال الأفراد والبضائع باتجاه واحد فى البداية، من الضفة الغربية إلى الشفة الشرقية، ثم بعد ذلك من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية(٤). وقد قدرت إسرائيل أن الجسور المفتوحة هى سبيلها إلى تحقيق "السلام الإسرائيلى" الذى لا يمكن أن يتم فى حالة إغلاق الحدود بينها وبين البلاد العربية، وبالتالى يسمح لها بالأفلات من طوق المقاطعة العربية للإطلال على "المجال الحيوى لإسرائيل"، الأمر الذى يبرر، من وجهة نظر مصممى الاستراتيجية الإسرائيلية، كافة المخاطر الأمنية التى قد تترتب على الاتصال مع العرب فى هذه المرحلة بغض النظر عن الفوائد الاقتصادية الضخمة التى حصلت عليها إسرائيل نتيجة هذه السياسة، فإنها قد وضعت فى اعتبارها، بالإضافة إلى ذلك، أن ما أطلق عليه "زيارات الصيف" التى بمقتضاها كان الزوار العرب يدخلون إلى إسرائيل. يمكن أن تستغل لتقديم نفسها إلى العرب والاتصال بهم مباشرة، لينقلوا بعد عودتهم إلى أماكن عملهم ومسكناهم فى أقطار عربية متعددة، صورة التقدم التكنولوجى "والحضارى" فى إسرائيل إلى الشعوب العربية، وبالتالى سد الهوة النفسية العميقة بين العرب وإسرائيل، وتخفيف حدة المشاعر تجاهها. ويمكن إدراك خطورة هذه السياسة، إذا علمنا أنه فى عام ١٩٧٢ وصل عدد "السائحين" العرب الذين اجتازوا نهر الأردن خلال أشهر الصيف إلى ١٥٣,٠٠٠ ألف نسمة.

وأكد اهتمام المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية بهذه السياسة وتقديرها لآثارها

(٤) انظر : عبد الحميد "عيسى" ست سنوات من سياسة الجسور المفتوحة – بيروت: حركة الصراعات الفلسطينية.

الإيجابية بالنسبة لإسرائيل، التصريح الذى أدلت بـه جولدا مـانير فـى رسـالتها إلـى اليهود فى جميع أنحاء العالم بمناسبة بدء السنة اليهوديـة الجديـدة، "أن هنـاك تعايشـا مـتزايدا بين العـرب واليهود داخل إسـرائيل والأراضـى التـى احتلتهـا منـذ حـرب ١٩٦٧، التى تمثل جسرا للتفاهم المتبادل".

وإذا أضفنا إلى ذلك كله، المحاولات الإسرائيلية - التـى نجحـت إلـى حد كبـير - فى إدماج القوة العاملة العربية فى الضفة الغربية فى الاقتصاد الإسرائيلى، يتبين لنا أن حجم ونوع الاتصال بين العرب ويهود إسرائيل قد زاد زيادة ضخمة منذ حرب يونيو ١٩٦٧.

وإذا كـانت المؤسسـة الإسـرائيلية لـم تنظـر إلا إلـى الجوانـب الإيجابيـة فـى هـذه العملية الاجتماعية من وجهة نظرها. وأهمهـا أن ينقـل السـياح العربـى إلـى البـلاد العربيـة صـورة زاهيـة عـن المجتمـع الإسـرائيلى، إلا أنهـا - فيمـا يبـدو - فاتهـا أن التداعيات المتعلقة بالآثار النفسية الاجتماعية للاتصال بيـن جمـاعتين متعـاديتين، لا يمكن أن تسير فى خط من اتجاه واحد، من الجانب الإسرائيلى للجانب العربى! ذلك أنه من المؤكد أن هذا الاتصـال - بغض النظر عن جوانبه الاقتصاديـة والسياسـية - قد أدى إلى تغير تدريجى، وإن كـان مؤكدا، فـى نظـرة جمـاهير الإسـرائيليين إلـى العرب. فقد ألحت أجهزة التنشئة الاجتماعيـة فـى إسـرائيل ووسـائل الأعـلام، علـى تقديم صورة نمطية للعربى، تتمثل عناصرها فى أنه جاهل ومتخلف وكسول ويفتقر إلى الدافعية. ومما لاشك فيه، أنـه نتيجـة للاتصـال الواسـع المدى بين العـرب فـى إدراك اليهود الإسرائيليين للعربى. وإذا سلمنا - مع علمـاء النفس الاجتمـاعى - أن ثمة علاقة وطيدة بين الإدراك والتفاعل والاتجاه، لكان لنا أن نخلص إلى أن سياسـة الجسـور المفتوحـة مـن ناحيـة، وإدمـاج عـرب الضفـة الغربيـة مـن ناحيـة أخـرى، تضمنـت العنـاصـر الأساسـية التـى عـن طريقهـا أخـذت تتغـير اتجاهـات اليهـود الإسـرائيليين إزاء العـرب. ولعـل أخطـر صـور هـذا التغـير، اكتشـاف الإنسـان فـى الآخر، أو بعبارة أخرى، إدراك الدوافع والمشاعر التى تحـرك العربـى فـى مسلكه إزاء إسرائيل واليهود الإسرائيليين من ناحية، وسقوط الأوصـاف النمطية الإسرائيلية عن العربى بالتدريج من ناحية ثانية.

ومما لاشك فيه، أن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ سيكون من شأنها - كمـا سـنرى - تدعيم هذا التغـير فـى نظـرة الإسـرائيليين إلـى العـرب. ذلـك أنـه إذا كـان الاتصـال

"السلمى" بين العرب والبهود الإسرائيليين قد أحدث بعض التغييرات، فإن الاتصال "العدائى" فى الحرب وفى ميادين القتال، وخصوصا فى حرب تمت لأول مرة فى تاريخ الصراع فى ظروف متكافئة بين الطرفين، حيث برزت القدرات الحقيقية للمقاتل العربى، من شأنه أن يعمق من حدوث هذا التغير.

ثالثا: تيارات التغير المرتقبة نتيجة لحرب أكتوبر ١٩٧٣:

من الحقائق المعروفة، أن التاريخ لا يعرف الوقوف عند تاريخ محدد يكون فاصلا حاسما بين حقيقتين متمايزتين. ذلك لأن مجراه الدينامیکی المتتابع، تتفاعل فى تياراته عناصر شتى بصورة مستمرة، حيث يتصارع القديم مع الجديد فى حركة جدلية لا تتوقف أبدا. وعلى ذلك، يمكن القول أن تيارات التغير المرتقبة فى المجتمع الإسرائيلى، لابد لها أن تحمل طابع التكامل والتناقض والاستمرار والانقطاع من خلال عملية مستمرة أبدا.

فى ضوء ذلك، يمكن القول أن التغيرات المرتقبة ستأخذ صورة أو أكثر من صور العمليات الاجتماعية التالية:

- فهى إما أن تكون تدعيما لعمليات كانت تأخذ مجراها فعلا فى المجتمع الإسرائيلى قبل أكتوبر ١٩٧٣.
- وإما أن تكون انقطاعا فى عمليات اجتماعية كانت سارية.
- وإما أن تكون أخيرا ظهورا لعمليات اجتماعية ولظواهر لم تكن موجودة من قبل فى المجتمع الإسرائيلى، أو كانت - على الأرجح - كامنة ثم كشفت عنها بوضوح حرب أكتوبر ١٩٧٣.

غير أنه يجدر بنا أن نلقى - قبل أن نعرض لهذه التغيرات المرتقبة - نظرة عجلى على المناخ السياسى الذى كان سائدا قبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى إسرائيل والعالم.

١- المناخ السياسى قبيل حرب أكتوبر فى إسرائيل والعالم:

إذا حللنا الصحف العالمية المعروفة التى صدرت فى الأسبوع السابق على حرب أكتوبر ١٩٧٣، نستطيع أن نضع أيدينا على العناصر الأساسية التى كانت سائدة فى

المناخ السياسى فى إسرائيل والعالم، بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى على وجه الخصوص، بالنسبة لمناخ العلاقات الدولية بين القوتين الأعظم بوجه عام.

ففيما يتعلق بإسرائيل، نشر أريك سيلفر فى الأوبزرفر البريطانية بتاريخ ٣٠-٩-١٩٧٣ مقالا بعنوان "مستقبل الضفة الغربية فى برنامج حزب العمل الإسرائيلى". ويعكس المقال خلاصة موقف حزب العمل فى المسألة التى أشتد حولها الجدل بعد ١٩٦٧، وهى ضم الأراضى العربية المحتلة إلى إسرائيل. وقد قرر الكاتب أن ديان - زعيم المتشددين - قد حقق انتصارا تكتيكيا، لأنه استطاع أن يضغط حتى تضمن برنامج حزب العمل عناصر السياسة التوسعية فيما يتعلق بابتلاع الأراضى المحتلة نهائيا، وأهمها ما يلى:

أ - يتعهد برنامج الحزب بإنشاء المزيد من المستوطنات اليهودية فى وادى الأردن.

ب - منح اليهود - بصفتهم الفردية - حق شراء الأراضى من العرب، بشرط أن يكون الهدف من الشراء هو تنفيذ مشروعات بناءة، وليس لأغراض المضاربة، على أن يتم الشراء داخل نطاق السياسة الحكومية الخاصة بالأراضى.

ج - تتولى الحكومة شراء الأراضى الواقعة جنوبى القدس وشرقها، بهدف التوسع السكانى وتوسيع "العاصمة".

د - الموافقة على تخصيص ١٢٥ مليون جنيه أسترلينى لإنفاقها على مشروعات التنمية فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى السنوات التالية.

هـ - تقديم الحوافز إلى المستثمرين اليهود لبناء المصانع فى المناطق المحتلة.

وفى نفس الوقت، يشير الكاتب إلى موقف المعتدلين: ايجال آلون نائب رئيسة الوزراء، وأبا ايبان وزير الخارجية، الذين يعارضان فكرة الضم على أساس إضرارها بالمصلحة الذاتية لإسرائيل. وكان ايبان أكثر صراحة فقرر أنه ليس هناك فى إسرائيل تعطش كبير لغزو الأراضى العربية، كما أن الجيل الجديد من اليهود يفتقر إلى تحمس الأجيال الماضية، الذى دفعهم إلى الزحف وإقامة المستوطنات اليهودية بإشكالها المختلفة.

ومن ناحية أخرى، كشف ميشيل هيلتون فى مقال نشره فى الديلى تلجراف

البريطانية فى ٢٥-٩-١٩٧٣ بعنوان: "هل يمكن أن يتعايش العرب واليهود؟" عن نظرة الغرب التى أخذت سبيلها إلى الاستقرار بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى. فقد تنبأ بأن الصراع سيدخل مرحلة جديدة، مبناها أن الأمر الواقع هو سيد الموقف. فالفلسطينيون - فى نظره - قد انهارت نزعتهم النضالية، ومصر وسوريا - وكانتا أكثر الدول المحيطة بإسرائيل تشددا فى البداية - أصبحتا من الدول المحافظة تقريبا! والنزاع بين العرب واليهود فى سبيله لأن يحال إلى مرتبة أدنى، باعتبار مشكلة تخص الشرق الأوسط، وبالتالى فلن تكون هناك مشكلة - فى رأيه - سوى اتخاذ الترتيبات الخاصة بالأشخاص الذين لا مأوى لهم فى المنطقة!

وحتى تكتمل الصورة فيما يتعلق بالمناخ السياسى فى العالم، نشير إلى مقال لانتونى لويس فى الهيرالد تريبيون الدولية فى ٢٥-٩-١٩٧٣ عن "الجوانب الواقعية فى الوفاق الأمريكى السوفيتي". وفيها يحلل الكاتب التناقض والتكامل فى مواقف الدولتين الأعظم، والاتجاه المتصاعد نحو غزالة الخلافات بينهما للوصول إلى الحد الأقصى من الاتفاق. وهكذا يمكن القول أن الاتجاه العام فى العالم وإسرائيل، كان يتركز حول ترحيل الصراع العربى الإسرائيلى إلى درجة دنيا فى سلم الأسبقيات الدولية ومن ناحية أخرى، كانت إسرائيل قد أصدرت حكمها النهائى فى الصراع الذى يقوم على مسلمة بسيطة التركيب، مبناها التفوق الإسرائيلى الكاسح، والعجز العربى المطلق!

٢-التغيرات المرتقبة فى المجتمع الإسرائيلى بعد حرب أكتوبر:

وفجأة قامت حرب أكتوبر، فاختلت الموازين الإسرائيلية والدولية اختلالا بالغ العنف، وانتقل الصراع المتجمد إلى الصدارة فى سلم الاهتمامات العالمية.

لقد كانت حرب أكتوبر - بتعبير عالم الاجتماع الفرنسى الصهيونى المعروف ريمون آرون فى مقال نشره فى الفيجارو بتاريخ ٦-١١-١٩٧٣ من أكبر مفاجآت العصر. وهذا الحكم فى الحقيقة، يتضمن معنى التسليم الأعمى بالاعداءات الإسرائيلية عن ضعف العرب وانهيارهم واستسلامهم للأمر الواقع، الذى تهيمن عليه إسرائيل. والحقيقة أنه ترتب على تراجع الجيش الإسرائيلى أمام الجيوش العربية، وارتفاع عدد خسائره البشرية، أصداء بالغة العنف فى المجتمع الإسرائيلى.

وفى تقديرنـا أن هنـاك تغيرا جوهريـا سيطرأ علـى المجتمـع الإسـرائيلى نتيجـة لحرب أكتوبر، يتمثل فيما يكن أن نطلق عليه التغير الجوهرى فى الإطار الإدراكى للإسرائيليين، ومن ناحية أخرى لابد أن تترك الحرب بصماتها على عمليات التفكك والتكامل فى المجتمع الإسرائيلى التى كانت تأخذ مجراها قبل حرب أكتوبر.

التغير الجوهرى فى الإطار الإدراكى للإسرائيليين:

لعل الإطار الإدراكى للإسرائيليين - فيما يتعلق بـالصراع العربـى الإسـرائيلى - يتمثل أكثر ما يتمثـل فـى النظـرة للـذات والنظـرة للآخـر، والأخـر هنـا هـم العـرب بطبيعة الأحوال. والنظرة الإسرائيلية للذات تتضمن تصورا محددا لدولـة إسـرائيل: دورها ورسالتها، ومن ناحية أخرى صورة ذاتية عن الإسرائيليين كأفراد وكشـعب. ولعل السمة الأساسية لتصور إسرائيل لدورها ورسالتها، كونه تصورا يسيطر عليـه الوعى الزائف بكل ما تعنيه الكلمة من معان. فقد ألحت إسرائيل على تقديم صـورة لنفسها أمام العالم الغربى.

باعتبارهـا مثـلا للحضـارة الغربيـة وللتقدم التكنولوجـى فـى العـالم العربـى الـذى يسوده التخلف. ومن ناحية علاقات القوة، فإسرائيل هـى المخفـر الأمـامى للمصـالح الغربية بوجه عام، والأمريكية بوجه خـاص. ومـن خـلال قوتهـا العسـكرية الفائقـة، أعطت لنفسها دور "رجل الشرطة" فى المنطقة الذى يسـتطيع حينمـا يشـاء، وحيثمـا يريد، ردع العرب وإخضاعهم.

أما رسالة إسرائيل فهى رسـالة روحيـة متفـردة فـى العـالم، لا يمكـن لأى شـعب تحقيقها سوى الشعب اليهودى فى إسـرائيل. أمـا الصـورة الذاتيـة للإسـرائيليين عـن أنفسهم كأفراد وكشعب، فيسيطر عليها الإحساس بالتمايز. حيث يشعرون فى قـرارة أنفسهم بسموهم على غيرهم من الشعوب، وعلى الشـعب العربـى - الطـرف الآخـر فى الصراع بوجه خاص.

لقد وضع الإسرائيليون ثقتهم فى قادته السياسيين والعسكريين، وتضخمت ذواتهـم بوجـه خـاص عقـب الانتصـار الإسـرائيلى الكاسح فـى يونيـو ١٩٦٧، وأصبحـوا يتصورون أنهم أصبحوا سادة المنطقة إلى الأبد.

لكل ذلك كانت حرب أكتوبر وما صحبها من تراجع للجيش الإسرائيلى وبـروز

للقوة الحقيقية للجيوش العربية، بمثابة الصدمة الساحقة التى أصابت الإسرائيليين بالبلبلة، والحيرة والاضطراب.

ولعل أبلغ وصف لهذه الحالة النفسية، ما ذهبت إليه جريدة يديعوت أحرونوت من "أننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا".

ومما له دلالة كبرى بهذا الصدد تقطع وسائل الاتصال التقليدية المجتمع الإسرائيلى فقد أحس الإسرائيليون أنهم لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم من خلال القنوات المعتادة: الأحزاب السياسية، والمؤسسات الاجتماعية. ومن هنا برزت ظاهرة ليس لها سابقة من قبل فى إسرائيل، هى ظهور إعلانات مدفوعة فى الجرائد الإسرائيلية لجماعات مختلفة من الإسرائيليين، يعبرون فيها، كل بطريقته، وبحسب ميوله، وآرائه السياسية، عن رد فعلهم العنيف إزاء ما حدث لإسرائيل فى حرب أكتوبر، وتراوحت ما تنادى به هذه الإعلانات بين الدعوة إلى مزيد من التشدد، والمناداة بضرورة تحقيق السلام، ولو على حساب الأراضى العربية المحتلة.

وظهرت فجوة واضحة بين الجماهير والحكومة، حدثت فجوة تصديق، كشف عنها المظاهرات التى ثارت أمام الكنيست أثناء إلقاء جولدا مائير لخطاب لها، كان من شعاراتها "أن شعب إسرائيل قوى ولكن حكومته ضعيفة".

وابتدأت بوادر تهاوى الوعى الزائف بدور إسرائيل فيما بدأ يظهر من مقالات لكتاب يهود وإسرائيليين يتحدثون بصراحة عن "نهاية دولة إسرائيل الكبرى" (فكتور سيجلمان لونوفال أوبزرفاتور الفرنسية ٢٥-١١-١٩٧٣). ويقرر سيجلمان أن "عقدة الدولة الإسرائيلية الكبرى راسخة تماما، ومستحكمة للغاية، ومنذ ما لا يزيد عن شهرين، اختفت هذه الدولة تماما، بدون أن تخلف أية آثار".

وفى نفس هذا الاتجاه، صرحت جولدا مائير فى مؤتمر الدولية الاشتراكية فى لندن "أنه لأمر فظيع أن نكون دولة صغيرة تقف بمفردها". غير إنه ينبغى ألا يغيب عن بالنا، أن إسرائيل دأبت على ممارسة اللعب على الفكرتين حسب الظروف والأحوال: إسرائيل الكبرى وإسرائيل الصغرى. ولا تعنى الكتابات والتصريحات السابقة، أن الأحلام الخاصة بإسرائيل الكبرى قد تبددت. ومع ذلك فمن المشروع أن نستنتج أنه نتيجة لحرب أكتوبر، لابد أن تثور تساؤلات جماهير الإسرائيليين

حول إمكانية السير فى طريق إسرائيل الكبرى، بعد ما تبين - نتيجة لحرب أكتوبر - الحدود الدولية والإقليمية التى تقف حائلا دون تحقيق هذا الحلم، ليس على مستوى المناقشة النظرية، ولكن على أساس التطبيق، وفى ضوء ما حدث فى الحرب الأخيرة.

وأهم ما نريد أن نركز عليه، أنه قد حدق خلل جسيم فى مكونات الإطار الإدراكى للإسرائيليين نتيجة لحرب أكتوبر. غير أن الإسرائيليين لا يمكن لهم - من وجهة النظر النفسية - تغيير اتجاهاتهم إزاء العرب فى فترة قصيرة. ولذلك نتوقع أن الوعى الإسرائيلى سيمر فى المرحلة القادمة فى مرحلة انتقالية غير محددة الملامح، سيحاول فيها إعادة صياغة مكوناته الأساسية. وفى هذه المرحلة سيقاوم الإسرائيليون قبول الحقائق الجديدة التى أسفرت عنها الحرب، وسيتذبذبون بين أقصى التمسك بالمفاهيم القديمة إلى أقصى القبول اللفظى للواقع الجديد.

ولعل ما يكشف عن ذلك كله، ما يقدره فيكتور سيجلمان فى المقال السابق بالإشارة إليه، من أنه "إذا كان القادة الإسرائيليون يدعون أن إسرائيل قد انتصرت فى الحرب، فإن الإسرائيليين أنفسهم لا يشعرون بأنهم انتصروا على الإطلاق".

ويتساءل عن اتجاه الإسرائيليين نحو السلام فيقول "أنهم يريدونه، بل ويتمنونه، ولا يكفون عن الحديث عنه، ولكنهم لا يؤمنون به". وإذا أردنا تحديد اتجاهات التغير فى الوعى الإسرائيلى، نتيجة للصدمة السيكلوجية التى نشأت عن حرب أكتوبر والتي استمرت طوال الحرب، فيمكن القول أن الحرب أدت إلى تكثيف اتجاهين فوريين فى الفكر الإسرائيلى.

- فمن ناحية، تزايد الشعور بالحاجة إلى تسوية سلام حقيقية ودائمة، بعد فترة كان الرأى العام فى إسرائيل، قد ركن إلى حد كبير إلى اعتقاد مريح بأن إسرائيل يمكنها أن تقف صامدة على حدود الأمر الواقع التى تم تأسيسها فى عام ١٩٦٧.

- ومن ناحية أخرى، فإن الجرح الذى أصاب إسرائيل، قد دعم مطالب أولئك الذين يتحدثون عن الحدود الآمنة التى يمكن الدفاع عنها.

ويقرر ريتشارد جونز فى مقاله "ثمن السلام قد يكون سقوط مائير فى الانتخابات" (الفانياشيال البريطانية فى ٩-١١-١٩٧٣)، أن هذين التيارين الفكريين غالبا ما يتعايشان، ويمكن تجمعهما فى فكر شخص واحد بدرجة أو بأخرى. ولكن

عندما أصبح الأمر يتعلق - فى الوقت الراهن - بمفاوضات سلام كبيرة، ينبغى النظر إليهما على أنهما تياران متعارضان.

ويصل جونز إلى نتيجة مفادها أنه سيكون لكيفية حل هذا التناقض وتحقيقه والتعبير عنه، مدلول حيوى بالنسبة لفرص إقرار السلام فى الشرق الأوسط.

ونستطيع - جريا مع بعض المعلقين السياسيين - التفرقة بين المدى القصير والمدى الطويل فى تغير اتجاهات الوعى الإسرائيلى إزاء الصراع، وذلك على أساس أن عامل الزمن حاسم فى هذا المجال (راجع يورام كيسيل، إسرائيل والسلام، جويش كرونيكل البريطانية ٢-١١-١٩٧٣) فعلى المدى القصير، قد يجد دعاة التوسع مساندة واسعة فى الرأى العام الإسرائيلى. أما على المدى الطويل، فقد تسود مع ذلك وجهة النظر المعارضة، التى يمكن أن تستند إلى أن حرب أكتوبر قد أثبتت أن خطوط ١٩٦٧ ليست آمنة كلية، وأنه لا يمكن تحقيق أمن إسرائيل إلا بعد التوصل إلى سلام حقيقى، وأن الحفاظ على الوضع الراهن يعمل ضد السلام.

هذه التفرقة بين المدى القصير والطويل أساسية، ذلك أنها يمكن أن تتيح لنا أن نفهم بعض الظواهر النفسية الاجتماعية السائدة الآن فى المجتمع الإسرائيلى. فبناء على قياسات الرأى العام التى أجريت فى إسرائيل عقب الحرب، استخلص بعض المعلقين السياسيين (الصنداى تايمز البريطانية ٤-١١-١٩٧٣) أن الرأى العام الإسرائيلى - فى الأمد الطويل - سيحبذ "الحمائم" الذين يدعون إلى الاعتدال.

غير أن أثر الحرب كان كاملا قصير الأمد فى تشدد الرأى العام. فإن كثيرين من الإسرائيليين فوجئوا فى نهاية حرب بالغة القسوة على إسرائيل، بانصراف العطف الدولى عنهم، فشعروا بأنهم معزولون ومحاصرون. ومن الطبيعى فى هذه الأحوال - بدون أدنى شك - أن يسعى الشعب المحاصر إلى البحث عن بطل يتوحد معه، وفى هذا المجال لعب الجنرال أريك شارون، دور فارس الحرب الأصيل، الذى طلب ميزان المعركة لصالح إسرائيل.

غير أنه فى يقيننا، أنه لا يمكن رصد اتجاهات التغير فى الوعى الإسرائيلى، إلا بعد مرور هذه المرحلة الانتقالية التى أشرنا إلى سماتها الأساسية.

ولكن محصلة التغير الكيفى، لن تعتمد فقط على عامل الزمن، والشفاء من الصدمة السيكلوجية العنيفة التى نجمت عن العرب، ولكن أيضا على تفاوت

مستويات الوعى الإسرائيلى. وهنا لابد أن نفرق تفرقة واضحة بين مستويات ثلاث: مستوى الصفوة السياسية، ومستوى العلماء والمفكرين الاجتماعيين، ومستوى الرأى العام الإسرائيلى.

أن التغيرات فى الوعى الإسرائيلى على مستوى الصفوة السياسية، عملية بالغة التعقيد، لأنها من ناحية تعتمد على الخلافات التكتيكية أو الاستراتيجية بين أعضاء هذه الصفوة، فيما يتعلق بمواقعهم من الصراع العربى الإسرائيلى من ناحية، وعلى قدرتهم على التكيف مع الحقائق الجديدة التى ترتبت على حرب أكتوبر من ناحية أخرى.

وفى تقديرنا أن مقاومة أعضاء الصفوة الإسرائيلية المتشددين، ستزداد عنفا وضراوة فى المرحلة القادمة. فليس ميسورا على من صاغوا الاستراتيجية الأساسية مع العرب، بكل ما تتضمنه من أوهام إسرائيل الكبرى، وسياسة التوسع، وضم الأراضى، وعبادة القوة والاعتماد عليها، والتضخيم فى الذات الإسرائيلية، والتهوين من شان العرب، أن يتراجعوا تراجعا جوهريا فى موقفهم. وقد يلعب المعتدلون هنا دورا هاما فى إعادة تكييف الوعى الإسرائيلى على مستوى الجماهير، حتى يكون أكثر تطابقا مع الواقع الجديد.

ويأتى بعد ذلك المستوى الثانى، وهم العلماء والمفكرون الاجتماعيون، الذين أسهموا بدورهم فى صياغة صورة الذات الإسرائيلية، وصورة الشخصية العربية. أن هذه الفئة - نزولا على الاعتبارات الأكاديمية التى وإن كان من الممكن، كما فعلوا الانحراف عنها، وخصوصا فى سنوات العجز العربى عقب حرب يونيو ١٩٦٧ - لن يستطيعوا طويلا الاستمرار فى خديعة الرأى العام الإسرائيلى، ولابد لهم أن يعيدوا صياغة نظرياتهم التى جهدوا فى صياغتها والترويج لها. ولعل بدايات الحديث فى إسرائيل عن القدرة المنسية للمقاتل العربى، التى ردمت تحت رمال الصلف والغرور الإسرائيلى، الذى كان رد فعل للنصر الإسرائيلى فى ١٩٦٧، تشير إلى هذا التحول الذى لابد له أن يتم.

ولا يبقى أمامنا سوى المستوى الثالث الخاص بالرأى العام الإسرائيلى. وفى تقديرنا أن تغير الوعى لدى الرأى العام الإسرائيلى، نتيجة لحرب أكتوبر، سيتم بمعدل أسرع من معدل تغير الصفوة السياسية والعلماء والمفكرين. ذلك أن الحقائق

السياسية والعسكرية الصلبة تكون أقوى نفاذا إلى هذا الوعى، خصوصا بالنسبة لحرب تساقط فيها - لأول مرة فى تاريخ إسرائيل - آلاف القتلى والجرحى، ووقع مئات الأسرى فى أيدى القوات العربية.

ولعل مما سيساعد على هذا التغير، نتائج الاتصال الواسع المدى مع الذى تم تحت مظلة سياسة الجسور المفتوحة، التى سبق أن أشرنا إليها، غير أن هذا الاتصال السلمى، أضيف إليه فى حرب أكتوبر، اتصال عدائى بين القوات المسلحة الإسرائيلية والقوات المسلحة العربية. وقد تكون هذه هى المرة الأولى التى يكتشف فيها المقاتل الإسرائيلى - على نطاق واسع وبصورة حادة وقاسية - المقاتل العربى وقدراته. ولابد للأفكار القومية النمطية الثابتة التى كان يعتنقها الإسرائيليون عن العرب، أن تتهاوى تحت وطأة هذا الاكتشاف، لن يحدث ذلك فورا بطبيعة الأحوال، ولكن لاشك أن حرب أكتوبر من شأنها إطلاق بدايات هذا التغير.

عمليات التفكك والتكامل فى المجتمع الإسرائيلى:

ما هو أثر حرب أكتوبر على عمليات التفكك والتكامل فى المجتمع الإسرائيلى؟ سبق لنا أن أشرنا إلى المشكلات النوعية التى كانت تجابه المجتمع الإسرائيلى قبل الحرب، وحصرناها فى أربع مشكلات: الصراع الطبقى والسلالى، والصراع بين الأجيال، والاغتراب والتفكك الاجتماعى، واستراتيجية التعامل مع العرب.

١ - وفى تقديرنا أن تأثير حرب أكتوبر على الصراع الطبقى والسلالى سيكون حاسما. وبعبارة أخرى نتوقع - نتيجة للأعباء المالية الباهظة التى وقعت على إسرائيل نتيجة للحرب، بالإضافة إلى الخسارة الاقتصادية الضخمة نتيجة لنقص الإنتاج وتوقفه فى بعض القطاعات - أن تزداد أعباء الضرائب على الإسرائيلى العادى. هؤلاء الإسرائيليون سبق لهم أن خاضوا معارك شتى من خلال الإضرابات ووسائل الصراع الاجتماعى الأخرى، لتحسين أحوالهم المعيشة. ولذلك يتوقع زيادة تبلور الوعى الطبقى بين الفئات الاجتماعية الإسرائيلية، مما من شأنه أن يلعب البعد الطبقى - على المدى البعيد، ومواكبا لاكتمال صياغة المجتمع الإسرائيلى على نسق المجتمعات الرأسمالية الاستهلاكية - دورا أكثر بروزا من الدور الذى يلعبه البعد السلالى.

وفى نفس الوقت، ستشهد المرحلة القادمة من تطور المجتمع الإسرائيلى، تصاعدا للصراع السلالى بكل أشكاله. وسيتخذ هذا التصاعد صورة الصراع التقليدى الذى تمارسه الأقليات المتمايزة فى المجتمعات التعددية، بما يتضمن ذلك من الحفاظ على رموز الحضارات الفرعية وتنميتها، والتوحد مع قيمها إزاء قيم المجتمع السائدة، وابتداع صور شتى للتعبير السياسى والاجتماعى عن قيمها ومصالحها الاجتماعية والطبقية.

وقد ترجح هذه الاحتمالات جميعا، الإمكانيات المطروحة لتحقيق تسوية سلمية بين إسرائيل والعرب. أن تحقق ذلك. فلا مناص من أن يفعل قانون الصراع الرئيسى فى المجتمع الإسرائيلى فعله. وهو الذى يقوم على قاعدة مؤداها: إذا اختفى الصراع المسلح بين إسرائيل والعالم العربى، ظهر الصراع الاجتماعى المكتوم والمقيد إلى السطح.

٢ - ونتوقع أن تكون حرب أكتوبر لها وقع شديد على مسار الصراعات السابقة والحالية بين أجيال الصفوة السياسية الإسرائيلية الحاكمة. وقد تكون الحرب هى المعول الذى سيأتى على آخر الأرصدة المتبقية للحرس القديم الإسرائيلى. ولعل صيحة يورى افنيرى "هل نترك حكامنا يردون على قضايا جديدة بأجوبة قديمة؟"، تشير إلى اتجاهات الصراع العنيف الذى سيشتد فى المرحلة القادمة، بين الصفوة الإسرائيلية التقليدية، والصفوة الشابة التى يكافح أعضاؤها لكى يأخذوا فرصتهم فى الحكم واتخاذ القرار. وقد تكون طبيعة المرحلة القادمة، التى لن يتاح فيها لإسرائيل ممارسة دورها القديم الذى سقط فى أكتوبر ١٩٧٣، هى الأرضية التى قد تسمح لأعضاء هذه الصفوة بان تزحف إلى الصفوف الأولى.

أما الصراع بين الصفوة السياسية وجماهير الشباب الإسرائيلى، فيتوقع أن تزداد حدته نتيجة للنتائج المخيبة للآمال التى حققها الجيش الإسرائيلى فى ميدان القتال، ولتساقط كثير من الدعاوى والأساطير الإسرائيلية.

٣ - أن مظاهر الاغتراب والتفكك الاجتماعى، يتوقع أن تزيد حدتها فى المرحلة المقبلة، ما لم تحدث عملية إعادة صياغة خلاقة لنسق القيم فى المجتمع الإسرائيلى، حتى تكون أكثر إنسانية. غير أن هذه عملية بالغة التعقيد، يختلط فيها الوعى الزائف بالوعى الحقيقى، وتؤثر عليها ارتباطات تاريخية وعاطفية بقيم قديمة قام عليها

المشروع الصهيونـي منذ البدايـة. ولذلـك لا نتوقـع أن تتـم هـذه العمليـة فـي المـدى القريب مما سيترتب عليه شيوع حالة من حالات "تصدع القيم Anomie". حيث يفتقر الناس إلى مستويات خلقيـة للحكم علـى السلوك الاجتمـاعى. الأيديولوجـى القديـم، واكتمال ملامح المجتمع الصناعى الاستهلاكى الجديد، بما يتضمنه من تفاوت طبقى حاد، مما يؤدى إلى شيوع مشاعر الإحباط القاسية لدى أعضـاء الفئـات الاجتماعيـة المحرومة.

غير أنه أخطر من ذلك كله، نتوقع أن تزداد حده الاتجاه السلبى الذى كـان سـائدا بين الشباب الإسرائيلى من قبل إزاء الحرب. فحرب أكتوبر، بما تضمنه من سـقوط آلاف القتلى الإسرائيليين ستترك آثارا عميقة فى وعى الشباب الإسـرائيلى، سـتؤدى إلى الاقتناع بعبث السياسة الإسرائيلية التقليدية.

٤ – وتبقى أخيرا التغيرات التى ستطرأ على نظرة الإسرائيليين إلى العرب. لقـد مضى الزمن الذى كان يمكن فيه التهوين من شأنه العربى، والتلويح بعجزه وتخلفه، فمن خلال معارك أكتوبر، تساقطت الأوهام الإسرائيلية، وظهرت الحقائق العربية.

وخلاصة دراستنا، أن حرب أكتوبر، ستكون بدايـة لتغييرات واسعة المـدى فـى بنية المجتمع الإسرائيلى. وفى نسـق القيـم الـذى يصـدر عنـه، فـى الاتجاهـات التـى تسود بيـن الإسـرائيليين، غـير أن التغيرات الاجتماعيـة، لابـد لهـا أن تتفـاعل عـبر مراحل زمنية كاملة، حتى تظهر آثارها.

الفصل الثالث

اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى

المبادرة واتجاهات الرأى العام الإسرائيلى(*)

ليس هناك من شك، فى أن المتابعة الدقيقة لاتجاهات الرأى العام الإسرائيلى إزاء قضايا الحرب والسلام، مسألة بالغة الأهمية. ذلك لأن هذه الدراسة، من شانها أن تجعلنا نفهم تأثير الصفوة السياسية، على تشكيل وصياغة الرأى العام. وأبعد من ذلك، تستطيع أن تحصل على صورة دقيقة لمكونات عملية التنشئة السياسية، من هذه الدراسة. فالموقف من العرب بوجه عام، والاتجاهات إزاء الحرب والسلام، والموقف من الأراضى العربية المحتلة، والموقف من الاستيطان الإسرائيلى، كل هذه الأمور تستطيع بدراستها، أن تصل إلى نتائج متعددة.

وقد أتيح لنا أن نحلل نتائج القياس الشامل للرأى العام الإسرائيلى الذى أجراه معهد البحوث التطبيقية فى إسرائيل الذى يرأسه عالم النفس الإسرائيلى المعروف لويس جوتمان. واستطعنا فى ضوء الدراسة النقدية للجداول البسيطة، والجداول العرضية التى استخرجت بوساطة الحاسب الإلكترونى، أن نصل إلى نتائج هامة تتعلق بالاتجاهات الأساسية للإسرائيليين، إزاء مختلف قضايا الصراع.

ودراستنا الراهنة، تتضمن ثلاثة مباحث أساسية، فى المبحث الأول، نعالج الثوابت والمتغيرات فى الرأى العام الإسرائيلى من خلال عرض عام للنتائج، وفى المبحث الثانى، نناقش الانتماءات الحزبية والاتجاهات السياسية وفى المبحث الثالث والأخير، نناقش كيف تشكل الرأى العام الإسرائيلى.

(*) مجلة السياسة الدولية ، عام ١٩٧٨.

المبحث الأول: الثوابت والمتغيرات فى الرأى العام الإسرائيلى:

تجرى فى عديد من الدول قياسات منتظمة للرأى العام إزاء موضوعات متعددة، اجتماعية أو سياسية. غير أن قياسات الرأى العام السياسية، عادة ما تستحوذ على اهتمام الجماهير خصوصا إذا ما تمت فى لحظات حاسمة. ومن بين هذه القياسات السياسية، ما تم لغرض معرفة اتجاهات الجماهير إزاء السياسة الخارجية التى تطبقها حكومة ما. غير أن خطورة هذه القياسات، تظهر حين تطبق فى بلد منغمس فى صراع عنيف مع بلد أو بلاد أخرى.

ومن هنا تبدو الأهمية القصوى لتحليل قياس الرأى العام الإسرائيلى، الذى أجراه معهد البحوث التطبيقية فى إسرائيل، بعد زيارة الرئيس السادات للقدس.

ولابد لنا أن نشير، منذ البداية، أننا نقف موقفا نقديا من الطريقة التى دأب هذا المعهد على انتهاجها فى تحليل نتائج قياساته السياسية المستمرة. فهو يقنع بمجرد رصد التغيرات التى تحدث فى اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى من فترة إلى أخرى، أو بعد حادث بالغ الأهمية، مثل زيارة الرئيس السادات. غير أنه نادرا ما يتجاوز هذا المستوى السطحى من التحليل، لينفذ إلى أسباب التغيير من ناحية، وقبل ذلك إلى أسباب تكون الاتجاه من الأصل من ناحية أخرى.

كيف تصاغ الاتجاهات السياسية؟

إن الاتجاهات السياسية للرأى العام - فى أى بلد - ومن باب أولى فى إسرائيل، تتأثر تأثرا بالغا بعديد من العوامل أهمها: الأيديولوجية السائدة المطبقة فى المجتمع، ونوعية الطبقات الحاكمة وخياراتها السياسية، ونمط التنشئة الاجتماعية الذى تفرضه الصفوة السياسية من خلال النظام التعليمى ووسائل الأعلام.

- وينطبق ذلك كله بشكل بارز على المجتمع الإسرائيلى، فهو مجتمع يتبنى أيديولوجية هى الصهيونية، التى دخلت منذ زمن بعيد فى صراع عنيف مع أيديولوجية أخرى هى القومية العربية.

ومن ناحية أخرى، يسيطر على هذا المجتمع صفوة سياسية مكونة أساسا من اليهود الغربيين، الذين صاغوا نمطا متماسكا من الأفكار المعادية للعرب، كجنس وأمة وشعب ومجتمع. وفرضوا هذه الأفكار من خلال وسائل الأعلام والنظام

التعليمى.

وأبعد من هذا، استطاعت هذه الصفوة - تحقيقا لأهدافها السياسية التوسعية - أن تخلق فى ذهن الجماهير عددا من الأساطير، التى أصبحت ترقى إلى مرتبة الحقائق. من بين هذه الأساطير، أن الأرض العربية المحتلة هى الضمان الأساسى لأمن إسرائيل. فكان التخلى عن الأرض - فى إطار مفاوضات سياسية - يعرض إسرائيل للخطر. واخطر من هذا أسطورة أخرى مبناها: أنه يمكن تحقيق السلام مع العرب بغير حاجة إلى إرجاع كل الأراضى المحتلة.

كيف أجرى البحث؟

فى ضوء هذه المقدمة، نستطيع أن نبدأ فى مناقشة النتائج الأساسية لهذا القياس السياسى الهام. وقد طبقت استمارة بحث على ٥٢٦ إسرائيليا منهم ٢٥٦ رجلا ٢٦٥ امرأة، وتتكون الاستمارة من جزءين: الأول يحوى عددا من الأسئلة عن الشخص المبحوث نفسه [حوالى ٢٠ سؤالا] والثانى يحوى عددا من الأسئلة عن اتجاهاته السياسية [حوالى ٦٤ سؤالا] ومن بين هذه الأسئلة، حوالى ١٨ سؤالا تدور حول ردود فعل أفراد العينة إزاء زيارة الرئيس السادات، للقدس، وحوالى سبعة أسئلة لقياس اتجاهاتهم إزاء الولايات المتحدة الأمريكية، ونحو تسعة أسئلة حول اتجاهاتهم إزاء الأرض المحتلة والسلام، بالإضافة إلى أسئلة أخرى حول موقفهم من المقاومة الفلسطينية ومؤتمر جنيف، إلى غير ذلك وينبغى علينا أولا أن نعرض لمناخ الرأى العام الإسرائيلى قبل زيارة الرئيس، حتى نستطيع أن نقيس حجم التغييرات واتجاهاتها.

مناخ الرأى العام الإسرائيلى قبل الزيارة

من الأهمية بمكان، لتقدير مدى الدهشة والتفاؤل قبيل زيارة الرئيس للقدس وبعد إعلانها، معرفة ما هى الاتجاهات السياسية الثابتة نسبيا لدى الرأى العام الإسرائيلى والتى سادت فى الحقبة من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٧، وطبقا لدراسات معهد البحوث الاجتماعية التطبيقية فى إسرائيل، فإن هذه الحقبة شهدت تدعيما من جانب الرأى العام الإسرائيلى للسياسة الخارجية للحكومة، ذلك أن ٨٠٪ من العينات التى تم

بحثها، وافقت على ـ إرات الحكومة بالذهاب إلى جنيف، وعلى توقيع اتفاقيات فض الاشتباك، وعلى الانسحاب من الجانب الأكبر من سيناء، ومن بين الاتجاهات السائدة أيضا، أن العرب لديهم الرغبة فى تدمير إسرائيل، وأن السوفييت سيساعدون العرب لتحقيق هذا الهدف.

ومن ناحية أخرى. ساد الاتجاه الواثق فى إخلاص الولايات المتحدة لإسرائيل ودعمها السياسى، بالرغم من بزوغ اتجاه سياسى فى الأونة الأخيرة، يذهب إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، تضغط على إسرائيل أكثر مما ينبغى، لتحقيق انسحابات واسعة، ولقبول فكرة إنشاء دولة فلسطينية.

وبالرغم من أن الرأى العام الإسرائيلى لا يرى ثمة رابطة بين إرجاع الأرض المحتلة للعرب وتحقيق السلام، إلا أن أجزاء منه على الأقل، أبدت استعدادا للتنازل عن الأرض إذا ما تحقق السلام بالفعل. غير أن الإسرائيليين مجمعون على أن القدس ينبغى أن تكون جزءا لا ينفصل أبدا عن إسرائيل. بالإضافة إلى ذلك فإن الاتجاه الإسرائيلى العام، يميل إلى ضرورة مقاومة الضغوط السياسية، حتى ولو مارستها الولايات المتحدة الأمريكية للرجوع إلى حدود ١٩٦٧. وأخيرا يوافق الرأى العام الإسرائيلى الحكومة فى رفضها التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، وفى رفضها فكرة إنشاء دولة فلسطينية بين الأردن وإسرائيل.

الرأى العام الإسرائيلى بعد الزيارة

فى ضوء ما سبق، نستطيع أن نقيس حجم التغير فى الرأى العام الإسرائيلى بعد الزيارة، من خلال عرضنا لنتائج البحث الخاصة بتقديم زيارة السادات، والاتجاهات إزاء الأرض المحتلة والسلام.

١-اتجاه الرأى العام الإسرائيلى إزاء مصر:

يمكن القول، بتحليل إجابات الإسرائيليين على الأسئلة التى وجهت لهم عن نوايا الرئيس السادات إزاء إسرائيل، وعن اتجاه مصر نحو السلام، أنه قد حدث تغير ملموس فى الرأى الإسرائيلى بعد الزيارة. ففى سؤال مضمونه: **أعلن الرئيس المصرى السادات، أنه مهتم بإقامة سلام مع إسرائيل. فهل يؤمن بأنه بالفعل ينوى ذلك؟**

وأجاب ٤٥٢ شخصا بأنهم يؤمنون بذلك وأجاب ٧١ شخصا فقط بأنهم لا يؤمنون بذلك، وهناك ثلاث إجابات غير مبينة من مجموع ٥٢٦ حالة. ومعنى ذلك أن الغالبية العظمى أصبحت تثق فى النوايا المصرية.

– **وفى سؤال آخر مضمونه: "إلى أى درجة تقتنع بالتزام مصر بهذا الأمر: أن النزاع بينها وبين إسرائيل لن يحل إلا بالطرق السياسية".**

أجاب ٣٤٥ شخصا بأنهم مقتنعون وأجاب ١٥١ أنهم غير مقتنعين، وأجاب ٢٠ شخصا بأنهم لا يعرفون، وهناك عشر إجابات غير مبينه، ومعنى ذلك أن الغالبية العظمى مقتنعة برغبة مصر فى حل الصراع سياسيا.

– وعن سؤال مضمونه: هل تعتقد أن زيارة الرئيس السادات ستؤدى إلى تحسين العلاقات بين مصر وإسرائيل؟ أجاب ٥٠٣ أشخاص بأنهم يعتقدون ذلك وأجاب ١٤ شخصا بأنهم لا يعتقدون ذلك، وهناك ٩ إجابات غير مبينه.

– أما عن الإدراك الإسرائيلى لدور مصر فى المنطقة فيظهر واضحا من سؤال مضمونه: **فى ضوء التطورات السياسية والعسكرية فى منطقتنا، إلى أى مدى توافق على الرأى التالى: "أن مصر كدولة عربية قائدة، يمكنها أن تجعل سائر الدول العربية موافقة على اتجاه أو فكرة التعايش مع إسرائيل"** أجاب ٤١١ شخصا بأنهم يوافقون على ذلك، وأجاب ٩٨ حالة أنهم لا يوافقون وهناك ١٧ إجابة غير مبينة.

غير أن من الأهمية بمكان، أن تشير إلى استمرارية الخط المتشدد لدى الرأى العام الإسرائيلى إزاء عديد من القضايا. ففى سؤال مضمونه: **"تتنازل إسرائيل عن العديد من الأراضى الواقعة تحت سيطرتها حتى بدون مقابل من مصر"**، أجاب ٤٦٤ شخصا أنهم لا يوافقون، وأجاب ٥١ شخصا بأنهم موافقون وهناك ١١ إجابة غير مبينة.

الاتجاهات إزاء الأرض المحتلة والسلام

فى هذا المجال، على وجه الخصوص، تتضح سياسة الخط المتشدد لدى الرأى العام الإسرائيلى الذى تمت بلورته تحت تأثير تصريحات الزعماء السياسيين الإسرائيليين والقادة العسكريين، ومن خلال عملية غسيل المخ التى مارستها باقتدار

لاشك فيه وسائل الاعلام الإسرائيلية بتأثير كل هذا استطاعت الصفوة الإسرائيلية الحاكمة، أن تضع فى ذهن الرأى العام الإسرائيلى أن إرجاع الأراضى العربية المحتلة إلى العرب فيه خطورة بالغة على إسرائيل.

– فى سؤال مبناه: **"بالنسبة للأراضى الواقعة تحت سيطرة إسرائيل منذ حرب الأيام الستة، ما هو أقصى حد للتنازل فى رأيك يجب عمله، وذلك للوصول إلى اتفاق سلام مع الدول العربية"؟**

أجاب ٢٦٧ شخصا بأنه يمكن التنازل عن جزء من هذه الأراضى. وفى الطرف المضاد أجاب ١٤ شخصا بأنه يمكن التنازل عن جميع الأراضى للوصول إلى اتفاقية سلام. ورأى ١٤٥ شخصا التنازل عن جزء صغير فقط من هذه الأراضى، ٦٤ شخصا رأوا التنازل عنها كلها تقريبا فى مقابل بعض تعديلات طفيفة فقط. ورأى ٢٨ شخصا عدم التنازل عن أى منطقة بدون استثناء، وهناك ٨ إجابات غير مبينة.

– وفى سلسلة من الأسئلة المحددة، سئل أفراد البعثة عن اتجاهاتهم إزاء إرجاع الضفة الغربية، وسيناء وشرم الشيخ، والجولان، والقدس. ومن الأهمية بمكان دراسة وتحليل هذه الاتجاهات فى كل حالة على حدة.

– بالنسبة للضفة الغربية: ٣١٣ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا، ١٢٥ شخصا يوافقون على إعادة جزء محدد، ٩٥ شخصا يوافقون على إعادة جزء صغير، ٣٨ شخصا يرون إعادة معظمها، ٤٠ شخصا يرون إعادتها كلها، وهناك ١٥ إجابة غير مبينة.

– بالنسبة لشبه جزيرة سيناء: ١٦٦ شخصا يوافقون على إعادتها كلها، ١٣٤ شخصا يوافقون على إعادة معظمها، ١٣٣ شخصا يوافقون على إعادة جزء محدد، ٤٦ شخصا يوافقون على إعادة جزء صغير، ٣٩ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا، وهناك ٨ إجابات غير مبينة.

– بالنسبة لشرم الشيخ: ٣٥٧ شخصا غير مستعدين للتنازل إطلاقا، ٦٣ يرون إعادتها كلها، ١٩ شخصا يرون إعادة معظمها، ٣٦ شخصا يرون إعادة جزء محدد، ٣١ شخصا يرون إعادة جزء صغير منها، وهناك ٣٠ إجابة غير مبينة.

ومن هنا يظهر تأثير تصريحات القادة السياسيين على صياغة الرأى العام

الإسرائيلي. فقد تكفل موشى ديان بزرع فكرة أن الاحتفاظ بشرم الشيخ على حساب السلام، أفضل لإسرائيل من السلام على حساب التخلى عن شرم الشيخ. وقد أثر ذلك فعلا على الرأى العام كما يظهر من النتائج وإلا فما الذى يعرفه الرأى العام الإسرائيلى عن الأهمية الاستراتيجية لشرم الشيخ بالنسبة للأمن الإسرائيلى المزعوم.

- بالنسبة للجولان: ٣٢٤ شخصا غير مستعدين للتنازل إطلاقا، ٢٨ شخصا يرون إعادتها كلها، ٩ أشخاص يرون إعادة معظمها، ٧١ شخصا يرون إعادة جزء محدود، ٤٨ شخصا يرون إعادة جزء صغير، وهناك ١٠ إجابات غير مبينة.

- بالنسبة للقدس الشرقية: اتجه ٣٩٩ شخصا إلى ضرورة أبقائها تحت سيادة إسرائيل فقط، واتجه ١٠٩ أشخاص إلى الموافقة على حكم مشترك لها بين الأردن وإسرائيل، واتجه ٨ أشخاص إلى إعادتها تحت سيادة الأردن، مع التصريح لمواطنى إسرائيل بالبقاء فيها، وأخيرا رأت الأقلية [٤ أشخاص] إعادتها تحت سيادة الأردن. وهناك ٦ إجابات غير مبينة.

- ولعل خير مايعبر عن الصراع الذى يدور فى الوقت الراهن داخل تيارات الرأى العام الإسرائيلى، بين الموافقة على إرجاع الأراضى المحتلة للعرب، للحصول على السلام، أو محاولة الحصول على السلام، بغير إرجاع كل الأراضى المحتلة للعرب، بحجة ضمانات الأمن الإسرائيلى، هو هذا السؤال الذى مبناه: **"هناك من يقولون أنه - حتى الوصول إلى حل سلمى مع العرب - يجب عدم الرجوع إلى حدود ما قبل ١٩٦٧، حتى مع التعديلات الطفيفة، فالى أى درجة توافق أو تعارض هذا الرأى؟".**

أجاب ٣٨٤ شخصا أنهم يوافقون على عدم الرجوع إلى حدود ما قبل ١٩٦٧، وأجاب ٢٣١ شخصا أنهم يوافقون على الرجوع إلى هذه الحدود، وهناك ١١ إجابة غير مبينة.

والفروق بين الموافقين والمعارضين، ليست ذات دلالة فى الحقيقة، مما يدل على أن الصراع حول هذا الموضوع الحيوى، قد أخذ يشتد فى إسرائيل بتأثير المتغيرات الجديدة التى دخلت على الموقف بعد زيارة الرئيس.

الثوابت والمتغيرات فى الرأى العام الإسرائيلى:

يصح لنا أن نتساءل فى ختام عرضنا الوجيز لأبرز نتائج هذا القياس السياسى الإسرائيلى الهام، عن: ما هى الثوابت وما هى المتغيرات فى الرأى العام الإسرائيلى، بعبارة أخرى ما هى الاتجاهات التى ظلت على حالها حتى بعد زيارة الرئيس، وما هى الاتجاهات التى تغيرت؟ وفقا لدراسة بحثها الدكتور لويس جوتمان بعنوان "القيادة إزاء الأحداث" لخص الثوابت والمتغيرات فى الرأى العام الإسرائيلى كما قيست حتى ٢ ديسمبر ١٩٧٧، وصنفها فى أربع فئات رئيسية: اتجاهات يلتف حولها غالبية الرأى العام الإسرائيلى، واتجاهات أخذت تظهر وتتبلور بعد زيارة الرئيس للقدس، وقضايا تحطم بصددها الإجماع القديم، ومازال الرأى العام الإسرائيلى منقسما حولها، وقضايا لم يكن حولها إجماع لا قبل زيارة الرئيس ولا بعدها.

الاتجاهات الغالبة:

هذه الاتجاهات يتبناها حوالى ٨٠٪ من الرأى العام الإسرائيلى، وصمدت للزمن، بغض النظر عن توالى الأحداث بما فيها زيارة الرئيس للقدس:

١ - تستطيع إسرائيل مجابهة الصراع الراهن، وأن تعيش فى المستقبل.

٢ - تستطيع إسرائيل أن تواجه الموقف العسكرى.

٣ - نيات روسيا تهدف للأضرار بإسرائيل.

٤ - نيات الولايات المتحدة الأمريكية مساعدة إسرائيل.

٥ - ينبغى على إسرائيل أن تذهب إلى جنيف.

٦ - سوريا ليست مهتمة بتحقيق سلام مع إسرائيل.

٧ - إرجاع الأراضى المحتلة لا صلة بينه وبين الوصول إلى السلام.

٨ - جزء كبير من سيناء ينبغى أن يرجع لمصر.

٩ - لا رجوع إلى حدود ١٩٦٧.

١٠ - وضع القدس ينبغى أن يظل كما هو.

١١ - لا ينبغى أن تنشأ دولة عربية مستقلة فى الضفة الغربية.

١٢ - إنشاء دولة فلسطين فى الضفة الغربية، يهدد بالخطر أمن إسرائيل.

١٣ - لا مفاوضات مع عرفات أو مع منظمة التحرير الفلسطينية.

١٤ - السلام الحقيقى يتضمن بالضرورة، حدودا مفتوحة للتجارة والسياحة وممارسة العلاقات الدبلوماسية والعادية.

اتجاهات ظهرت بعد زيارة الرئيس:

١ - مصر مهتمة بسلام حقيقى مع إسرائيل.

٢ - هناك الآن زيادة موضوعية فى إمكانية السلام مع البلاد العربية.

٣ - على إسرائيل أن تحاول ممارسة المفاوضات المباشرة مع العرب، بغير انتظار للولايات المتحدة الأمريكية للتوسط.

٤ - هناك الآن إمكانية لإنهاء حالة الحرب مع مصر.

٥ - قد تستطيع مصر أن تقود البلاد العربية نحو التعايش السلمى مع إسرائيل.

٦ - هناك إمكانية للاتفاق مع مصر بغير إجراء مفاوضات مع سوريا.

٧ - لن تكون هناك حرب مع سوريا خلال العام أو العامين القادمين.

٨ - على إسرائيل أن تصر على مفاوضات مباشرة مع الدول العربية.

قضايا تحطم بصددها الإجماع القديم:

١ - هل ستنشب حرب مقبلة مع الدول عربية؟ [الإجماع القديم كان "نعم"]

٢ - هل غرض الدول العربية هو تدمير إسرائيل؟ [الإجماع القديم كان "نعم"]

٣ - هل يمكن أن تؤدى جنيف إلى سلام حقيقى؟ [الإجماع القديم كان "لا"]

٤ - بعد كل ما حدث الآن، هل البلاد العربية راغبة فى مناقشة السلام الحقيقى مع إسرائيل؟ [الإجماع القديم كان "لا"]

قضايا لم يكن حولها إجماع:

١ - ما الذى يمكن عمله فى الضفة الغربية؟ [مع الوضع فى الاعتبار أن إسرائيل لن تسمح بإنشاء دولة مستقلة فيها؟]

٢ - ما الذى يمكن عمله مع غزة؟

ما الذى يمكن أن نستخلصه من العرض السابق؟

لعل أهم نتيجة هى أن الرأى العام الإسرائيلى، الذى أثر تأثيرا بالغا على الاتجاهات الأساسية إزاء قضايا الحرب والسلام سببه سلوك الصفوة السياسية والعسكرية الإسرائيلية الذى مازال متمسكا بعديد من المواقف العدائية إزاء البلاد العربية. غير أن هذه المواقف كما أثبت البحث، قابلة للتغيير، كما حدث بعد رحلة الرئيس السادات للقدس التى تعتبر نقطة تحول تاريخية فى الصراع العربى الإسرائيلى. بيد أن الفهم المتعمق لاتجاهات الرأى العام الإسرائيلى، لا يمكن أن تتم إلا فى ضوء تحليله إلى عناصره الأساسية بعبارة أخرى فى ضوء التفرقة بين الأجيال الإسرائيلية المختلفة، وبين الطبقات الاجتماعية المتصارعة. وبين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، وبين الأحزاب السياسية المتناحرة. وهذا ما سنحاول أن نعالجه فى فصول قادمة.

المبحث الثانى: الانتماءات الحزبية والاتجاهات السياسية:

حين يتعرض الباحث لإسرائيل: الشخصية القومية، أو المجتمع، أو آراء الصفوة السياسية، أو اتجاهات الرأى العام، فليست المهمة سهلة ولا ميسورة. ذلك أننا سرعان ما نصطدم بكيان له سمات بالغة الخصوصية. على السطح، يبدو للنظرة غير المتأملة، أن إسرائيل مجتمع متقدم، يسوده نظام سياسى ينهض على مبادئ الليبرالية الغربية، حيث نجد تعدد الأحزاب وأحزاب الأغلبية وأحزاب المعارضة، بل وحتى نجد تعدد الأصوات فى مجال الصحافة. غير أنه لو تجاوزنا هذا المستوى السطحى، ونفذنا إلى الأعماق، لوجدنا أن هذا التجمع يحفل بعديد من الظواهر التى تتناقض تناقضا رئيسيا مع انطباعات النظرة الأولى. فالشخصية الإسرائيلية زاخرة فى صميمها باتجاهات سلبية - ولا نريد أن نقول مرضية - سواء تجاه الذات وتجاه الآخرين، وهى شخصية تبلور فيها أرث العداء للسامية عبر القرون، بما فيه من ردود أفعال اليهود تجاه "الأغيار" والذى تحول ليصبح شكا فى الذات وفى الآخرين. وحين تحلل آراء الصفوة السياسية، فأنت تحارا فى عالم يموج بالأوهام والأساطير وأنصاف الحقائق.

ماذا تفعل حين تقرأ على لسان بعضهم، أنه طوال الثلاثين عاما الماضية، كان

العرب هم البادئون بالعدوان على إسرائيل؟ وأين الحقيقة فى قول مناحم بيجين بكل بساطة إنه - المولود فى بولندا - والذى لم يهاجر إلى فلسطين إلا فى الأربعينيات فلسطينى يهودى، وإن أراضى الضفة الغربية العربية إنما هى أراضى محررة، اسمها يهودا وسامرة (طبقا للتوراة)، وهى جزء من أراضى إسرائيل الكبرى. وإذا انتقلوا إلى التحليل السياسى لأحداث الصراع، زيفوها وأعطوها ما شاعوا من تحليلاتهم غير الحقيقة، فعدوان ١٩٦٧ لم يكن حربا عدوانية مدبرة ومخططة ضد مصر والدول العربية، ولكنها كانت - وعلى عكس ما صرح به الجنرالات الإسرائيليون بعد الحرب - حربا دفاعية! ولأنها كانت حربا دفاعية، فذلك يجيز طبقا لقواعد القانون الدولى - فى زعمهم - أن يستولوا على الأقل، على أجزاء ذات بال من الأراضى التى احتلوها بالقوة!

وإذا وصلنا أخيرا للرأى العام الإسرائيلى لوجدنا أنه ضحية عمليات غسيل المخ المستمر، التى قام ويقوم وسيقوم بها الزعماء السياسيون والقادة العسكريون، لدرجة جعلت مختلف فئات الإسرائيليين، لا تفكر سياسيا بشكل متسق، وإنما تبدو كما لو كانت تفكر من خلال إطار فصامى (شبيه بانفصام الشخصية)! وليس أدل على ذلك من أن تذهب الغالبية إلى أنه يمكن لإسرائيل أن تحقق السلام، وفى نفس الوقت تحتفظ بالأراضى العربية المحتلة!

الشخصية الإسرائيلية واتجاهات الرأى العام:

لا يمكن فهم اتجاهات الرأى العام فى أى بلد - وينطبق هذا بالطبع على إسرائيل - بغير الفهم العميق لمكونات الشخصية القومية. ويقرر الباحث الأمريكى المعروف جابريل الموند بهذا الصدد أن "الاتجاهات والآراء إزاء مسائل السياسة الخارجية، لا ينبغى أن تفهم فقط بحسبانها استجابات لمشكلات ومواقف موضوعية، ولكن على أساس أنها تتحدد وفقا للسمات الثقافية للشخصية، إن ردود الفعل غير الواعية وأنماط السلوك، غالبا ما تؤثر على إدراك واختيار وتقويم الحقائق السياسية، ونجد أنه على مستوى الرأى العام، فإن هذه السمات النفسية الثقافية تحدد أنماط التفكير والنزعات إزاء مشكلات السياسة الخارجية، أما على مستوى الصفوة فهى تؤثر على نمازج صنع القرار".

أن هذه العبارة فى رأينا، تضع مبدأ منهجيا هاما: لكى تفهم الرأى العام لابد لك

من فهم الشخصية القومية.

وإذا كان هذا صحيحا، فما هى السمات الأساسية للشخصية الإسرائيلية؟

- بغير دخول فى كثير من التفصيلات، يمكن القول إن الشخصية الإسرائيلية التى تتبلور بالتدريج تتمايز عن "السمات اليهودية" التقليدية، تتسم بعدد من الخصائص البارزة. أولى هذه الخصائص، هى أن "السمات اليهودية" التقليدية، قد انتقلت إلى الهوية الإسرائيلية البازغة. ويرى بعض المحللين النفسيين اليهود، أن هذه السمات التى يمكن استخلاصها من تحليل التاريخ اليهودى، تتعلق بنظرة اليهود إلى أنفسهم، باعتبارهم كانوا دائما أقلية مضطهدة. ومن بين هذه السمات: القلق، والإحساس بالدونية، وعدم الثقة فى غير اليهود.

وقد لاحظ عدد من علماء النفس الأمريكيين، سيادة مشاعر الشك فى الشخصية الإسرائيلية، الذى كان نتيجة إحساسهم بتفردهم وامتيازهم من ناحية (تذكر عبارات بيجين الشهيرة فى الكنيست ردا على الرئيس السادات عن العبقرية اليهودية!)، وخضوعهم لغير اليهود من ناحية أخرى.

غير أن الإحساس بالدونية، تحول لكى يصبح إحساسا بالعظمة والتفوق لدى الإسرائيلى تجاه باقى العالم.

ويلخص عالم النفس اليهودى روبنشتين سمات هذا الشك العميق الجذور تجاه الآخرين، حين يقرر أنه يكشف عن نفسه فى أى تعامل مع العالم الخارجى على مستويات ثلاثة: الشك الموجه ضد العرب، والشك الموجه ضد العالم غير اليهود، والشك الموجه ضد النظم والأجهزة الدولية (الأمم المتحدة).

غير أن الحديث الإجمالى عن الشخصية الإسرائيلية، لا ينبغى أن ينسينا التفرقة الأساسية بين الأجيال، ونعنى جيل السابرا (اليهود الذين ولدوا على أرض إسرائيل) وغيرهم من اليهود المهاجرين إلى إسرائيل.

وأيضا بين اليهود الشرقيين والغربيين، وأخيرا بين المتدينين وغير المتدينين.

فهذه الأبعاد غالبا ما تكون السمات النفسية والاتجاهات إزاء قضايا الحرب والسلام بأشكال خاصة من المهم رصدها وتحليلها. غير أن تأثير الشخصية الإسرائيلية ليس سوى عامل واحد من أبعاد تشكيل الرأى العام الإسرائيلى، يضاف إليه عامل آخر يمكن أن تطلق عليه المشكلة الإسرائيلية.

المشكلة الإسرائيلية

بالرغم من أهمية الأبعاد النفسية - الثقافية المتمثلة فى النموذج المحدد للشخصية الإسرائيلية، فإن ما يطلق عليه "المشكلة الإسرائيلية" تكاد تفوق فى أهميتها هذه الأبعاد النفسية. إن المشكلة الإسرائيلية تتمثل أساسا فى التناقض الحاد بين الأيديولوجية المعلنة، وبين الحقائق السياسية والاجتماعية. الصهيونية - فى نظر الإسرائيليين - حركة بارزة من حركات التحرر الوطنى! وهى كما تظهر فى كتابات الأحزاب العمالية الإسرائيلية، تتلون بصبغة اشتراكية، حيث الهدف هو إقامة مجتمع يقوم على الديمقراطية والمساواة. غير أن الواقع يقول إن المناخ الذى يسود فى إسرائيل، مناخ يقوم على التعصب، بالإضافة إلى التحصن وراء ثقافة منغلقة، والانغماس فى ممارسة إجراءات شمولية قهرية ضد السكان العرب. وكل هذا يتنافى مع المبادئ المعلنة. وأبعد من هذا، هناك خلاف ثقافى حاد ينعكس على الاتجاهات السياسة إزاء السلام والعلاقات مع العالم العربى. محور هذا هل تندمج إسرائيل فى الحضارة الإنسانية المعاصرة، بكل ما يتضمنه ذلك من فتح حدودها المادية والمعنوية من خلال ممارسة علاقات سوية مع باقى الشعوب، ومع الشعب العربى على وجه الخصوص، أم ستظل منعزلة ومنغلقة داخل قوقعتها الجيتوية المحصنة، اعتمادا على آلتها الحربية المتضخمة.

هذه الأسئلة الجوهرية، مازالت تتردد فى جنبات العقل الإسرائيلى، ومازالت البلبلة والحيرة سائدة. دولة يهودية نقية تقوم على أغلبية إسرائيلية محصنة، وتمارس علاقاتها مع جيرانها من منطق القوة، أم دولة منفتحة تلتهم ما تستطيع من الأراضى العربية، بكل ما يتضمنه ذلك من خطر تحول الأقلية العربية إلى أغلبية، وتحول الأقلية الإسرائيلية لكى تحكم بالقوة والقهر، مستندة إلى الدعاوى العنصرية الخاصة بالعبقرية والسمو الإسرائيليين، وانخفاض الموهبة والتخلف لدى العرب؟ أسئلة مازالت مفتوحة ولم يتوصل الإسرائيليون إلى إجابات حاسمة بصددها.

الإطار السياسى فى إسرائيل:

أشرنا إلى الشخصية الإسرائيلية والمشكلة الإسرائيلية، ودورهما فى تشكيل الرأى العام الإسرائيلى، بقى أن نشير إلى الإطار السياسى فى إسرائيل.

لا يمكن فهم الإطار السياسى إلا فى إطار عدد من الملاحظات الأساسية، أهمها أن أغلب الأحزاب السياسية الراهنة فى إسرائيل، هى امتداد للأحزاب السياسية التى كونها المستوطنون اليهود الذين هبطوا إلى فلسطين فى منتصف القرن التاسع عشر. وقد أثرت فى برامج هذه الأحزاب، موجات الهجرة المتتالية التى بلغت حتى إنشاء الدولة، خمس موجات متتالية ابتداء من عام ١٨٨٢ وانتهاء بعام ١٩٤٧ أى قبل إنشاء الدولة بعام واحد.

وهكذا يمكن القول. إن هذه الجذور التاريخية للإطار السياسى الراهن فى إسرائيل، هى التى تقودنا لفهم "القطاعات السياسية" المتناحرة فيها وتتبع الخليط المتشابك من الأفكار المتنوعة عن الاشتراكية والصهيونية والرأسمالية والتعاونية ودولة الرفاهية. وعلى ذلك فالأحزاب السياسية الإسرائيلية، يمكن فى تصنف على أساس محورين معا. محور اليمين اليسار، والمحور الثانى محور المتدينين وغير المتدينين. والنتيجة أنه يمكن الحديث عن اليسار، الوسط، واليمين، وأخيرا الأحزاب الدينية.

الانتماء السياسى والاتجاهات السياسية:

كيف تؤشر الانتماءات السياسية إلى الأحزاب الإسرائيلية المختلفة، على اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى إزاء قضايا الحرب والسلام؟ نستطيع فى ضوء العرض السابق، وبالتحليل المتعمق لبيانات قياس الرأى العام الإسرائيلى الذى أجراه معهد البحوث التطبيقية فى إسرائيل بعد زيارة الرئيس السادات للقدس، أن نقدم صورة موجزة ومتكاملة فى نفس الوقت للموضوع.

اخترنا من بين ١٤ حزبا وتجمعا سياسيا إسرائيليا، خمسة أحزاب قدرنا أنها هى الممثلة الحقيقية للأحزاب الإسرائيلية: جبهة الليكود التى تمثل اليمين، وجبهة المعراخ التى تمثل اليسار العمالى، والمفدال الذى يمثل الأحزاب الدينية، وداش الذى يمثل الوسط، وراكاح الذى يمثل أقصى اليسار.

كانت عينة البحث ٥٢٦ شخصاً. سئلوا سؤالا محددا: فى الانتخابات الأخيرة للكنيست التاسع، إلى أى الأحزاب أعطيت صوتك؟ تبين أن: ١٧٢ شخصاً صوتوا لليكود، ٩٢ شخصا صوتوا للمعراخ، ٣٤ صوتا للمفدال.

٥٦ شخصا صوتوا لداش، ولم يصوت أحد من أفراد العينة لركاح (المجموعة الكلى ٣٥٤ شخصا) وفيما يلى نحلل اتجاهات كل فئة إزاء عدد من القضايا الأساسية المتعلقة بالصراع العربى الإسرائيلى.

أولا – العلاقات الإسرائيلية الأمريكية:

سنكتفى هنا بتحليل إجابات ثلاث أسئلة هامة بين خمسة أسئلة دارت حول العلاقات الإسرائيلية الأمريكية.

– السؤال الأول: هل تعتقد أن الولايات المتحدة تشجع إقامة دولة فلسطينية مستقلة أم لا تعتقد ذلك؟

الليكود: ٩٢ يرون أن الولايات المتحدة الأمريكية تشجع إقامة الدولة، فى حين أن ٦٩ يرون العكس. وهناك ١١ إجابة غير مبينة. (المجموع ١٧٢ شخصا).

المعراخ: ٥٢ من الرأى الأول ٣٤٠ من الرأى الثانى، وهناك ٦ إجابات غير مبينة (المجموع ٩٢ شخصا).

المفدال: ١٧ شخصا من الرأى الأول، ١٤ شخصا من الرأى الثانى، ٣ إجابات غير مبينة (المجموع ٣٤ شخصا).

داش: ٣٧ شخصا من الرأى الأول، ١٥ شخصا من الرأى الثانى، ٤ إجابات غير مبينة (المجموع ٥٦ شخصا).

ومعنى ذلك أن كافة المنتمين إلى الأحزاب السياسية الإسرائيلية، رؤيتهم المحددة أن الولايات المتحدة الأمريكية تشجع إقامة دولة فلسطينية. وقد يكون هذا الإدراك للدور الأمريكى الذى يمكن أن يفسر باعتباره ضغطا على إسرائيل، أحد أسباب تشدد الرأى العام الإسرائيلى فى هذه القضية المحورية.

– السؤال الثانى: هل تعتقد أم لا تعتقد أن الولايات المتحدة ستفرض على إسرائيل حلا سياسيا يجبرها على الانسحاب من جميع الأراضى؟

الليكود: ١١٨ شخصا رأوا أن هناك محاولة لذلك، ٥١ شخصا رأو أنه ليست هناك محاولة لذلك، ٣ إجابات غير مبينة.

المعراخ: ٦٦ شخصا من الرأى الأول، ١٥ شخصا من الرأى الثانى، إجابة غير

مبينة.

المفدال: ٢٣ شخصا من الرأى الأول، ١١ شخصا من الرأى الثانى.

داش: ٤١ شخصا من الرأى الأول، ١٣ شخصا من الرأى الثانى، إجابة غير مبينة.

ومعنى ذلك أن هناك إدراكا سائدا بوجود محاولات أمريكية لإجبار إسرائيل على الانسحاب من جميع الأراضى.

– السؤال الثالث: هل ستضغط الولايات المتحدة على إسرائيل للعودة إلى حدود ما قبل حرب الأيام الستة، وذلك لعقد اتفاق سلام، وهل تعتقد أن الحكومة الإسرائيلية، يجب أولا يجب عليها قبول ذلك؟

الليكود: ١٠٦ أشخاص رأوا أنه لا يجب القبول، ٦٠ شخصا رأوا أنه يجب القبول فى حالة الضغط الشديد، ٦ إجابات غير مبينة.

المعراخ: ٧٠ شخصا من الرأى الأول، ٢٠ شخصا من الرأى الثانى، إجابتان غير مبينتين.

المفدال: ٢٩ شخصا من الرأى الأول، ٥ أشخاص من الرأى الثانى.

داش: ٣١ شخصا من الرأى الأول، ٢٢ شخصا من الرأى الثانى، ٣ إجابات غير مبينة وخلاصة الاتجاهات إزاء دور الولايات المتحدة الأمريكية، أنه مع إدراك أنها تمارس الضغط على إسرائيل لإنشاء دولة فلسطينية، وللانسحاب من الأراضى العربية المحتلة، إلا أن هناك إجماعا بين كافة الأحزاب، على ضرورة عدم الإذعان للضغط الأمريكى.

ثانيا – الموقف من منظمة التحرير وإنشاء دولة فلسطينية:

– هل تعتقد أن إقامة دولة فلسطينية سيشكل خطرا أم لا على أمن إسرائيل؟

الليكود: ١٥٧ شخصا رأوا أنها ستشكل خطرا، ١٤ شخصا رأوا أنها لا تشكل خطرا، وإجابة غير مبينة.

المعراخ: ٧٩ شخصا من الرأى الأول، ١٢ شخصا من الرأى الثانى وإجابة غير مبينة.

المفدال: ٣٠ شخصا من الرأى الأول، ٤ أشخاص من الرأى الثانى.

داش: ٤٦ شخصا من الرأى الأول، ٧ أشخاص من الرأى الثانى، وثلاث إجابات غير مبينة.

ومعنى ذلك أن غالبية المنتمين لكافة الأحزاب السياسية الممثلة فى العينة، يعترضون على إنشاء دولة فلسطينية.

ثالثا– الاتجاه نحو الاستعداد للانسحاب من الأراضى المحتلة:

نقنع هنا بتحليل إجابات سؤالين رئيسين:

– ما هو أقصى حد للتنازل بالنسبة للأراضى التى احتلتها إسرائيل للوصول إلى اتفاق سلام مع العرب؟

الليكود: لم يقبل أى شخص التنازل عنها كلها، ١٦ شخصا وافقوا على التنازل عنها كلها تقريبا، مع بعض التعديلات، ٩٠ شخصا رأوا التنازل عن جزء من الأراضى، ٥٤ شخصا رأوا التنازل عن جزء ضئيل فقط، ١١ شخصا رأوا عدم التنازل إطلاقا، وإجابة غير مبنية.

المعراخ: شخصان وافقا على التنازل عن الأراضى كلها، ١٤ شخصا من الرأى الثانى، ٤١ شخصا من الرأى العام الثالث، ١٤ شخصا من الرأى الرابع. خمسة أشخاص رأوا عدم التنازل إطلاقا، وإجابة غير مبينة.

المفدال: شخص واحد وافق على التنازل عن الأراضى كلها، شخصان من الرأى الثانى، ١٣ شخصا من الرأى الثالث و١٦ شخصا من الرأى الرابع وشخصان رأيا عدم التنازل إطلاقا.

داش: ثلاثة أشخاص وافقوا على التنازل عن الأراضى كلها، ٩ أشخاص من الرأى الثانى، ٢٩ شخصا من الرأى الثالث، ١٢ شخصا من الرأى الرابع، شخص واحد رأى عدم التنازل إطلاقا وإجابتان غير مبينتين.

وخطورة هذه النتائج، تظهر فى أن ستة أشخاص فقط من المجموع الكلى للأعضاء المنتمين لهذه الأحزاب السياسية الأربعة – على اختلاف مسارها – هم الذين يقبلون إرجاع كافة الأراضى العربية، كما أن ١٩ شخصا لا يقبلون إعادة أى جزء من الأراضى المحتلة، ويتوزع الباقون بين الفئات الأخرى.

رابعا– الاتجاه نحو الانسحاب من الضفة الغربية وسيناء:

تحلل هنا إجابات سؤالين

– السؤال الأول: ما هو التنازل الذى تستطيع أن تعطيه إسرائيل من الضفة الغربية مقابل الوصول إلى حل سلمى مع الدول العربية؟

الليكود: ٩ أشخاص رأوا إعادتها كلها، ٩١ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا. وتتوزع الإجابات الباقية بين: ١٠ أشخاص إعادة معظمها، ٢٩ شخصا إعادة جزء محدد، ٢٩ شخصا إعادة جزء صغير، وأربع إجابات غير مبينة.

المعراخ: ٦ أشخاص رأوا إعادتها كلها، ٢٧ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا. خمسة أشخاص من الرأى الثانى، ٢٧ شخصاً من الرأى الثالث، ٢٤ شخصا من الرأى الرابع، وثلاث إجابات غير مبينة.

المفدال: ٩ أشخاص رأوا إعادتها كلها، ٢٣ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا. لا إجابات من الرأى الثانى، خمس إجابات من الرأى الثالث، خمس إجابات من الرأى الرابع.

داش: خمس أشخاص رأوا إعادتها كلها، ١١ شخصا غير مستعدين للتنازل مطلقا، ٩ أشخاص من الرأى الثانى، ١٥ شخصا من الرأى الثالث، ١٢ شخصا من الرأى الرابع، وأربع إجابات غير مبينة.

ومعنى ذلك أنه فى مقابل ٢١ شخصا ينتمون لكل هذه الأحزاب، ويرون إرجاع كل الضفة الغربية، نجد ١٥٢ شخصا يرفضون التنازل عنها كلها. وتتوزع باقى الإجابات حول فئات مختلفة، غير أن الغالبية منها تدور حول عدم الموافقة على إرجاع إلا جزء محدد من الضفة الغربية.

– السؤال الثانى: ما هو التنازل الذى تستطيع أن تعطيه إسرائيل من سيناء مقابل الوصول إلى حل سلمى مع الدول العربية؟

الليكود: خمسون شخصا رأوا إعادتها كلها، ١٤ شخصا غير مستعدين إطلاقا لإعادتها. وتتوزع الإجابات الباقية بين: ٤٥ شخصا إعادة معظمها، ٤١ شخصا إعادة جزء محدد منها، ٢١ شخصاً إعادة جزء صغير، وإجابة غير مبينة.

المعراخ: ٣٣ شخصا رأوا إعادتها كلها، ٧ أشخاص غير مستعدين إطلاقا لإعادتها،

١٧ شخصا من الرأى الثانى، ٢٦ شخصا من الرأى الثالث، ٨ أشخاص من الرأى الرابع.

المفدال: ٩ أشخاص رأوا إعادتها كلها، شخصان غير مستعدين إطلاقا لإعادتها، ٩ أشخاص من الرأى الثانى، ٨ أشخاص من الرأى الثالث، ٦ أشخاص من الرأى الرابع.

داش: ١٨ شخصا رأوا إعادتها كلها، ٤ أشخاص غير مستعدين إطلاقا لإعادتها، ١٩ شخصا من الرأى الثانى، ١٠ أشخاص من الرأى الثالث، شخصان من الرأى الرابع، ٧ إجابات غير مبينة.

ومعنى ذلك، أن الذين يوافقون من إجمالى العينة، على إعادة سيناء كلها عددهم ١١٠ أشخاص، فى مقابل ٢٧ شخصا لا يقبلون إطلاقا إعادتها.

وتتوزع باقى العينة حول فئات متعددة وإذا أردنا أن نلخص أهم نتائج هذه الدراسة التحليلية لاتجاهات الرأى العام الإسرائيلى، فإنها يمكن أن تكون كما يلى:-

١ - يلفت النظر بشكل بارز أولا هذا الاتساق الشديد فى مواقف الأحزاب الإسرائيلية إزاء أبرز قضايا الصراع: الأرض والانسحاب والسلام والمشكلة الفلسطينية، وليس ذلك غريبا فى الواقع. فهى جميعا أحزاب صهيونية، ومهما اختلفت مواقعها على محور اليمين - اليسار، أو محور المتدينين - غير المتدينين، فهى جميعا تنطلق من العقيدة الصهيونية التى تحدد لها السمات الأساسية لرؤيتها السياسية، وتؤثر على خياراتها. قد نجد خلافات هنا أو هناك، غير أنها فى رأينا خلافات خاصة بالتكتيك، وليست متعلقة بالاستراتيجية.

٢ - ويظهر بوضوح تأثير سلوك الصفوة السياسية الإسرائيلية وهى مشبعة بأحلام الصهيونية، وخططها التوسعية، ونظرتها السلبية إلى العرب عموما الفلسطينيين خصوصا على اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى. لذلك لا نرى أهمية للسؤال الذى ورد فى البحث عن مدى قدرة بيجين على إحداث تغيير جذرى فى اتجاهات الإسرائيليين إزاء مصر. فالسؤال الأهم هو: هل يستطيع الرأى العام الإسرائيلى أن يغير من اتجاهات يمين نفسه وزملائه من الزعماء إزاء مشكلات الأرض والسلام نحن نعلم سلفا أنه سؤال مركب، لأنه يثير

العلاقة البالغة التعقيد بين الصفوة السياسية والجماهير. ونعلم أنه قد حدثت - نتيجة لرحلة الرئيس السادات - للقدس - بدايات تغير جزئي في اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى إزاء مصر.. ولكى تبقى مسألة الضغوط التى يمكن أن يمارسها الرأى العام الإسرائيلى على زعمائه، مسألة مفتوحة للنقاش(*).

ولكن تبقى قبل ذلك وبعده الحقائق العربية الواضحة، التى تدافع عنها القيادة السياسية العربية بكل ثبات: الانسحاب من كل الأراضى العربية المحتلة، وكفالة الحقوق القومية للشعب الفلسطينى، وتدعيم حقه فى إنشاء دولته المستقلة.

المبحث الثالث: كيف تشكل الرأى العام الإسرائيلى:

فى دراساتنا السابقة التى حللنا فيها اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى إزاء قضايا الحرب والسلام بعد المبادرة التاريخية للرئيس السادات، ركزنا الضوء على السمات الرئيسية لهذه الاتجاهات، التى تتمثل فى استمرار الخط المتشدد من ناحية إزاء

(*) الأحزاب السياسية الإسرائيلية التى تعرضت لها الدراسة:

ليكود: التجمع الحزبى الحاكم حاليا. فى إسرائيل له ٤٥ مقعدا من مقاعد الكنيست، يعتبر الشريك الأكبر فى الائتلاف المشكل منه ومن تجمع داش والاحزاب الدينية.

المعراخ: التجمع الذى يضم الأحزاب العمالية الإسرائيلية والمشكل حاليا من حزب العمل المتحد [المكون من الماباى واتحاد العمل ورافى] والمابام يمثل الآن قوة المعارضة الأساسية، حصل على ٣٣ مقعدا فى الكنيست.

داش: [الحركة الديمقراطية للتغيير] هو القوة الثالثة فى الكنيست الآن، حصل على ١٥ مقعدا فى الكنيست، كما أنه الشريك الثالث فى الائتلاف الحاكم حاليا مع ليكود والأحزاب الدينية. تكونت الحركة من اندماج كل من الحركة الديمقراطية التى شكلها إيجال يادين من نوفمبر ١٩٧٦، مع حركة شينوى أو [التغيير] التى شكلها عمنرن روبنشتين عميد الحقوق السابق فى جامعة تل أبيب، عقب حرب أكتوبر، ١٩٧٣ وحازت شعبية كبيرة. تمثل الحركة اتجاها وسطا بين ليكود والمعراخ.

المفدال: هو الحزب القومى الدينى. وهو أقوى حزب سياسى دينى تكون فى إسرائيل عام ١٩٥٦ نتيجة اندماج حزبى مزراحى [المركز الروحى] وعمال مزراحى وهما من أقدم الأحزاب الصهيونية. وقد شارك هذا الحزب فى جميع الائتلافات الوزارية التى تشكلت منذ تكوينه سواء مع العمل أو مع ليكود ما عدا فترة قصيرة انسحب فيها من عام ٥٨ إلى ٥٩ بسبب إثارة قضية من هو اليهودى. يركز الحزب على ربط الدين بالدولة فى المقام الأول.

قضايا الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة وإزاء إنشاء دولة فلسطينية من ناحية أخرى. غير أن أهم سمة استوقفنا، هى أن غالبية الرأى العام الإسرائيلى، لا تجد رابطة بين رغبتهم فى تحقيق السلام، وبين ضرورة الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة!

ويؤكد هذه الحقيقة الدكتور لويس جوتمان رئيس معهد الأبحاث التطبيقية فى إسرائيل، وهو المعهد الذى أجرى هذه القياسات التى نقوم بتحليلها، بتطبيق منهج نقدى متكامل، لا يقف - كما يفعل العلماء الإسرائيليون - عند حدود العرض الساذج المصمت للأرقام، بدون إعطائها دلالاتها الحقيقية. وفى دراسة حديثة لجوتمان يحاول فيها تبرير الموقف المتعنت الذى يقفه بيجين من مفاوضات السلام متسائلا: ماذا يفعل رئيس الوزراء إذا كان الرأى العام الإسرائيلى مازال متسقا مع نفسه عبر السنوات العشر الأخيرة، فيما يتعلق بضرورة عدم التخلى عن الأراضى العربية المحتلة؟

وهذا التساؤل الذى يثيره عالم النفس جوتمان، عبارة عن سحابة دخان أطلقها متعمدا لإخفاء السؤال الرئيسى الذى ينبغى القاؤه: كيف يتشكل الرأى العام الإسرائيلى؟ أن الإجابة عن هذا السؤال - بطريقة علمية - هى وحدها التى تجعلنا نفهم اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى فى اللحظة الراهنة. ذلك أنها اتجاهات تبلورت عبر أجيال طويلة، تحت تأثير أيديولوجية عنصرية هى الصهيونية، وفى إطار نمط محدد من المجتمعات، هى المجتمعات الاستيطانية. وتحليل عناصر هذه الأيديولوجية من ناحية، وإبراز ماذا تعنى الأرض، وماذا يعنى الأمن، وماذا يعنى السلام بالنسبة لمجتمع استيطانى من ناحية أخرى، كل هذا كفيل بإلقاء الضوء على الموقف الراهن الذى تتبناه الجماهير الإسرائيلية.

العناصر الأساسية للصهيونية:

الصهيونية أيديولوجية سياسية نشأت فى القرن التاسع عشر، تطالب بإعادة توطين اليهود فى فلسطين، باعتبارها أرض الميعاد، كوسيلة لحل "المشكلة" اليهودية والمشكلة اليهودية التى كانت فى حقيقة أمرها ترجع إلى تردى أوضاع اليهود فى المجتمعات الغربية، نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية شتى، صورتها الصهيونية

بصورة مزيفة، باعتبارها مشكلة أبدية تتعلق بالوضع الوجودى ذاته لليهودى، فما دام هناك يهود فى العالم وغير يهود.

ويمكن تلخيص مزاعم الصهيونية المبكرة فى عدد من النقاط الأساسية:

- المشكلة اليهودية مشكلة عامة عانى منها جميع يهود العالم لأسباب دينية.
- أنها ظاهرة أبدية، وجدت منذ أن وحد اليهود، وستبقى طالما وجدوا.
- أن اليهود وحدهم، دون غيرهم من الشعوب، تعرضوا للاضطهاد على مر السنين لأنهم يهود.
- ان اليهود شعب واحد ذو بنية واحدة، متجانس المصالح ومصيره واحد.
- ان اليهود أرغموا على الهجرة من فلسطين عام ٧٠م
- أن الصهيونية هى رد فعل للمشكلة اليهودية.
- أخيرا أن الحل الوحيد لهذه المشكلة، هو إقامة دولة يهودية.

فى ضوء هذه الأفكار الرئيسية بنت الصهيونية دعوتها وبرنامجها السياسى، بفضل دهاء وحنكة تيودور هرتزل الذى سعى لتحقيق أهدافها فى العودة إلى فلسطين بشكل عملى، وبناء على فهم عميق لمكونات النظام الدولى فى عصره.. ووعى مرهف بمختلف أنماط تفاعلاته.

لقد كان إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ فى الواقع، تتويجا للجهود الصهيونية الدائبة التى استطاعت زرع موجات الهجرة اليهودية المتتالية إلى فلسطين، ودمجها فى تجمع، كان ولا يزال نموذجا بارزا للمجتمعات الاستيطانية.

نشأة وتطور المجتمع الاستيطانى اليهودى:

نشأ المجتمع اليهودى فى فلسطين وتبلور، نتيجة لجهود الجماعات الصهيونية التى ظهرت فى أوروبا الشرقية والوسطى، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر، ويمكن أن نفهم الاتجاهات الراهنة فى الرأى العام الإسرائيلى، لو تتبعنا بمنتهى الإيجاز، المهام التى أدعتها الصهيونية لنفسها، وهى بصدد خلقها للمجتمع اليهودى فى فلسطين، ونظرة الصهيونية إلى العرب الفلسطينيين أعضاء المجتمع الأصيل، ولو درسنا أخيراً السياسات الاستيطانية التى طبقها الصهيونيون الأوائل.

تتمثل العنصرية بوجهها القبيح فى كل السياسات الاستيطانية التى صاغها ومارسها الصهيونيون الأوائل والتى كان أبرزها اقتحام الأرض، والعمل والحراسة والإنتاج.

– **اقتحام الأرض:** استند البرنامج الصهيونى فى فلسطين على عدة مبادئ، أهمها اقتحام الأرض ويعنى ذلك على وجه التحديد، الاستيلاء على أرض فلسطين واستغلالها وإنقاذها من سيطرة الأغيار [غير اليهود - العرب] عليها: وحاولت القيادة الصهيونية، أن تطبع المبدأ بطابع نفسى بالإضافة إلى طابعه الاقتصادى الاستغلالى. فاقتحام الأرض وغزوها، يجعل اليهودى يظهر نفسه، ويتخلى عن سلوكه الطفيلى الذى تمرس عليه فى الشتات، نتيجة الانقطاع أجيالا طويلة، عن ممارسة الأنشطة الإنتاجية. ومن الأهمية بمكان، أن نبرز هنا أن الأرض قد انتزعت من أصحابها خلافا لأسطورة بيع الفلسطينيين لأراضيهم]. فقد استطاعت عصابة الهاجاناة فى أقل من عام واحد [١٩٤٨] أن تنتزع مساحة قدرها ٧٦٪ من مجموع مساحة فلسطين.

– **اقتحام العمل:** ويتمثل هذا المبدأ، فى غزو اليهود لقطاعات الزراعة والأعمال اليدوية، تحت شعار العمل العبرى لإقصاء العرب اقتصاديا، والسيطرة على اقتصاديات فلسطين.

– **اقتحام الحراسة:** يأتى هذا المبدأ متناسقا مع المبدأين السابقين. فاقتحام الأرض واقتحام العمل، معناه انتزاع الأرض العربية من أصحابها وإضعافهم اقتصاديا فى سوق العمل، ومعنى ذلك احتمال تصاعد المقاومة العربية، ومن هنا جاء هذا المبدأ، ومعناه عدم الاعتماد على العرب فى حراسة المنشآت والمشاريع الصهيونية.

– **اقتحام الإنتاج:** جاء هذا المبدأ، حتى تكتمل الدورة التى تبدأ باقتحام الأرض والعمل والحراسة.

ومعنى هذا ببساطة، مقاطعة المنتجات العربية، ومنع التعامل مع العرب، والتعامل مع اليهود وحدهم. وقد قام الهستدروت بدور واضح فى هذا.

الأرض والأمن والأهالى:

فى ضوء ما سبق نستطيع أن نفهم النظرة المرضية التى تسود الرأى العام الإسرائيلى، إزاء هذه الموضوعات الثلاثة، التى هى عقدة الصراع العربى الإسرائيلى.

– أن بداية المشروع الصهيونى على أرض فلسطين واقتحام الأرض كما بينا هو المبدأ الأول الذى قام على أساس الاستعمار الاستيطانى اليهودى. كيف كان يمكن إنشاء التجمع اليهودى الصهيونى فى فلسطين، بغير الاستيلاء على أراضى العرب حيلة أو غدرا أو عنفا وإرهابا؟ يكفى أن ندرس القوانين المطبقة حاليا فى إسرائيل، والخاصة بحق اليهود فى تأجير وشراء الأراضى. سنجد أن دعامتها تقوم على مبدأ بالغ البساطة: التجريد المستمر للعرب من أراضيهملإحلال اليهود محلهم، باصطناع حيل قانونية شتى. ويتم ذلك وفق خطة منظمة تشرف عليها هيئات متخصصة تدعمها الدولة لانتزاع أراضى العرب فى الداخل.

غير أن الشق الثانى من الاستراتيجية، هو التوسع المستمر للنطاق الإقليمى لدولة إسرائيل عن طريق احتلال الأراضى العربية الذى تم عقب كل عدوان إسرائيلى. عقب ١٩٤٨ تمددت حدود إسرائيل غير أن التوسع الكبير حدث بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧.

ومن هنا فالتشبث الإسرائيلى بالأرض المحتلة، التى أقيمت عليها المستعمرات الإسرائيلية، يجد منطقه فى ذهن الصفوة والجماهير الإسرائيلية باعتباره بعدا أساسيا قامت عليه الدولة الإسرائيلية ذاتها.

– أما حساسية الإسرائيليين إزاء الأمن فمسألة منطقية. هؤلاء المستوطنون أو المستعمرون، يعرفون تمام المعرفة على المستوى الشعورى واللاشعورى على السواء، أنهم قوم مغتصبون، أقاموا تجمعهم، وأنشأوا دولتهم بحد السيف وبإرهاب السلاح، ومن هنا تحتل مسألة الدفاع والأمن مساحة شاسعة فى العقل الإسرائيلى.

أليس منطقيا أن يحاول المغتصب أن يؤمن نفسه، وأليس مفهوما أن يخشى من محاولات الأهالى الأصلاء الثورة لكى يستردوا حقوقهم؟

ونصل بذلك إلى عقدة العقد وهم الأهالى كيف يمكن أن ينظر المستعمرون إلى أهل البلاد الأصليين، وكيف يمكن أن يصوغوا سياستهم إزاءهم؟

يتمثل ذلك فى اعتبارين: الأول عنصرى ينبثق من شعور المستوطنين بالتفوق، إزاء السكان الأصليين، وترجمة هذا عمليا معناه تبلور الرغبة لدى المستوطنين، فى أن تكون علاقتهم بالسكان الأصليين محدودة للغاية.

والاعتبار الثانى اقتصادى مبناه تقدير المستوطنين لضرورة استغلال السكان.

الأصليين، كأيد عاملة رخيصة وترجمة هذا عمليا، معناه تشغيلهم كعمال وإجراء فى مشاريع المستوطنين (هناك دراسات تفصيلية عن محاولة إسرائيل إدماج عرب الضفة الغربية فى الاقتصاد الإسرائيلى).

غير أنه فى الداخل، يترجم اتجاه المستوطنين إزاء الأهالى فى شكل سياسة تمييز عنصرى واضحة، تجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة (هناك سلم ثلاثى للترتيب الاجتماعى فى إسرائيل: على القمة اليهود الغربيون، ويليهم اليهود الشرقيون، وأخيرا الأهالى العرب).

القيادة والإعلام والجماهير:

فى ضوء كل ما سبق، يبدو زيف المقولة التى أكدها العالم النفسى الإسرائيلى جوتمان. من أن الرأى العام الإسرائيلى، متسق فى طلبه للسلام، ورغبته فى الاحتفاظ بالأرض العربية المحتلة! ذلك أن هذا اتساق شكلى، يسمح للعلماء غير الموضوعيين، إمثال جوتمان، وللسياسيين المتطرفين أمثال بيجين، أن يتحصنوا وراء قياسات الرأى العام لتبرير سياسات التوسع والعدوان!

إن الرأى العام الإسرائيلى نفسه، قد شكل منذ زمن بعيد، وفى ضوء المبادئ الصهيونية، على اعتبار كل أرض عربية يحتلها الإسرائيليون حقا مشروعا لهم، بل وأكثر من ذلك، يعد إرجاع بعضها إلى أصحابها "تنازل" إسرائيلى يستدعى المساومة المجهدة والتفكير الاستراتيجى المتأمل!!

وليس أدل على ذلك، من الدور المخرب الذى تلعبه تصريحات القيادة الإسرائيلية والدور المضلل الذى تلعبه وسائل الأعلام الإسرائيلية، من صحافة وإذاعة وتليفزيون، فى تأكيد النزعات التوسعية لدى الرأى العام.

وقد كشف جوتمان نفسه فى دراسته التى أشرنا إليها، فى أنه تبين له، أن ليست هناك علاقة مباشرة بين المعلومات التى يعرفها الشخص عن موضوع ما واتجاهاته إزاءه فقد عرض فى بحث أجراه معهده على أفراد العينة من الإسرائيليين، خريطة مصمتة لإسرائيل والبلاد العربية، وطلب من كل واحد منهم، أن يشير إلى مواضع هضبة الجولان، وشرم الشيخ، وغزة، فتبين أن غالبية المبحوثين لم يعرفوا أين توجد هذه المواقع. ومع ذلك فهم متطرفون غاية التطرف فى المناداة بضرورة

الاحتفاظ بها لأهميتها القصوى لأمن إسرائيل!

والغريب أن جوتمان، يورد هذه الحقيقة فى دراسته بغير أن يستخلص دلالتها! إن الجماهير الإسرائيلية تسوقها قيادة صهيونية عريقة، تستخدم الأعلام، والجيش والنظام التعليمى، لكى تصوغ عقولها. وتشكل اتجاهاتها، بما يتفق وأهداف المخطط الصهيونى.

ولعل مما يكشف عن الأهمية القصوى لدور القادة الإسرائيليين فى توجيه الرأى العام الإسرائيلى، نتائج الأسئلة التى وردت فى بحث جوتمان نفسه، عن تأثير القادة فى التغيير الجذرى لآراء الجماهير.

فى سؤال مبناه: إلى أى مدى تعتقد انه فى استطاعة بيجين إحداث ثورة فى وجهة نظر الإسرائيليين إزاء الفلسطينيين؟ كانت إجابات المنتمين إلى أحزاب ليكود والمعراخ والمفدال وداش كما يلى:

ليكود: (١٢٣) شخصا قرروا أن ذلك ممكن لدرجة كبيرة، (٣) قرروا أن ذلك ممكن إلى حد ما، (٥) إجابات أن ذلك لا يمكن مطلقا، وهناك (١١) إجابة غير مبينة.

المعراخ: (٦٩) شخصا من الرأى الأول، (١٤) من الرأى الثانى، (٥) من الرأى الثالث، (٤) إجابات غير مبينة.

المفدال: (٢٤) من الرأى الأول، (٨) من الرأى الثانى، (٢) من الرأى الثالث.

داش: (٤٩) من الرأى الأول، (٤) من الرأى الثانى، (١) من الرأى الثالث، (٢) إجابات غير مبينة.

ومعنى ذلك أنه من عينة مجموعها ٣٥٤ شخصا، يمثلون الانتماءات السياسية الرئيسية فى إسرائيل من اليمين إلى اليسار، تبين أن ٢٦٥ شخصا رأوا أن القيادة تستطيع التغيير الجذرى لاتجاهات الجماهير الإسرائيلية إزاء الفلسطينيين، وأن ١٩ شخصا رأوا أن ذلك ممكن إلى حد ما، فى حين أن ١٣ شخصا فقط هم الذين رأوا أن ذلك لا يمكن مطلقا. أى أن الغالبية الساحقة أكدت دور القيادة فى التغيير الجذرى لاتجاهات الجماهير.. أليس هذا فى حد ذاته تكذيبا للمزاعم التى تقول إن بيجين فى تشدده – إنما هو أسير الرأى العام الإسرائيلى؟

أن العرض السابق كان محاولة لفهم العوامل الكامنة وراء اتجاهات الرأى العام الإسرائيلى فى الوقت الحاضر. وخلاصة ما نريد أن نركز عليه، أن إسرائيل الآن فى مفترق الطرق: عليها أن تختار بين الأرض وبين الأمن. غير أن هذا السؤال الذى قد يبدو بسيطا، يثير فى العقل الإسرائيلى هذه الأيام أشد ضروب الحيرة والبلبلة: هل تبقى إسرائيل كما كانت دائما الدولة - المعسكر، بما يتضمنه ذلك من التشبث بالأرض العربية المحتلة، بما عليها من مستوطنات (بنيت بالدم والعرق والجهد كما يردد بيجين) أم تتنازل إسرائيل عن الأرض سعيا وراء السلام، وتتحول إلى "الدولة - المشروع" الذى يقوم على البراعة فى استثمار الموارد العربية، واستغلال الفوائض العربية؟

غالبا ما تنسى إسرائيل، وهى فى زحمة انشغالها بالرد على السؤال، المعضلة، أن هناك طرفا آخر، يمكن أن يؤثر على السياسة الإسرائيلية، هو الطرف العربى. هل نستطيع نحن العرب أن نمارس هذا التأثير من منطلق القوة الكامنة والقوة الظاهرة معا؟

أهم مراجع الدراسة:

- السيد يسين قراءة سياسية فى الخريطة الشخصية الإسرائيلية، دراسة نشرت بجريدة الأهرام فى ٢، ٣ شهر يونيو ١٩٧٣.
- حامد ربيع، من يحكم فى تل أبيب، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥:

- Alroy, G. C., Behind the Middle East Conflict, the real impasse between Arab and Jew, N.Y. Capricorn Books, 1975.
- Elizar, Y. & Salpeler, E. Who Rules Israel , N. Y., Harper & Row, 1973.
- Etizioni – Halevy, E. & shapira, K., Political culture in Israel, London: preager publishers, 1977.
- Gonen, J., A psycho – history of Zionism, N.Y. New Amercian Library, 1975.
- Weller, I. Sociology in Israel, England: Green Wood press, 1974.

التحدى الإسرائيلى واليقظة العربية(*)

لا أدرى هل نستطيع الآن ومازالت المعركة المجيدة التى تخوضها قوات المقاومة الفلسطينية ضد الجيش الإسرائيلى الغازى فى بيروت مستمرة، أن نحاول بطريقة موضوعية تحليل دلالة ما حدث، وإعطاءه التكييف الصحيح، والنظر إلى المستقبل بعين ثاقبة؟

إن المراجعة الدقيقة للكتابات العربية عن الحرب الدائرة الآن، تجعلنا نخلص إلى نتيجة هامة مؤداها أننا عدنا إلى نفس المناخ الذى أحاط بالعالم العربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧. ونعنى بذلك تصاعد نغمة رثاء الذات القومية، والتحسر على عجز العالم العربى، وعدم قدرته على المواجهة الفعالة مع القوى الصهيونية التى تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية. وأخطر من ذلك شيوع روح اليأس، التى يمكن أن تكون مقدمة للاستسلام للإرادة الإسرائيلية.

وبعيدا عن كل هذا المناخ الذى يثقل على النفس، ويشل التفكير، نريد أن تحدد المعانى الحقيقية التى يمكن أن نستخلصها من الحرب الإسرائيلية العربية الخامسة، وأبعد من هذا نريد أن نستشرف المستقبل، لنعرف هل ضاعت الفرصة التاريخية أمام العالم العربى. لكى يثبت أنه جدير بأن يحيا فى النصف الثانى من القرن العشرين بمنطق القرن العشرين، لا بمنطق القرن العاشر، أم أنه مازال هناك أمل أمامنا وإذا كان هناك أمل فعلى أى أساس تقوم دعائمه، وما الذى يمكن لنا كعرب

(*) جريدة الأهرام ، ١٩٨٢/٨/١٠.

أن نفعله لمواجهة المرحلة القادمة، التى ستكون مصيرية فى تحديد مستقبل الأمة العربية؟

إن الإجابة عن كل هذه التساؤلات، تدعونا للحديث عن التحدى الإسرائيلى: طبيعته وأهدافه واتجاهاته، وعن اليقظة العربية: ضرورتها وأهمية بلورتها، من خلال تدعيم الإيجابية الكامنة فى الشخصية العربية المعاصرة.

طبيعة التحدى الإسرائيلى:

لا يمكن التحديد الدقيق لطبيعة التحدى الإسرائيلى، بغير الدراسة التاريخية لنشأة وتطور المشروع الصهيونى على أرض فلسطين. وإذا كان المقام لا يسمح لنا بأن نخوض فى تفصيلات تاريخية متعددة، إلا أنه يمكن القول إن ثمة خطة صهيونية وضعت من البداية تتعلق بإنشاء دولة إسرائيل باعتبارها وطنا قوميا يجمع شتات يهود العالم، وأن هذه الدولة ستنشأ على أرض إسرائيل وستتجاوز حدودها الحدود الضيقة لإسرائيل الراهنة. غير أن الاستراتيجية الصهيونية لإدراكها استحالة تطبيق هذا المشروع بكل أبعاده منذ البداية، صيغت على أساس أن تنفذ الخطة بأسلوب تدريجى. وهذا الأسلوب قنع فى البداية بموطئ قدم فى فلسطين، سرعان ما أخذ يتسع نطاقه جيلا بعد جيل إلى أن تم إنشاء الدولة عام ١٩٤٨.. إنشاء دولة إسرائيل كان هو الحد الأدنى فى الخطة الصهيونية، غير أن إنشاء إسرائيل الكبرى يمثل الحد الأقصى فى هذه الخطة.

وقد نجحت إسرائيل فى تحقيق الحد الأدنى وهو إنشاء دولة إسرائيل التى اعترفت بها الولايات المتحدة الأمريكية فى عهد الرئيس ترومان بعد عشر دقائق من إعلان قيامها. ولو رجعنا إلى مذكرات ترومان المنشورة، وإلى أوراقه الخاصة التى نشرت حديثا عام ١٩٨٠، لاكتشفنا أن كل شئ كان مدبرا، وأن الخطابات المتبادلة بين وايزمان الزعيم الصهيونى الذى أصبح بعد ذلك أول رئيس لدولة إسرائيل، تكشف عن عمق وأبعاد التآمر الأمريكى الصهيونى لإنشاء دولة إسرائيل، على حساب المصالح العربية المشروعة، وبعد تحقيق الحد الأدنى، وهو إنشاء الدولة، أخذت إسرائيل وعلى مهل، ومنتهزة كل فرصة تسنح لها للمضى قدما فى توسيع نطاق حدود الدولة، سعيا وراء إنشاء إسرائيل الكبرى. وإسرائيل الكبرى كما

تضمنت الخطة الصهيونية المبدئية تنص على ضم الضفة الغربية، وفى قول آخر وحتى شرق الأردن يدخل فيها، وأجزاء من لبنان وسوريا ومن مصر.

وقد رأينا فى السنوات الأخيرة كيف نجحت إسرائيل فى ضم الجولان، وكيف تعمل بجد ونشاط لضم الضفة الغربية. وهى الآن بعد غزوها الأراضى اللبنانية تتحدث عن أهمية اقتطاع جزء من لبنان بدعوى تكوين حزام أمنى يصد عنها غارات الفدائيين الفلسطينيين. ومن ناحية أخرى، تصاعد بعض الدعاوى فى إسرائيل، عن اكتشاف آثار يهودية هامة فى صيدا وغيرها من المدن اللبنانية التى وقعت تحت الاحتلال، ومعنى ذلك أن حجة الأمن ستختلط كما اختلطت من قبل بحجة الحقوق التاريخية، وستشهد قريبا ظهور سجلات تاريخية "مفبركة" تثبت أحقية إسرائيل فى أجزاء من الأراضى اللبنانية.

وكل هذا يسير بتوقيت محسوب. تراعى فيه إسرائيل الاستفادة القصوى من الوضع الإقليمى العربى، بما يتضمنه ذلك من ثغرات وثقوب، وتصدع، وتمزق، وكذلك من الوضع الدولى.

غير أن المد الاستيطانى السرطانى الإسرائيلى وإن كان بالغ الخطورة على السلامة الإقليمية للدول العربية، إلا أنه يرافقه الآن، ولأول مرة مخاطر من نوع جديد. ذلك أن الدلالة الحقيقية للسلوك العسكرى والسياسى الذى تمارسه الآن إسرائيل فى لبنان، يشير إلى بداية ما تطلق عليه الحقبة الإسرائيلية.

ونعنى بالحقبة الإسرائيلية على وجه التحديد قدرة إسرائيل على إملاء شروطها السياسية على العالم العربى باستخدام القوة المسلحة فعليا أو التلويح باستخدامها. وفى رأينا أن البداية الرمزية لهذه الحقبة بدأت بضرب المفاعل الذرى العراقى، حين أكدت إسرائيل أن منطقة أمنها القومى تمتد إلى تركيا وإيران وتشمل الخليج العربى وأيضا باكستان وشمال أفريقيا. وإن لها الحق بإرادتها المنفردة قصف ونسف أى قدرات نووية ترى فيها خطراً على أمنها. وقد مرت هذه الواقعة البالغة الخطورة بغير أن تعاقب إسرائيل عليها، لا عسكريا من جانب العراق أو العالم العربى ولا سياسيا من جانب أى هيئة دولية.

غير أن حرب الإبادة الإسرائيلية فى لبنان تعد من وجهة نظرنا البداية الحقيقية للحقبة الإسرائيلية. فقد انطلقت إسرائيل غازية الأراضى اللبنانية. بجيش قوامه

١٣٠ ألف جندى وآلاف الدبابات ومئات الطائرات وهى فى سبيل تحقيق الأهداف التى حددتها لنفسها وهى طرد المقاومة الفلسطينية من لبنان، والقضاء عليها، وإنشاء دولة عملية لها، لم تبال بإبادة المدن ولا قصف المدنيين والمشهد الذى يدور الآن فى بيروت لا مثيل له فى التاريخ المعاصر. ذلك أن دولة معتدية بكل ما يعنيه العدوان فى مواثيق الأمم المتحدة - تصمم على فرض شروطها وإملاء إرادتها بغير أن تلقى بالا لا إلى القوى العظمى ولا إلى الأمم المتحدة ولا إلى الرأى العام العالمى وتؤكد كل يوم أن إصرارها على تنفيذ ما نادت به وبدون أن ترضخ لأى تهديد، وبدون أى تخشى عن أى عقاب.

ومعنى ذلك كله، أن ما يجرى فى لبنان ليس سوى "بروفة" لما سيجرى فى غيرها من البلاد العربية. ولن يطول الوقت الذى سنرى فيه إسرائيل تحاول التدخل فى أخص الشئون الداخلية فى الدول العربية، مهددة بالتدخل العسكرى السافر، وملوحة بآلتها الحربية المتقدمة، التى تستورد كل معداتها من الولايات المتحدة الأمريكية ومعتمدة على الدعم السياسى الأمريكى الذى يقف بجانبها بلا حدود.

اليقظة العربية:

إزاء هذه المخاطر الجسيمة التى تنطوى عليها الحقبة الإسرائيلية، هناك حاجة موضوعية ليقظة عربية شاملة. ولسنا ممن يرون أن النواح والصراخ والبكاء على ما يحدث فى لبنان يمكن أن يحل المشكلة. ولسنا ممن يأسون على ما حدث من وجهة النظر السياسية. نحن نأسى إنسانيا على كل ما جرى من مذابح، وعلى كل من وقع من شهداء.

ولكن يعلمنا التاريخ أن الأمم الحية يمكن أن تنهض من رماد الهزيمة. وأن تنتصر. والأمة العربية لو وعت الدرس القاسى جيدا. يمكن أن تنهض من جديد، لكى تمارس المواجهة مع الصهيونية وإسرائيل بأسلوب يختلف تماما عن الأساليب القديمة التى سقطت فى الامتحان.

وقد لا يبدو من محض المصادفة ان الكتاب الذى ألفه أحد رواد الفكر القومى العربى وهو المناضل نجيب عازورى باللغة الفرنسية فى بداية القرن، وكان عنوانه "يقظة الأمة العربية" قد التفت مبكرا حقا إلى خطورة المشروع الصهيونى. وأدرك

بثاقب بصره الصراع الحتمى الذى سيدور بين الصهيونية وبين يقظة الأمة العربية.
يقول نجيب عازوى فى كتابه:

"إن ظاهرتين هامتين، متشابهتى الطبيعة بيدأنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن تتضحان فى هذه الآونة فى تركيا الآسيوية أعنى: يقظة الأمة العرية وجهد اليهود الخفى لإعادة تكوين مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع ومصير هاتين الحركتين هو أن يتعاركا باستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى. وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع بين هذين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متضاربين يتعلق مصير العالم بأجمعه".

وهكذا كانت فكرة الصراع الحتمى ماثلة فى ذهن نجيب عازورى بين الصهيونية والأمة العربية.

والآن ونحن فى الثمانينات، وبعد الحرب الإسرائيلية العربية الخامسة، وبعد سقوط المزاعم الإسرائيلية فى رغبتها فى عقد صلح تاريخى مع العرب، ليس هناك سوى أن يعد العرب أنفسهم لصراع تاريخى طويل مع إسرائيل الصهيونية. وحتى ندير هذا الصراع إدارة عقلانية، لابد أن نبدأ بعملية وضوح فكرى، تتمثل فى التحديد الدقيق لأهداف إسرائيل فى الحقبة القادمة، وفى الاستراتيجية العربية القومية التى ينبغى علينا أن نصوغها لهزيمة هذه الأهداف. هذا هو السبيل الوحيد، لكى تمتلك الأمة العربية زمام قرارها السياسى، وإلا تحولت الدول العربية جميعا إلى رهائن وأسرى للإرادة العسكرية الإسرائيلية.

لماذا مواجهة حضارية مع إسرائيل؟(*)

قدر علينا فى العالم العربى أن نشغل أنفسنا بمشكلة الصهيونية طليلة أكثر من نصف قرن من الزمان. وقد اشتدت المواجهة بين العالم العربى والصهيونية بعد إنشاء الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية بالغة الخطورة.

وخاضت مصر - ومعها قوات عربية فى بعض الأحيان - بعد عام ١٩٤٨ أربع حروب لا ثلاثا كما هو شائع، حرب ١٩٥٦ التى تعرضنا فيها للعدوان الثلاثى. وحرب ١٩٦٧ التى نجحت إسرائيل فى إقناع الدوائر الغربية الاستعمارية أنها كانت حربا دفاعية (تذكر نظرية السيد / مناحم بيجين عن حق الدولة التى تحارب حربا دفاعية فى ضم الأراضى التى احتلتها أثناء الحرب! تجديد صارخ فى القانون الدولى العام!). وحرب الاستنزاف التى خاضتها القوات المسلحة المصرية بكل شجاعة وبطولة والتى أنكهت إسرائيل بالفعل، وأخيرا حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة.

والآن بعد أن وقعت معاهدة السلام، يثار هذا السؤال الهام عن المواجهة الحضارية مع إسرائيل!

ذكرنى ذلك بعبارة بالغة العمق سبق للمؤرخ المصرى الدكتور أحمد عبد الرحيم

(*) جريدة الأهرام ، ١٩٧٩/٧/٣.

مصطفى أن أوردها وهو بصدد تقديمه لإحدى رسائل الدكتوراه التى كتبها واحد من تلاميذه عن المفاوضات المصرية البريطانية قال فيها ما معناه أن قدرات جيل كامل من الساسة المصريين ضاعت فى خضم التفاوض مع الإنجليز!!

يريد بذلك القول إن هؤلاء الساسة المصريين قد حرمت مصر من ملكاتهم الذهنية الفذة التى كان يمكن أن يستثمروها فى التفكير الإبداعى لتحديث المجتمع المصرى ونقله من التخلف إلى العصرية لأنهم انصرفوا بكل طاقاتهم الفكرية للتفكير فى كيفية إجلاء الإنجليز.

لا أدرى لماذا تذكرت هذه العبارة الذكية حين بدأ ظهور هذا الشعار: المواجهة الحضارية مع إسرائيل! ما الذى يجعلنا ندخل هذه المواجهة؟ ولماذا نصرف طاقاتنا ساسة ومثقفين ومفكرين وعلماء فى وضع إسرائيل فى بؤرة عيننا وإجراء مقارنات يومية معها؟ وهل نحن داخلون معها فى سباق؟ وهل توقيع معاهدة السلام يفرض على مصر أن تنغمس فى علاقات وثيقة ثقافية وحضارية مع الإسرائيليين؟ ولماذا لا نعاملهم كما نعامل الفرنسيين والإنجليز مثلا؟ وهل نحن دخلنا من قبل فى سباق مع الإنجليز بعد أن تم جلاؤهم عن أراضينا المحتلة عام ١٩٥٤؟

أخشى أن نصرف طاقاتنا المبدعة فى تعقب العبقرية اليهودية المزعومة أو التأمل طويلا فى الإنجازات المصطنعة الإسرائيلية. هناك تهويل لاشك فيه حول التكنولوجيا الإسرائيلية والحقيقة أن هذه التكنولوجيا أغلبها مستورد من الغرب، وبعضها مسروق بالمعنى الحرفى للسرقة من مصانع الغرب العسكرية، ولسنا عجزة لا فى العلم ولا فى التكنولوجيا. لدينا والحمد لله الكوادر العلمية القادرة فى كل الميادين. يبقى أن نحسن تعبئتها وتنظيمها وفق خطة تنمية واقعية تأخذ فى اعتبارها كل إمكانياتنا فى الموارد الطبيعية وفى القدرات البشرية. بل إن الفلاح المصرى استطاع بتكنولوجيته البدائية أن يستخرج أحسن الثمار من أرضه التى يحسن استغلالها وتطوير الزراعة المصرية. ليس فى حاجة للعباقرة الإسرائيليين لأن خبراتنا فى الزراعة والرى مشهود لهم عالميا.

خلاصة ما أريد أن أركز عليه أننى أخشى أن نستدرج إلى مناظرة حضارية مع إسرائيل تبدد جهدنا وتضيع وقتنا فيما لا طائل من ورائه.

أسأل نفسى ببراءة: هل حددنا - حقا - بكل موضوعية وتجرد المشكلات الحقيقية

التى تجابه المجتمع المصرى وتمنعه مـن التقدم، والمعوقـات الخطـيرة التـى تعـوق الإنسان المصرى عن الانطلاق؟

لماذا لا ننسى حكاية التحدى الحضارى بكل ما تتضمنـه مـن إسـقاطات شـعورية ولا شعورية، ونبحث عـن مشـكلاتنا الحقيقيـة، هـل حقـا انتهينـا إلـى أن الاشـتراكية الديمقراطية هى أيديولوجيتنا الجديدة؟ وإذا كان هذا صحيحا فما هى الصلة بين هـذه الأيدلوجية والبرامج والسياسات الحكومية ووقائع الحياة الاجتماعية اليومية؟ ولمـاذا لا تبرز هذه الصلة كل حين؟

هل انتهت المناقشة البيزنطية عن إعادة بناء الإنسان المصرى التـى خـاض فيهـا الكثيرون، بغير أن تسفر عن سياسات واقعية ملموسة فى النظام التعليمى والـتربوى وأسس التنشئة السياسية والاجتماعية؟

هل استقر العلـم كقيمـة أساسـية فـى مجتمعنـا أم لا يـزال وضعـه كمـا هـو حليـة نرتديها للتزين حين نريد هل انتهينا إلـى حـل فـى المشـكلة التـى تطـل برأسـها بيـن الحين الحين عن وضع الدين فى مجتمعنا وهل هو مجتمـع دينـى ينبغـى أن تحكمـه الشريعة الإسلامية، أو هو مجتمع علمانى ينبغى أن تحكمه الشرائع الوضعية؟

أستطيع أن استرسل فـى طـرح التسـاؤلات إلـى مـالا نهايـة، وكلهـا موضـوعـات حيوية ظلت محل جدل الساسة والمثقفين طيلة القرن الماضى.

وإذا أردت تعقيد الموضوع أكثر من ذلـك تسـاءلت: هـل حللنـا إشـكالية الأصالـة والعصرية أم نحن مازلنا نتساءل بشكل مجوف - والعالم يطير من حولنا - مـا هـو الأصيل وما هو تعريفه وما هو العصرى وما هى حدود الاقتباس منه؟

أعتقد أن هذه القائمة الزاخرة بالإشـكالات الأبديـة جديـرة منـا بالالتفـات العميـق، والتأمل الجاد، والتفكير العلمى الملـتزم، بـدلا مـن أن نسـتدرج إلـى منـاظرة وهميـة عنوانها: المواجهة الحضارية مع إسرائيل.

الفصل الرابع

التطبيع وثقافة السلام

الأوهام العربية والحقائق الإسرائيلية!(*)

منذ سنوات طويلة حين كانت المفاوضات بين مصر وإسرائيل قائمة على قدم وساق للوصول إلى اتفاقية كامب دافيد وبعدها المعاهدة المصرية الإسرائيلية، كتبت سلسلة مقالات نشرت وقتها فى الأهرام وقد اعتمدت فيها على تحليل المادة الخام لسلسلة من قياسات الرأى العام قام بها جوتمان فى إسرائيل، وحصلت عليها من خلال ستيفن كوهن استاذ علم النفس فى جامعة هارفاد. ومن بين هذه المقالات التى نشرت فى الوقت الذى كان فيه مناحم بيجن يفاوض الرئيس الراحل أنور السادات فى الإسماعيلية، مقالة بعنوان "الأوهام الإسرائيلية والحقائق العربية"! وكنت أقصد بالعنوان أطماع إسرائيل فى الأرض العربية، ومحاولتها فرض إرادتها السياسية على مصر، وإجبارها على الخضوع للنزعات الصهيونية التى لا ترضى بغير الاستعمار الاستيطانى بديلا، ولا تشبع من العدوان على الأرض العربية، ولا تتراجع عن استخدام سلاح الردع العسكرى وسيلة لفرض مخططاتها التوسعية.

كنت فى هذا الوقت متفائلا بإمكانية الصمود العربى فى وجه إسرائيل، والذى كان من شأنه أن يبدد أوهامها، ويرسخ من ناحية أخرى الحقائق العربية، والتى تتمثل فى ضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود ما قبل يونيو ١٩٦٧، بالإضافة إلى حق الشعب الفلسطينى الكامل فى إقامة دولته المستقلة.

بعد كامب دافيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية، استطاعت مصر أن تستخلص

(*) جريدة الأهرام ، ٢٠/٢/١٩٩٧.

أرضها المحتلة بالكامل من البراثن الإسرائيلية، ما عدا طابا التى خاضت مصر من أجلها معركة دبلوماسية وقانونية مجيدة شاركت فيها الدولة بالإضافة إلى عدد من الخبراء المؤرخين الذين وضعوا خبرتهم العميقة فى سبيل أن تستخلص مصر حقها. وتكللت الجهود بالنجاح بعد أن صدر قرار التحكيم لصالح مصر.

من مدريد إلى أوسلو:

ويمكن القول إن مؤتمر مدريد بكل ما صاحبه من صخب إعلامى، كان إشارة إلى أن الدول العربية قد اختارت السلام مع إسرائيل، ولذلك كان شعاره الأرض مقابل السلام. وهذه الصيغة التى قد تبدو بسيطة فى الظاهر، تنطوى فى الواقع على تغيرات كبرى فى مواقف كل من الدول العربية وإسرائيل. فالدول العربية بقبولها هذه الصيغة، أرادت التأكيد أنها عازمة على الاعتراف بالدولة الإسرائيلية ووجودها فى المنطقة ككيان سياسى يتم التعامل الطبيعى معه، وذلك إذا ما التزمت إسرائيل بإرجاع الأرض المحتلة إلى أصحابها الشرعيين. واعتبرت الدول العربية أن هذا الاعتراف يمثل تنازلا ضخما من جانبها، لأنها طوال العقود التى تلت قيام الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨ لم تعترف بالكيان الإسرائيلى، بل إنها فرضت عليه - من خلال أجهزة الجامعة العربية حصارا اقتصاديا كاملا. وفى نفس الوقت برئت إسرائيل من عقدة الرفض العربى لها، وهو الرفض الذى أرق وجودها فى المنطقة، لأنها أدركت من خلال تجاربها الدموية المتتالية فى العدوان العسكرى على الدول العربية، أنها لن تستطيع أن تفرض وجودها بالقوة العسكرية، وأنها تحتاج بالفعل إلى موافقة عربية علنية.

غير أن إسرائيل بعد أن حظيت بالاعتراف الأول بها، بعد توقيع اتفاقية كامب دافيد والمعاهدة المصرية الإسرائيلية، جنحت إلى التلاعب السياسى من خلال مفاوضات طويلة ومعقدة، مع الأطراف الفلسطينية والأردنية والسورية واللبنانية، وكان الهدف منها فى الواقع التحلل من التزامها المبدئى فى مدريد بصيغة الأرض مقابل السلام. فتعددت جولات المفاوضات بين إسرائيل والبلاد العربية المفاوضة، وتعقدت، وزخرت بمماطلات إسرائيلية شتى، إلى أن فوجئ العالم باتفاق أوسلو، الذى كشف الستار عن مفاوضات إسرائيلية - فلسطينية موازية، تمت من وراء

ظهر جميع الأطراف العربية، وحتى - ويا للعجب - من وراء ظهر الوفد الفلسطينى المفاوض، وليس هناك شك فى أن عجلة القيادة الفلسطينية فى إبرام اتفاق أوسلو دفع بها، إلى الانزلاق فى ارتكاب أخطاء تفاوضية جسيمة، مما أدى إلى تنازلات فلسطينية لصالح إسرائيل، ما كان ينبغى على القيادة الفلسطينية أن تقدمها.

بعد توقيع اتفاق أوسلو جرت مياه كثيرة تحت الجسور، أهمها بروز تصميم القيادة الإسرائيلية على المضى فى تحقيق أهداف المشروع الصهيونى وإن كان ذلك بوسائل مختلفة. ولعل المحاولة الجسورة فى هذا الاتجاه هى محاولة شمعون بيريز الذى صاغ يوتوبيا سياسية متكاملة فى كتابه الشهير "الشرق الأوسط الجديد" والذى صور فيه خيرات السلام العربى الإسرائيلى باعتباره الجنة التى ستمطر اللبن والعسل على شعوب الشرق الأوسط فور أن يتحقق السلام.

غير أن السلام الإسرائيلى - كما يتبين من الممارسة – لم يكن سوى الاستمرار فى تحقيق أهداف الاستعمار الاستيطانى لفلسطين بل توسيع شبكته لتصبح استعمارا اقتصاديا محكما من خلال التحالف العضوى الوثيق مع الولايات المتحدة الأمريكية. ووجدت القيادة الفلسطينية نفسها محاصرة بين تعنت القيادة الإسرائيلية بل ورفضها الالتزام بما نصت عليه اتفاقية أوسلو نفسها، ومطالب الشعب الفلسطينى التى لم يتنازل عنها أبدا، وضغط الرأى العام العربى، والذى أثبت أنه مازال يعتبر حقوق الشعب الفلسطينى الشرعية هى قضيته المحورية.

أوهام النموذج الإسرائيلى:

وإذا كانت إسرائيل فى كل المراحل التى أعقبت تأسيسها عام ١٩٤٨ قد نجحت فى إقناع الدوائر الأمريكية خصوصا والغربية عامة، أنها تمثل واحة الديمقراطية فى الشرق الأوسط الزاخر بالأنظمة السلطوية والمستبدة، وذلك باستخدامها كل قدراتها السياسية والاقتصادية والدعائية، فإنه يبدو من الغرابة بمكان أن يميل جزء من النخبة السياسية العربية إلى هذا الرأى، ويقبلوا أن فى إسرائيل ديمقراطية فعلا، لأنه تجرى بها انتخابات دورية منتظمة، ويتم فيها تداول السلطة وفق النتيجة التى تسفر عنها الانتخابات.

وقد اتيح لى فى محاضرة دعيت إلى القائها فى قسم العلوم السياسية بجامعة برلين أن أبدد هذا الوهم الإسرائيلى معتمدا فى ذلك على الشواهد العملية وعلى دراسات كتبها باحثون إسرائيليون.

ولقد كان منطقى فى تفنيد الأسطورة الديمقراطية الإسرائيلية بالغ البساطة. لقد تساءلت كيف تكون هناك ديمقراطية إسرائيلية تتيح للجنود الإسرائيليين التصويت للحزب الذى يفضلونه فى يوم ما، وفى اليوم التالى يصدر لهم قرار عسكرى يأمرهم بهدم عدد من البيوت الفلسطينية على ساكنيها، لمجرد الاشتباه فى أن بعض ساكنى البيت قد شارك فى المقاومة ضد إسرائيل! وهل شهد أى نظام الديمقراطى فى العالم، تجربة هدم البيوت، على الخصوم السياسيين من أهل البلاد الشرعيين؟

وهل شهد أى نظام ديمقراطى نظاما قانونيا ومحاكم تصدر أحكاما بشرعية هدم بيوت الشعب الفلسطينى باعتباره عقوبة قانونية؟ وهل شهد أى نظام ديمقراطى محكمة تحكم بأن تعذيب المتهمين الفلسطينيين مسألة شرعية من حق الشرطة الإسرائيلية أن تلجأ إليها لإجبارها على الاعتراف؟

وهل يجوز فى أى نظام ديمقراطى حصار المدن ومنع مئات الآلاف من الناس من العمل، والتحكم فى حياتهم، ومنعهم حتى من دق آبار المياه للزراعة إلا بإذن من السلطة الإسرائيلية؟

النموذج المصرى لمقاومة التطبيع:

وضعنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق الإسرائيلية التى تميز النموذج الإسرائيلى بكل ممارساته العدوانية، وتلاعباته السياسية، ومحاولة النخبة الإسرائيلية الحاكمة تطويع إرادة الشعب العربى، قرر المجتمع المدنى المصرى ممثلا فى نقاباته وهيئاته واتحاداته مقاومة التطبيع مع إسرائيل، إلى أن تنشأ الدولة الفلسطينية المستقلة، وتنسحب إسرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة فى عام ١٩٦٧.

وقد أثبتت القرارات التى أصدرتها النقابات والاتحادات المصرية، وتجمعات المثقفين حيوية فائقة للمجتمع المدنى المصرى، والذى ميز تمييزا صحيحا بين سياسات الدولة التى تحكمها اعتبارات متعددة خارجية وداخلية، وبين خيارات المثقفين المصريين، الذين اعتبروا مقاومة التطبيع الثقافى الذى تلح عليه إسرائيل

إلحاحاً مرضياً لانتزاع الاعتراف بها، ورقة ضغط أساسية على إسرائيل، أصروا منذ عهد كامب دافيد وحتى الآن على التمسك بها. وإذا كانت قد حدثت بعض المخالفات الفردية لقرارات مقاومة المقاطعة، فقد كانت هذه المخالفات حوادث منفردة قام بها أصحابها سواء لأسباب صحفية مهنية، أو حبا للاستطلاع، أو بحثا عن شهرة كاذبة، أو محاولة للعب دور ما على مسرح تزاحمت فيه الشخوص، وتلاحقت الأحداث.

غير أن ما حدث أخيرا من توقيع إعلان كوبنهاجن والذى شارك فيه بضعة مثقفين مصريين مع أعداد من السياسيين الإسرائيليين، والأردنيين والفلسطينيين والأوروبيين، يمثل ظاهرة جديدة فى الخروج على إجماع المثقفين المصريين.

ولعل ما يلفت النظر إليها هو السرية التى أحاطت بها طوال عامين كاملين، وكأنها تجربة أخرى لمفاوضات أوسلو السرية بمعنى أنها جرت من وراء ظهر الممثلين الشرعيين المثقفين المصريين، وهى هنا النقابات والاتحادات والهيئات المختلفة التى تمثلهم، ولم يستطع أحد ممن شارك فى هذه العملية أن يفسر ما هى أسباب السرية، ولماذا لم يعرض الأمر على جموع المثقفين المصريين فى وضوح وعلانية؟ كما أن المزاعم الصارخة التى وردت فى البيان، والتى ادعت أن هؤلاء الأفراد من ممثلى الدول المختلفة، إنما يمثلون غالبية الشعوب فى المنطقة، لا أساس لها من الصحة. ودليلنا على ذلك النقد العنيف الذى وجه لأصحاب هذه المبادرة، لخروجهم على الإجماع بدون مبرر أو مقتضى، ولمضمون الإعلان ذاته، والذى جاءت بعض عباراته مائعة غير محددة، تشير ضمنا إلى تنازلات عربية لإسرائيل، وخصوصا بالنسبة لقضية القدس، كما أن البيان لم يتضمن أى إشارة قاطعة إلى ضرورة إزالة المستوطنات الإسرائيلية من الأراضى الفلسطينية المحتلة، والتى أقيمت ضد كل مبادئ الشرعية الدولية.

وفى تقديرنا أن أصحاب المبادرة قد تعجلوا فى إصدار الأحكام على حقيقة التحولات السياسية التى حدثت بين صفوف النخبة الإسرائيلية السياسية والمثقفة، حين ظنوا أن "تحالفا" ما يمكن أن يضغط على النخبة الحاكمة، الإسرائيلية لتعديل اتجاهاتها العنصرية والاستيطانية، بالرغم مما يرونه كل يوم من إصرار حكومة الليكود على توسيع الاستيطان، ومصادرة الحقوق الإسرائيلية.

ومما يؤكد وهم الديمقراطية الإسرائيلية الاتفاق الأخير بين حزب الليكود وحـزب العمل على الخطوط الرئيسية لملامح المرحلة النهائية فى التفاوض مع الفلسطينيين، ووضـع سقف أو حد أعلى لما يمكن لإسرائيل أن تقدمه للسلطة الفلسطينية.

أليس غريبـا مـع وضـوح كـل ذلـك، أن يزعـم أحـد أنصــار التحـالف مـع القـوى الإسرائيلية، أنه أن الأوان للاستفادة من "الديمقراطية الإســرائيلية" لإسـقاط نيتانيـاهو فى الانتخابات المقبلة؟ وأى تجاهل فى ذلك للحقائق الإسرائيلية الصارخة؟

التحدى الإسرائيلى والإرادة العربية(*)

هل التحدى الإسرائيلى لعملية السلام والذى يتمثل فى الشروع فى بناء مستوطنة إسرائيلية فى جبل أبو غنيم يمثل مجرد عقبة جديدة فى طريق حل الصراع العربى - الإسرائيلى، أم أنه عبارة عن نقلة كيفية فى مجال التخريب المنظم لعملية السلام الذى يمارسه نيتانياهو منذ أن أصبح رئيسا لوزراء إسرائيل؟ وهل صحيح أن الإرادة العربية مشلولة تماما وعاجزة عن الحركة، بحيث أنه لا الحكومات العربية ولا جماهير الشعب العربى تستطيع أن تقاوم المد الاستيطانى الإسرائيلى؟

لا يمكن وصف التحدى الإسرائيلى بغير كونه إعلانا للعرب جميعا وللفلسطينيين خاصة، بل وللمجتمع الدولى، أن إسرائيل ستبدأ عهدا جديدا من الاستعمار الاستيطانى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، يقوم على أساس مصادرة الأراضى الفلسطينية، وإنشاء المستوطنات الإسرائيلية فى صميم الأحياء والمناطق العربية حتى تتداخل الخطوط، وتحرم السلطة الوطنية الفلسطينية من إقامة دولتها المستقلة فى منطقة جغرافية محددة، تكون فيها السيادة الفلسطينية مطلقة. وهى سياسة تكفل للدولة الإسرائيلية حق الوجود بقواتها على امتداد الضفة الغربية وغزة بحجة حماية أمن المستوطنين.

لقد سبق لنا فى سلسلة من مقالات نشرت فى الأهرام بعنوان "قراءة ثقافية لخريطة الصراع فى زمن السلام" وكان بيريز مازال فى الحكم، أن تنبأنا بالفشل

(*) جريدة الأهرام، ٢٧ /٣/ ١٩٩٧.

الحتمى لعملية التسوية السلمية الجارية، نتيجة لما أطلقنا عليه "انحراف العقل الإسرائيلى" والذى يتمثل فى خطة الفصل الإسرائيلية بين الشعب الإسرائيلى والشعب الفلسطينى. وكان هذا التحليل تشخيصا مبكرا - بالرغم من محاولات بيريز تجميل الوجه الإسرائيلى - بأن المشروع الصهيونى قد يبدل أقنعته ولكن جوهره يبقى واحدا، والذى يتمثل فى النزعة الاستيطانية الوحشية والعنصرية المقيتة ضد العرب والشعب الفلسطينى، ولم يكن نجاح نيتانياهو فى الانتخابات وتوليه رئاسة الوزراء فى إسرائيل إلا تعبيرا صريحا ومخلصا عن هذه النزعة الصهيونية الأصيلة. قد يكون التعبير مباشرا وفجا، ولكن ميزته الكبرى أنه يكشف عن السياسات الصهيونية الأصيلة التى لا يختلف بشانها حزب العمل عن حزب الليكود، إلا فى نقاط التأكيد ولهجة الخطاب، ويكفى مصداقا لذلك الإشارة إلى الاتفاق بين الحزبين حول الحدود القصوى للتسوية السلمية مع الفلسطينيين والتى اتفقا عليها فى وثيقة تمت صياغتها بعد شهرين من المباحثات السرية.

ها نحن نبالغ فى تكييفنا لطبيعة التحدى الإسرائيلى لعملية التسوية السلمية الجارية الآن. وكيف يقوم نيتانياهو بنسفها بطريقة تدريجية متصاعدة؟ قد يكون من المناسب أن نرجع فى هذا الصدد إلى وجهة النظر التى طرحها الخبير الأمريكى المعروف بريزنسكى، مستشار الأمن القومى الأمريكى السابق، وذلك فى مقابلة أجريت معه فى ١٩ ديسمبر ١٩٩٦.

حين سئل بريزنسكى فى معرض تقييمه لانجازات السياسة الأمريكية عام ١٩٩٦، قرر أنه من أبرز مظاهر خيبة الأمل هو الإبطاء فى عملية التسوية السلمية فى الشرق الأوسط بما فى ذلك ضياع التوقيت الضرورى للحل. وفى رأيه أن هذا الفشل كان نتيجة لازمة لانتصار الليكود فى الانتخابات، والذى جاء بحزب، فى أحسن أحواله - يتسم بالشيزوافرانيا (انقسام الشخصية) فيما يتعلق بالسلام، وفى أسوأ أحواله هو مضاد للسلام. وكانت النتيجة ما شاهدناه من التعهد اللفظى بالسلام الذى يردده نيتانياهو فى كل يوم، فى الوقت الذى بسلوكه الفعلى يخربه أو يتجاهله. ويمكن القول بأن الرد الأمريكى على هذا السلوك كان بالغ السلبية. ويضيف بريزنسكى أن نتيجة السلوك الإسرائيلى. والذى يتمثل فى تخريب مسيرة السلام، ستؤدى إلى مخاطر أكيدة تتمثل فى مزيد من إراقة الدماء ومزيد من الصراع، مما سيجعل استمرار عملية التسوية السلمية أكثر صعوبة.

وقد عبر بريزنسكى عن رأيه الصريح فى تخريب نيتانياهو لعملية السلام، فى الخطاب الذى أرسله هو وزملاؤه من وزراء الخارجية الأمريكية ومستشارى الأمن القومى السابقين والذى وجه إلى الرئيس كلينتون، والذى نص فيه على أن ما يفعله نيتانياهو وحكومته بصدد تغيير الاتفاقات الموجودة حول الضفة الغربية مضر بالعملية السلمية، بل هو خرق للقانون الدولى وضد ما اتفق عليه فى أوسلو بواسطة إسرائيل والسلطة الفلسطينية. وكان رد فعل كلينتون أن ما يفعله نيتانياهو ضار، ويؤثر سلبا على العلاقات الأمريكية والإسرائيلية.

وفى المقابلة نفسها قرر بريزنسكى بكل وضوح أن على نيتانياهو أن يختار هل سيسلك سلوك رجل الدولة المسئول، أم سيسلك سلوك السياسى الغوغائى الذى يعد باحترام عملية التسوية السلمية ويسلك بالفعل كل يوم ضدها؟ وقرر أنه يصعب عليه أن يتنبأ بالوضع الذى سيختاره نيتانياهو. ولكن يمكن القول بإن الزمن أثبت أن نيتانياهو ليس سوى زعيم سياسى إسرائيلى غوغائى، جاء فى وقته ليبدد الآمال التى تبناها البعض فى أن المشروع الصهيونى يمكن أن يغير طبيعته، ويتكيف مع حقائق العصر، ويتنازل طوعا عن نزعاته الاستيطانية واتجاهاته العنصرية.

الإرادة العربية:

ولعل السؤال الرئيسى الذى ينبغى إثارته: ما هو العمل إزاء ما تأكد من خطة حزب الليكود التى يطبقها نيتانياهو رئيس الوزراء، والتى تتمثل فى تطبيق خطة صهيونية متكاملة لتهويد الضفة الغربية وغزة، وتحدى الأنظمة العربية كلها، ومطالبتها علنا بالخضوع للأمر الواقع، وتهديدها للسلطة الوطنية الفلسطينية بأن أى مقاومة فلسطينية لمصادرة الأراضى وإقامة المستوطنات، ستعتبر هذه السلطة مسئولة عنها، والتأكيد أنه ليس من حق المجتمع الدولى التدخل أو الاعتراض باعتبار ما يحدث أمورا داخلية إسرائيلية؟

الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن تنطلق من التكييف الصحيح للسياسات الراهنة التى يطبقها نيتانياهو. وهذه السياسات بكل بساطة هى موجة جديدة من موجات الاستعمار الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين، فى وجود سلطة وطنية فلسطينية، كان يفترض أنها بسبيلها إلى السيطرة على مجمل أراضى الضفة الغربية وغزة.

وعودة إلى التقاليد التاريخية فى مقاومة مختلف صور الاستعمار الاستيطانى فى العالم، يمكننا التأكيد أنه ليست هناك سوى صورة واحدة أثبتت فاعليتها عبر الزمن، وهى المقاومة الشعبية المنظمة، وهذه المقاومة الشعبية تتعدد صورها، ولا يمكن لها أن تختزل فى شكل مظاهرات احتجاجية، سواء كانت مظاهرات حقيقية ينخرط فيها مختلف أبناء الشعب الفلسطينى بكل فئاته، أو مظاهرات إعلامية يختلط فيها بعض فئات الشعب الإسرائيلى من أنصار السلام ومعهم حفنة من المتظاهرين العرب. وذلك لأن الأمر جلل، وهو أخطر من مظاهرات يقف فيها بعض السياسيين المحترفين أمام عدسات التليفزيون إثباتا لوجودهم الهش، أو لدورهم المزعوم! المقاومة الشعبية علم صاغ نظرياته نضال الشعوب التى استعمرت، والتى نجحت من خلال الكفاح المخضب بالدم فى انتزاع حريتها واستقلالها من براثن الاستعمار.

نحن نحتاج - فى زمن السلام المزعوم المعروض علينا - والذى هو فى الواقع ليس سوى استسلام مهين، أن نعود مرة أخرى لقراءة أوراق النضال العربى ضد الاستعمار، والنضال الشعبى العالمى ضد كل قوى الهيمنة.

غير أن هذه القراءة ينبغى أن تبدد شكوكا رسخت فى الأذهان، واتجهت إلى أن تزعم أن الإرادة العربية عاجزة، وأن القدرات العربية لا قبل لها بمناطحة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية التى تقف وراءها.

نقطة البداية تكمن فى التأكيد على أن القدرات العربية لا حدود لها، وأن لدينا إرادة عربية فاعلة، وأن القوى الشعبية العربية قادرة من خلال كفاحها على أن تستنهض الهمم الخاملة، وأن تستفز مشاعر الوطنية والقومية، الكامنة، وأن تصوغ سياسة عربية قومية لتحرير الأراضى العربية المحتلة، وفى مقدمتها الأراضى الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة.

فى هذه السياسة العربية القومية ستكون السلطة الوطنية الفلسطينية فى مقدمة المعركة، بعد أن تنحاز لمطالب الشعب الفلسطينى، وتدرك أن الاستمرار فى مسيرة عملية التسوية السلمية فى ظل التهويد الصهيونى المستمر للأرض العربية،وفى مناخ مثقل بالتهديدات الإسرائيلية، حيث تنتشر المدرعات الإسرائيلية فى كل مكان لفرض الإرادة الاستيطانية اليهودية بالقوة المسلحة، ليس إلا قبولا رسميا بالاستسلام.

وهذه السياسة القومية العربية تحتاج أولا إلى قيادة قومية تمثل فيها بشكل متناسق

أبرز التيارات والقوى السياسية الفاعلة العربية، وهى المسئولة عن التخطيط طويل المدى، وعن رسم الخطط فى الأجل القصير والمتوسط وهى المسئولة عن التمويل والإعلام الموجة والتعبئة الشعبية العربية، وهذه السياسة، لا يمكن أن تصاغ أو تقوم بدورّها بعيدا عن الأنظمة السياسية الراهنة، التى ينبغى أن تبادر وبلا إبطاء بتجميد كل صور التطبيع مع إسرائيل، بل إن نقطة البداية هى إقناع هذه الأنظمة أن بناء مستوطنة أبو غنيم هو الإعلان الرسمى عن حقبة جديدة فى السياسة الإسرائيلية، لإخضاع مختلف الأنظمة السياسية العربية للإدارة الإسرائيلية فى ظل التهديد العسكرى الذى لن تفلت منه دولة عربية واحدة.

وهكذا يمكن القول إن نقطة البداية هى رفع مستوى الوعى العربى، وعى الأنظمة ووعى جماهير الشعب على السواء بأننا نواجه اختيارا تاريخيا حاسما:

إما الخضوع للإرادة الإسرائيلية وإما المقاومة. ولا تعنى المقاومة شن الحرب على إسرائيل، ولا إعلان الجهاد من فوق المنابر، وإنما تعنى خطة شاملة، يلعب فيها الإعلام والدبلوماسية والسياسة أدوارا أساسية، ولكنها لا تغنى أبدا عن المقاومة، والتى لا مناص من أن تأخذ شكل انتفاضة فلسطينية جديدة لا تقنع هذه المرة بإلقاء الحجارة على القوات الإسرائيلية، مدعومة من قبل مختلف طوائف الشعب العربى. وهذه الانتفاضة ينبغى أن يخطط لها على مهل، ضمانا لاستمراريتها، حتى وصولها إلى تحقيق مطالب الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة على الضفة الغربية وغزة.

فى الماضى كانت إسرائيل والدوائر الصهيونية فى الغرب، تتهم الشعب العربى بجميع طوائفه بأنه معاد لإسرائيل ويرفض الاعتراف بها، ولا يريد إقامة سلام يحقق الاستقرار فى الشرق الأوسط والآن بعد أن أعلنت جميع الأنظمة العربية فى مؤتمر مدريد استعدادها لإقامة سلام مع الدولة الإسرائيلية، بل وبعد أن وقعت مصر والأردن معاهدات سلام مع إسرائيل، وبعد أن وقعت منظمة التحرير الفلسطينية اتفاقية أوسلو، لا يمكن الزعم بأن الرفض العربى لإسرائيل هو سبب التوتر المتصاعد، والذى لابد له أن يفضى فى الأجل القصير إلى تصاعد حدة العنف ممثلا فى رد الفعل الفلسطينى المباشر ضد العدوان الإسرائيلى، والذى لابد له أن يتصاعد ويتعمق ويصب فى حركة عربية شاملة، شعارها لا للاستسلام ولكن مقاومة حتى النصر.

محنة العقل الإسرائيلى(*)

يمر العقل الإسرائيلى بمحنة لا شك فيها، ولعل أبلغ ما يعبر عنها ذلك الانفصام الحاد الذى ظهرت تجلياته فى السنوات الأخيرة بين نزعة العنف والعدوانية إزاء العرب، واتجاه ينحو إلى الخضوع لمتطلبات السلام، كحل للصراع العربى - الإسرائيلى الذى بقى مشتعلا لعشرات السنين.

ومما يكشف عن الخلل الجسيم فى العقل الإسرائيلى، أنه يتناسى السجل الإسرائيلى الأسود فى التعامل مع الشعب الفلسطينى فى كل العهود منذ إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨. ومنذ تولى نيتانياهو رئاسة وزراء إسرائيل وهو يمارس وبشكل غير مسبوق الاستعمار الاستيطانى للأراضى الفلسطينية بكل تجلياته المعروفة، وهى مصادرة الأراضى الفلسطينية بدون أى سند قانونى بحجة حماية الأمن، ونسف بيوت الفلسطينيين ومد الاستعمار الاستيطانى فى القدس، وفى كل نواحى الضفة الغربية، بإنشاء مستوطنات جديدة، والتوسع فى المستوطنات القائمة. والسيطرة على المياه فى الضفة الغربية، وإقامة سياسة للفصل بين الشعب الفلسطينى وباقى إسرائيل، وإغلاق المنافذ، ومنع الفلسطينيين من العمل بهدف تجويعهم واخضاعهم للسياسات الإسرائيلية، وأخيرا ما أعلن عن إقامة سد مائى فى الجولان السورية المحتلة.

ومن هنا يصح التساؤل عن بنية العقل الصهيونى لنعرف كيف تجمع النخبة

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٧/٩/١١.

السياسية الإسرائيلية بين التناقضات الحادة المتمثلة فى الاتجاهات التى تميل إلى العدوان فى كل العهود، والسياسات التى ترفع شعار التسوية السلمية فى بعض الفترات.

بنية العقل الصهيونى:

للعقل الصهيونى بنية خاصة متميزة، تبلورت نتيجة قراءة أيديولوجية مشوهة للتاريخ اليهودى، وقامت على أساس تفسير بمقتضاه أنه ليس هناك حل للشتات اليهودى سوى العودة إلى أرض الميعاد. وهذه العودة لابد لها أن تتجه إلى فلسطين، حيث ينبغى إقامة دولة يهودية خالصة تكون موطنا لكل يهود العالم. وهذه القراءة للتاريخ اليهودى لم تبق حبيسة الاجتهادات الفكرية، أو محصورة فى حدود الندوات المغلقة، بل تحولت إلى فعل سياسى فى مؤتمر بازل، والذى تقرر فيه إنشاء الدولة اليهودية. واستطاعت الحركة الصهيونية بجهود تتسم بالدأب بعد خمسين عاما من انعقاد المؤتمر أن تنشئ فعلا الدولة الإسرائيلية عام ١٩٤٨.

غير أن السياسة الصهيونية واجهت منذ البداية السؤال الرئيسى. ماذا نفعل بالشعب الفلسطينى المقيم فعلا على أرضه، وكيف سنتعامل معه؟

نستطيع أن نؤكد أن هذا السؤال الرئيسى الذى شغل العقل الصهيونى منذ البداية، مازال معلقا على رؤوس النخبة الإسرائيلية حتى الآن، وما الخلافات الحادة بين اليمين واليسار، والعلمانيين والمتدينين، وأنصار الحرب وأنصار السلام، إلا علامة على أن هذا السؤال اختلفت بشأنه الرؤى الفكرية والاجتهادات السياسية منذ البداية وحتى الآن، وأثرت الإجابات المختلفة عليه تأثيرا بالغا على السياسات الإسرائيلية فى مختلف العهود.

وقد استطعنا أن نضع أيدينا على هذه الإشكالية الجوهرية فى كتابنا "الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر"، فقد عقدنا فصلا خاصا عن "المفهوم الإسرائيلى للشخصية العربية": واعتمدنا فى التحليل أساسا على دراسات عالم سياسة كندى يهودى شهير هو مايكل بريتشر.

وبالرغم من أن بريتشر يقرر فى بداية عرضه لصورة العرب فى ذهن النخبة الإسرائيلية بأن "الصورة الإسرائيلية" عن العرب كعالم وكعقل وكمجتمع وكشعب

وكعدو بالغة التحدد باعتبارها تحتل مكانا مركزيا فى "رؤية العالم" التى لدى صانعى سياستها العليا، إلا أن ما يسميه صورة العرب فى ذهن النخبة الإسرائيلية، هو أقرب ما يكون إلى الاستراتيجيات المختلفة التى دعا لتطبيقها مختلف أعضاء هذه النخبة ضد العرب.

ويقرر بريتشر أنه ليست هناك صورة واحدة للعرب، بل صور متعددة متعارضة، وهناك فى الفكر الإسرائيلى تنميط ثلاثى للصورة الإسرائيلية عن العرب.

الرؤى الإسرائيلية عن العرب:

تتضمن الرؤى الإسرائيلية عن العرب ثلاث صور متمايزة يطلق عليها على التوالى: البوبرية نسبة إلى الفيلسوف مارتن بوبر: والبنجوريونية نسبة إلى رئيس وزراء إسرائيل السابق بن جوريون، والوايزمانية نسبة إلى حاييم وايزمان الزعيم الصهيونى وأول رئيس لدولة إسرائيل.

والاتجاه الأول الذى يطلق عليه البوبرية نسبة إلى الفيلسوف اليهودى مارتن بوبر، يمكن تلخيص مقولته الرئيسية فى الدعوة إلى التوافق مع العرب من خلال الحلول الوسط.

وهذا الاتجاه فى جوهره يمكن إجمال منطقه فيما يلى: أن اليهودية دين يتسم بمعايير أخلاقية عالية، وهناك ظلم وقع على العرب، وبالتالى فعلى إسرائيل أن تكفر عن أفعالها غير الأخلاقية.

أن هذه الصورة هى التى تبنتها المجموعة القديمة التى تدعو للثنائية القومية، والتى كان يتزعمها بوبر وماجنس مع حزب المابام، وكذلك تبنتها بعض الأصوات المتناثرة فى الجامعات، وبعض العناصر فى وزارة الخارجية تؤدى منطقيا إلى سياسة تقوم على التنازلات.

وقد اختلف مضمون هذه التنازلات بحسب الجماعات وباختلاف المراحل، غير أن جوهر هذه السياسة كان هو تجاه تقديم تنازلات من أجل السلام.

والاتجاه الثانى الذى يطلق عليه البنجوريونية، تحتل مكانها فى أقصى دائرة

الطيف، ويمكن أن تصاغ كما يلى: "نحن اليهود قد اضطهدنا لفترة امتدت إلى ألفى سنة، وأخيرا قد استعدنا هذه البقعة من الأرض فى وطننا التاريخى، وكان ينبغى على العرب أن يستقبلونا بحرارة باعتبارنا أبناء عمومة، ولكنهم على العكس فإنهم يحاولون أن يخلقوا لنا، "جيتو" آخر عن طريق المقاطعة والحصار".

وجوهر هذا الاتجاه يتمثل فى الاعتقاد فى أن العرب غير قادرين على قبول التعايش السلمى فى هذه الحقبة التاريخية، ولذلك فإن إسرائيل لابد أن تظهر قبضتها وتلوح بها بين الحين والآخر.

وبناء على هذه النظرة صاغ بن جوريون سياسة الردع ضد العرب، وذلك أثناء حكمه من ١٩٥٣ حتى ١٩٥٦ وساعده على تنفيذها الجنرال موشى ديان. وفى الفترة التى أعقبت حرب الأيام الستة أخذت شكل "عدم التنازل عن بوصة واحدة من الأرض العربية المحتلة". وهناك عنصر آخر فى الصورة وهو أنه إذا استطاعت إسرائيل أن تحتفظ بصورتها وبالحقيقة التى مبناها أنها ستظل هكذا لا تقهر فذلك سيؤدى إلى تغير جوهرى فى نفوس العرب.

ونصل أخيرا إلى الاتجاه الثالث وهو الوايزمانية، والذى يمكن تلخيص مقولته الأساسية فى ضرورة التوافق بين الإسرائيليين والعرب من خلال البحث العقلانى للحصول على حلول معتدلة.

والمسلمة الأساسية لهذه النظرة أن المواجهة العربية الإسرائيلية ليست صراعا دوليا شاذا، بل هو نزاع حاد ومستمر، لكنه يقع فى دائرة السواء، وينبغى النظر إليه كذلك، وأبعد من ذلك فالصراع لا يمكن حله عن طريق حل واحد منفرد، ولكن عن طريق سلسلة من التدابير غير الجذرية والتى تنفذ عبر الزمن. ووجهة النظر هذه ترى أن حل الموقف يتمثل فى تغيير المناخ، وتخفيض المستوى العام للتوتر عن طريق الأعمال البنائية التى توسع الثقة بين الأطراف المتصارعة.

التفسير والمستقبل:

فى ضوء تحليل مضمون هذه الصور الثلاث عن اتجاهات النخبة الإسرائيلية إزاء العرب، يمكن القول إن النخبة الإسرائيلية التى طبقت رؤية بن جوريون فى الخمسينيات وحتى حرب ١٩٦٧ وما بعدها، والتى تقوم على أساس أن العرب لا

يعرفون إلا لغة القوة والردع، قد تراجعت بشكل ملموس بعد هزيمة إسرائيل في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وتكرر هزيمة إسرائيل التى استقرت فى الوعى العام الإسرائيلى، بالرغم من ادعائها أنها لم تهزم على أساس أنها خرجت من الحرب متعادلة مع القوات المصرية والسورية. بعد أكتوبر ١٩٧٣ حدث التحول من سياسة بن جوريون إلى الاتجاه الثالث وهو مدرسة وايزمان، والتى ترى أن الحل يمكن أن يأتى عبر سلسلة طويلة من الخطوات، وربما كانت اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل ترجمة لهذا التحول ثم بعد ذلك مؤتمر مدريد وما تلاه وعقد المعاهدة الإسرائيلية - الأردنية، وأخيرا اتفاق أوسلو بكل ما يتضمنه من ثغرات ونقاط ضعف خطيرة.

غير أنه بقدوم نيتانياهو إلى الحكم بناء على اتجاه يمينى عارم يمثله الناخبون الإسرائيليون الذين وعدهم مرارا وتكرارا بتحقيق الأمن والسلام، يمكن القول إن السياسة الإسرائيلية تراجعت تراجعا شديدا لتتبنى مرة أخرى نظرية بن جوريون، ومبناها كما قررنا أن العرب لا يعرفون سوى لغة القوة والردع. وهذا هو الجذر الحقيقى الذى تقوم عليه السياسة الإسرائيلية فى الوقت الراهن وبغض النظر عن شخصية نيتانياهو.

وهكذا يمكن القول إنه فى مقابل هذه السياسة العدوانية المستندة إلى التراث الإسرائيلى فى العداون على العرب، ليس هناك من حل سوى اشتداد المقاومة الفلسطينية بكل أشكالها، وتعميق المقاومة اللبنانية، والصمود العربى ضد سياسات الاستيطان والتهويد والعدوان.

لن يوقف سياسات إسرائيل العدوانية والعنصرية إلا قارعة كقارعة حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولكن هذه القارعة لن تقوم بها الحكومات، ولا السلطة الفلسطينية، وإنما سيقوم بها الشعب الفلسطينى والمقاومة اللبنانية، مدعومين فى ذلك بجموع الشعب العربى فى المشرق والمغرب على السواء.

العولمة وتسوية الصراع العربى - الإسرائيلى(*)

هل يمكن القول إن إطلاق العنان للصراعات الإقليمية بدون تدخل جدى من القوى الدولية الكبرى لوقفها، تعد من علامات العولمة الجديدة؟ وهل تفكك دول الجنوب من صالح دول الشمال، أم أنه يؤدى إلى آثار بالغة السلبية على مجمل حركة النظام العالمى؟

ثارت هذه الأسئلة فى ذهنى بمناسبة زيارة أولبرايت وزيرة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى المنطقة.

سبقت الزيارة تحليلات عربية تركز على أصولها اليهودية، وانحيازها المسبق لإسرائيل، وكأنها تعبر عن وجهة نظرها الشخصية! ومعنى ذلك أن هذه التحليلات تركز على البعد الشخصى للفاعلين فى السياسة الخارجية للدول، وكأنه هو الحاسم فى رسم السياسة. وفى ذلك مافيه من تجاهل للأسباب الموضوعية - أيا كان رأينا فيها - التى تحدد سياسة دولة ما من الدول.

وإن كان الأسلوب الشخصى أحيانا ما يضع إطارا يتحرك فيه الفاعل السياسى ويلونه بطريقته. فطريقة كيسنجر مثلا فى تعامله مع القادة والزعماء، وأسلوبه فى حل النزاعات والصراعات قد يختلف عن أسلوب أولبرايت. ولكن كلا منهما - مع الوضع فى الاعتبار اختلاف المراحل التاريخية - يعبر فى الواقع عن سياسة دولته التى ترسمها أجهزة صنع القرار الاستراتيجى، والتى تؤثر فى تشكيلها مجموعة معقدة من العوامل الداخلية والخارجية.

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٧/٩/٢٥.

نظرة على خريطة الصراع:

لا يمكن الحديث فى الوقت الراهن - وخصوصا منذ تولى نيتانياهو منصب رئيس الوزراء الإسرائيلى - عن تسوية سلمية للصراع العربى الإسرائيلى. ذلك أنه يتبين وبالتدريج أن نيتانياهو قد خطط لنسف اتفاق أوسلو، وتجميده نهائيا، والدعوة إلى تجاوزه للوصول إلى مرحلة الحل النهائى كما يقول، غير أنه عقب إلغائه الفعلى لاتفاق أوسلو، بدأ فى تدشين موجة جديدة من موجات الاستيطان الإسرائيلى فى الأراضى العربية سواء فى القدس أو فى أراضى الضفة الغربية وغزة. وهذه الموجة الجديدة من الاستيطان الإسرائيلى تتشكل على أساس حرمان الشعب الفلسطينى من أن تكون له أراض مستقلة يمكن أن تشكل دولة فى المستقبل. وعلى ذلك فالخطة الإسرائيلية ترمى إلى اختراق الأراضى الفلسطينية وزرع المستوطنات فيها وفقا لخطة مدروسة بعناية، بحيث تتشابك فى النهاية المستوطنات الإسرائيلية مع المدن والقرى الفلسطينية. وهذه المستوطنات ستحرسها بالضرورة قوات إسرائيلية، استعدت لمهامها من خلال شق طرق مباشرة تجعل حركة جيش الدفاع سهلة وميسورة وهو يقوم بمهام الدفاع عن المستوطنات.

زرع المستوطات الجديدة ليس سوى طريقة واحدة من خطة الحرب الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى، ذلك أن هناك خطة لتوسيع المستوطنات القائمة. ويمكن أن تضيف إلى عناصر الخطة الإسرائيلية آلية نسف بيوت الفلسطينيين سواء بادعاء أن أصحابها قد بنوها بغير ترخيص، أو لشبهات تتعلق بسكانها على أساس أنهم يدعمون - بشكل أو بآخر - حركة المقاومة الفلسطينية. ومن أخطر الآليات الإسرائيلية المستخدمة مصادرة آلاف الهكتارات من الأراضى الفلسطينية بدعاوى ضرورة الحصول عليها لأهداف الأمن الإسرائيلى.

وإذا كان نيتانياهو فى سياساته وكذلك فى تصريحاته الصادرة عنه، صريحا غاية الصراحة فى إعلان أهداف الموجة الاستيطانية الجديدة، لدرجة تصريح المتحدث الرسمى له بأن تجميد الاستيطان يعنى تجميد الحياة فإنه يعد تجاهلا للتاريخ الادعاء أن هذه سياسة يهودية خالصة والصحيح أن ما نشهده هو تنفيذ صريح لخطة صهيونية إسرائيلية شارك فيها من قبل بحماس شديد حزب العمل، الذى أنشئت فى عهده عشرات من المستوطنات فى الأراضى المحتلة.

فلنقل إذن إنه اختلاف فى الأسلوب لا أكثر ولا "أقل" بين حزب العمل وحزب الليكود.

ومما يلفت النظر أن موجة الاستيطان الإسرائيلى، يتم استكمالها يوما بعد يوم، وفى تجاهل تام للاحتجاجات الفلسطينية والعربية، بل وفى إعراض مطلق عن الاستماع إلى أى نصيحة أمريكية. ونقول نصيحة ولا نقول ضغطا أمريكيا لأن هذا الضغط الأمريكى مستبعد فى النظرية والتطبيق معا، وذلك لأسباب يطول شرحها، وسبق أن فصلنا فيها من قبل فى سلسلة مقالات متعاقبة.

قبيل زيارة أولبرايت للمنطقة مهدت لها بهجوم على عرفات لأنه لا يبذل جهدا كافيا لاقتلاع البنية التحتية لجذور الإرهاب الفلسطينى الذى تقوده حركة حماس فى المقام الأول. ولكنها حين هبطت إلى المنطقة لم تتردد فى أن تصرح بأن الشعب الفلسطينى قد عانى كثيرا، وإن على إسرائيل أن تجمد بناء المستوطنات! حتى تعود عجلة التسوية السياسية للصراع إلى الدوران.

وحددت بوضوح قاطع تصورها لدور الراعى الأمريكى حين قررت أنه أشبه بمخرج العرض فى سيرك ما، تقف مهمته عند حدود إخراج العرض، غير أنه ينبغى على اللاعبين - وهى تقصد هنا عرفات ونيتانياهو - أن يقوموا بألعاب الهواء!

ومعنى ذلك انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها راعية عملية التسوية السلمية من أى محاولة للضغط على إسرائيل حتى توقف الموجة الاستيطانية الإسرائيلية الجديدة، والتى تهدف استراتيجيا إلى تخليق واقع جديد على الأرض الفلسطينية يصعب تغييره فى المستقبل، ويهدف إلى المنع الفعلى لقيام دولة فلسطينية لها حدود واضحة ولا تشتبك مع مستوطنات إسرائيلية فى الضفة الغربية وغزة.

ولو تأملنا الحادثة الأخيرة فى رأس العامود حيث تسللت عدة عائلات إسرائيلية إلى عدد من البيوت الفلسطينية للإقامة فيها وبداية تهويد المنطقة، وكيف حاول نيتانياهو بطريقة مسرحية الادعاء بأن المسألة فى يد جهات القضاء لأدركنا أن القيادة السياسية الإسرائيلية الراهنة تتوسل بكل الوسائل لكى تنفذ بالكامل خططها لتهويد القدس، وتهويد عديد من الأراضى الفلسطينية من خلال إقامة مستوطنات جديدة فيها، أو بناء أحياء سكنية كاملة.

ولعل فى رد الفعل الأمريكى للتسوية التى قيل إن نيتانياهو دفع إليها، وهى أن يحتل البيوت الفلسطينية عدد من طلبة المعاهد الدينية بدلا من الأسر الإسرائيلية، والذى تمثل فى إبداء الموافقة والارتياح لهذا الحل، فإنه يشير إلى طبيعة النفاق السياسى الذى تزاوله بطريقة منهجية منظمة الولايات المتحدة الأمريكية. ذلك أننا لا نجد أى تصريحات تدين الاستيطان من ناحية المبدأ، ولا نعثر على مواقف أمريكية تدفع إسرائيل للحد من تنفيذ موجتها الاستيطانية الجديدة.

الفعل فى مواجهة الكلام:

هناك إذن فعل إسرائيلى يتمثل فى تنفيذ إسرائيل لخطتها الاستيطانية الجديدة، بعد أن دفنت فعلا جثة اتفاق أوسلو، غير أنه فى مقابل هذا الفعل لانجد - على الجانب العربى - غير ردود فعل كلامية لا تخرج عن عبارات الشجب التقليدية، مصحوبة بعبارات أخرى أقرب إلى التوسل للولايات المتحدة الأمريكية للتدخل لدفع إسرائيل دفعا للمضى قدما فى التسوية السلمية. وتتعد المشاورات السياسية بين القادة العرب - المختلفين أصلا حول اتجاهات التسوية ووسائلها - ولا يكون حصيلتها سوى تصريحات فارغة من المضمون. ويكفى أن نشير إلى العجز العربى الذى يتمثل فى الإجماع حول انعقاد مؤتمر الدوحة. ذلك أن قطر وغيرها من الدول العربية قد خضعت بكل بساطة للضغوط الأمريكية لعقد المؤتمر، والذى لن تخرج منه دولة عربية واحدة بأى مكسب اقتصادى وسياسى، فى حين أن إسرائيل ستكون هى الرابح الوحيد.

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هل إسرائيل فقط هى التى تحتكر الفعل، أم أن هناك أطرافا عربية أخرى، قادرة على الفعل فى ظل ظروف معينة؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من الإشارة إلى الإمكانات الفعلية الهائلة لحركة المقاومة الفلسطينية، والتى كشفت عنها الأعمال الفدائية الأخيرة، والتى أوقعت عشرات من الضحايا الإسرائيليين. لقد كانت الرسالة الموجهة لإسرائيل، أن هناك حدودا لممارسة القهر المنظم للشعب الفلسطينى، وإهدار حقوقه المشروعة وأن سياسة السلام فى مقابل السلام التى يرفعها رئيس وزراء إسرائيل، والذى وعد ناخبيه بتحقيق الأمن سياسة فاشلة. وفى تقديرنا أن الرسالة الموجهة لإسرائيل قد

أدت أهدافها تماما، وقد رأينا المظاهرات الإسرائيلية الحاشدة التى تطالب نيتانياهو بالاستقالة لأن سياسته لن تجلب سوى الخراب والدمار على إسرائيل.

غير أن إسرائيل من ناحية أخرى ظنت وهما أنها الوحيدة المحتكرة للفعل فى حين أن العرب لا يجيدون إلا الكلام. وتطبيقا لهذه الفكرة قررت أن ترسل مجموعة من خيرة قوات الكوماندوز الإسرائيليين للنزول فى الأراضى اللبنانية للقيام بعمليات تخريبية مدروسة. غير أنها فوجئت بالجيش اللبنانى يتصدى بقوة لمحاولة الإنزال الفاشلة، وتحصد قواته مدعومة بقوات المقاومة اللبنانية كل العناصر العسكرية الغازية. وهكذا ثبت لإسرائيل لأول مرة منذ سنوات طويلة، أن يدها الطويلة يمكن أن تقطع، وأن بعض الأطراف العربية قادرة على الفعل.

وأيا ما كان الأمر، فيمكن القول، إنه فى مواجهة الهجمة الاستيطانية الإسرائيلية الجديدة، هناك تخاذل واضح للقوى الفلسطينية والعربية التقليدية غير أن دروس التاريخ تقول - وآخرها حرب أكتوبر ١٩٧٣ - إن إسرائيل لن يردعها سوى استخدام القوة العربية.

وليس بالضرورة أن يقوم بهذا الردع هذه المرة الجيوش النظامية العربية. ولكن قوى المقاومة الفلسطينية واللبنانية ستلعب هذا الدور التاريخى، الذى بدونه سيخضع الوطن العربى بكامله للهيمنة الإسرائيلية.

الموقف من التطبيع(*)

تعقبنا من قبل الأصول التاريخية لظاهرة رفض الآخر التى تبنتها بعض التيارات فى الثقافة العربية المعاصرة، وقررنا أن الآخر ظل لفترة طويلة هو أوروبا التى مثلت بالنسبة لنا النموذج الحضارى الذى يستحق أن يحتذى به إن شئنا أن نتجاوز التخلف إلى آفاق التقدم، ومن ناحية أخرى مثلت العقبة فى سبيل تحررنا بحكم استعمارها لبلاد عربية شتى.

ثم ما لبث هذا الآخر أن أصبح هو الولايات المتحدة الأمريكية، وريثة الامبراطوريات الأوروبية، والتى أصبحت موضعاً للشك والكراهية، بحكم دعمها غير المحدود لدولة إسرائيل الصهيونية، وتآمرها على مصر فى حرب يونيو ١٩٦٧، حيث ساهمت مساهمة فعالة تخطيطياً وعسكرياً مع إسرائيل لإيقاع الهزيمة بالنظام الناصرى، هذا مع إعترافنا بالأخطاء المصرية الجسيمة فى هذا الصدد.

غير أن هذا لا ينفى أن الرفض العربى الأصيل تحول منذ عام ١٩٤٨، تاريخ إنشاء الدولة الإسرائيلية، إلى إسرائيل دولة وحكومة ونظاماً وشعباً، ليس فقط لأنها قامت كدولة على أنقاض المجتمع الفلسطينى الذى هدمته وشردت أبناءه فى بلاد العالمين ولكن لكونها منذ انشائها وهى تمارس عمليات ردع ضد الشعوب العربية، فى فلسطين وضد مصر وسوريا ولبنان والأردن.

ولا نريد أن نخوض فى تفصيلات الصراع الدامى المرير بيننا وبين إسرائيل،

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٧/٢٢.

والذى شهد لحظتين فاصلتين: الهزيمة فى حرب يونيو ١٩٦٧، والنصر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتى غيرت الموازين تماماً فى الصراع، بعدما نجحت مصر فى تحطيم خط بارليف والعبور إلى سيناء وإنزال هزيمة قاسية وموجعة بالإسرائيليين وخصوصاً فى المرحلة الأولى من الحرب، مما جعلهم يستنجدون بحليفتهم الولايات المتحدة الأمريكية، التى شاركت - بحكم إمدادها السريع لإسرائيل بالدبابات والأسلحة المتطورة - فى المرحلة الثانية من حرب أكتوبر.

لقد أدت حرب أكتوبر من بعد إلى توقيع اتفاقيات كامب ديفيد، والمعاهدة المصرية الإسرائيلية التى أدت على أرض الواقع إلى سلام مصرى - إسرائيلى يوصف عادةً بأنه سلام بارد بحكم حرص مصر على عدم التطبيع الكامل مع إسرائيل، نظراً لمواقفها المتشددة مع البلاد العربية المحتلة، وفى مقدمتها سوريا ولبنان، وقبل ذلك كله لكونها أصرت على مواصلة سعيها لتشريد الشعب الفلسطينى ومصادرة أراضيه، وإقامة المستوطنات فى صميم الضفة الغربية الفلسطينية. غير أنه أهم من ذلك كله الشعور المصرى العارم الرافض للتطبيع مع إسرائيل، والذى ترجم عملياً فى القرارات الشهيرة التى أصدرتها الجمعيات العمومية للنقابات المهنية، كنقابة الصحفيين والأطباء والمهندسين وغيرها من النقابات بالإضافة إلى الجامعات المصرية بمنع التطبيع مع إسرائيل إلا إذا قامت الدولة الفلسطينية وحصل الشعب الفلسطينى على حقوقه الثابتة، وتحققت عودة اللاجئين، بالإضافة إلى انسحاب إسرائيل من الجولان السورية المحتلة، ومن جنوب لبنان.

المسكوت عنه فى كوبنهاجن!

غير أن أخطر اختراق لقرارات مقاومة التطبيع ما اعتبره جمهور المثقفين المصريين فى تعرضه لحلف كوبنهاجن، ومن بعد للجمعية المصرية للسلام التى قامت على أساس الترويج لافكاره الأساسية.لم يكن رفض كوبنهاجن رفضاً للسلام كما يدعى أنصاره، وانما كان من قبيل ضرورة وضع الشروط المبدئية للسلام العادل وللقبول بالآخر الإسرائيلى.

وقد أدى انعقاد المؤتمر الأخير لحلف كوبنهاجن فى القاهرة الى رد فعل بالغ الحدة والضراوة من قبل جمهور المثقفين المصريين تمثل فى مؤتمر القوى الشعبية

الذى انعقد فى فندق شبرد، ووجهت فيه اتهامات شتى غير مقبولة من وجهة نظرنا لأعضاء حلف كوبنهاجن. ذلك انه انتهى - فيما نتصور - عهد تخوين الآخرين المختلفين فى الرأى، كما أنه ليس من حق أحد أيا كان أن يطعن مواطنا آخر فى وطنيته لمجرد كونه اجتهد اجتهادا سياسيا مختلفا.

ولكن التجاوزات التى انطلقت من كلا المعسكرين لم تكن هى المشكلة، ولكن المشكلة الحقيقية فى المسكوت عنه فى التوصيف الدقيق لمسلك أعضاء حلف كوبنهاجن، والذى لو ركزنا عليه لأعدنا النظر فى طبيعة المعركة الضارية بين من أطلق عليهم المطبعون، وبين أعداء التطبيع.

الحقيقة إن إدعاء حلف كوبنهاجن أنهم يمثلون جمعية أهلية تدعو للسلام ليس صحيحا بالمرة. فمجموعة كوبنهاجن ليست - كما يعرف الناس جميعا وإن كانوا لا يفصحون عن ذلك - إلا مجموعة من المثقفين والسياسيين يعملون تحت الإشراف الدقيق لوزارة الخارجية، وقد انتدبت هذه المجموعة لتحقيق بعض الأهداف السياسية المصرية الرسمية، وهى محاولة إشراك الرأى العام المصرى والرأى العام الإسرائيلى فى تغيير اتجاهات الشعب الإسرائيلى ودفعه دفعا إلى القبول بالسلام، باعتبار أن مصر الرسمية ترى أن السلام خيار استراتيجى.

ولو اعترف أعضاء حلف كوبنهاجن بذلك علنا ما تعرضوا للهجوم الشديد. وذلك لسبب بسيط هو أنهم فى الواقع يقومون بدور رسمته لهم بدقة وتحت إشرافها الدقيق وزارة الخارجية المصرية، وقد قبلوا هم المهمة من قبيل القيام بواجب وطنى يحقق أهداف السياسة الخارجية المصرية. ولو سادت العقلانية بيننا لآمنا بأن منهج توزيع الأدوار الذى تقوم به إسرائيل ذاتها ببراعة منقطعة النظير فى تحقيق أهدافها السياسية، منهج مقبول فى الدولة التى تريد من خلال تعدد الأصوات فيها أن تثبت أولا إيمانها بالتعددية، وأن تحاول ثانيا إبلاغ رسالتها الى العالم بصور متعددة.والمدهش فى الموضوع أن المعسكر الآخر المعادى للتطبيع، يعرف تماما هذا التوصيف الدقيق لمهمة أعضاء حلف كوبنهاجن ووظيفة جمعية القاهرة للسلام التى وافقت الحكومة على تأسيسها فى سرعة قياسية، إلا أنها لم تشأ أن توجه الهجوم الى الحكومة، وإنما آثرت أن توجهه إلى أشخاص المشاركين فى حلف كوبنهاجن وفى الجمعية، مع أنهم فى واقع الأمر ليسوا سوى مجرد منفذين فى يد

السياسة الخارجية المصرية، تريد منهم أن يلعبوا دورا وقد لعبوه فى الواقع بمنتهى الكفاءة فى حدود ما رسم لهم غير أن حظهم العاثر إن الحكومة لم تشأ أن تتوحد معهم فى محنتهم الآخيرة، وتركتهم فى العراء للهجوم الصاعق فى معسكر أعداء التطبيع الذين تجاهلوا بغير حكمة التكييف الحقيقى لهم، حرصا على عدم مواجهة الحكومة مباشرة، أو الهجوم على سياساتها فى التطبيع بالتنفيذ للاتفاقيات الفرعية الملحقة بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

ما سقناه ليس كشفاً ننفرد به وإنما هو حقيقة الموضوع كما تعرفه جميع الأطراف المتخاصمة. ونحن نرى أن أعضاء كوبنهاجن لم يقوموا فى الواقع بعملية تطبيع، وإنما قاموا - بناء على تكليف رسمي - بمهمة محددة وهى الحوار السياسى مع الإسرائيليين كوسيلة من وسائل التأكيد على أن السلام خيار استراتيجى لمصر.

رفض الإسرائيليين:

ونصل بذلك إلى صميم الموضوع وهو الشروط الضرورية لقبول الآخر الإسرائيلى. أولا رفض التطبيع مع إسرائيل بما يعنى جعل العلاقات الشعبية على الاخص بالإضافة إلى العلاقات الأكاديمية والعلاقات بين المؤسسات الثقافية هنا وهناك "سداح مداح" وإذا استخدمنا عبارة أحمد بهاء الدين الشهيرة، يجد منطقه الذى لا يريد فهمه إطلاقاً الإسرائيليون المتنطعون ولا الأمريكيون الملحاحون الذين يضغطون علينا كل حين لممارسة التطبيع العميق تشجيعاً على بناء الثقة مع إسرائيل، هو أنه يستحيل أن نطّبع مع إسرائيل فى الوقت الذى تنسف فيه كل يوم بيوت الفلسطينيين وتمارس التعذيب ضد سجنائهم وتصادر فيه أراضيهم وتبنى المستوطنات الإسرائيلية فى صميم أراضى غزة والضفة الغربية. كل ذلك بالإضافة إلى الاعتداءات الإجرامية الإسرائيلية ضد لبنان.

كيف تطبع مع الآخر الإسرائيلى الذى مابرح يعلن كل يوم - مؤيدا من الولايات المتحدة الأمريكية - لسياساته العنصرية ضد الشعب الفلسطينى خصوصاً،وضد الشعب العربى عموما؟

كيف تطبع مع الدولة الإسرائيلية التى تحتكر السلاح الذرى، وتشهره كل حين فى وجه الشعب العربى، بالإضافة إلى حرصها الشديد على أن تكون أقوى قوة

عسكرية فى المنطقة، من خلال الحلف الإسرائيلى الأمريكى الذى أتاح لها أن تفتح جميع مخازن السلاح الأمريكية لتحصل على كل ماهو متقدم تكنولوجيا فى صناعة السلاح؟

وهاهى الولايات المتحدة الأمريكية تفتح أخيرا لإسرائيل أبواب الفضاء من خلال اشتراك رائدين إسرائيليين فى رحلات الفضاء الأمريكية؟ لقد بلغ الخداع الإسرائيلى والإلحاح الأمريكى حدا لايحتمل فى مجال دفعنا للتطبيع قبل تحقيق السلام العادل، بحجة ضرورة بناء الثقة بين الأطراف المتصارعة إن بناء الثقة تكليف يقع بالكامل على عاتق إسرائيل المعتدية والتى تمارس اعتداءاتها كل يوم ضد الشعب الفلسطينى.

وفى يقيننا أن جموع الشعب المصرى الرافضة للتطبيع، تفعل ذلك وهى مؤمنة تمام الايمان بأن السلام خيار استراتيجى لمصر ولفلسطين وللبنان وسوريا. ليست فى هذه البلاد تيارات غالبة ترفض السلام وتنادى بالحرب الدائمة سوى مجموعات قليلة العدد، تمارس الغوغائية السياسية عن علم ويقين، سواء كانت هذه المجموعات قومية متشددة أو إسلامية رجعية. لقد أعلنت بعض هذه الجماعات عن خطابها الغوغائى فى مؤتمر فندق شبرد، والذى شهد - بالإضافة إلى بعض الكلمات النقدية العاقلة - صخبا غوغائيا شديدا يؤكد ان تجاهل الواقع وعدم فهم السياق الاقليمى والدولى أصبح من سمات بعض الجماعات السياسية التى تدعونا إلى المجهول باسم الوطنية المتطرفة أو القومية المتشددة. بدلا من المعارك الكلامية الضارية، فلنجتمع عند كلمة سواء: لا للتطبيع إلى أن تخضع إسرائيل لشروط السلام العادل التى أقرتها الأمم المتحدة ذاتها فى قراراتها المتعددة عن حقوق الشعب الفلسطينى غير القابلة للتصرف. ونعم لكل محاولات الحوار التى تدفع فى طريق السلام بشرط أن يكون الحوار ليس مجرد نزوة لبعض السياسيين والمثقفين المصريين، ولكن تكليفا محددا من قبل القيادة السياسية لتحقيق أهدافها المشروعة فى جعل السلام هو شعار المرحلة، لأنه بدون سلام ليست هناك تنمية. ولا يمكن أن يتحقق استقرار سياسى.

ثقافة السلام فى زمن الحرب! (*)

يظن بعض الناس وهما أننا نعيش فى عصر السلام بالرغم من تعثر عملية التسوية على المسارين الفلسطينى والسورى، نتيجة غلبة العقلية الاستعمارية الاستيطانية على اتجاهات حكام إسرائيل لافرق فى ذلك بين نتنياهو وباراك. غير أننا نريد فى الواقع التوصيف الدقيق للزمن الذى نعيشه بناء على المؤشرات الكمية والكيفية للسلوك الإسرائيلى إزاء الشعب الفلسطينى، ولو طبقنا هذا المنهج - ونعنى منهج المؤشرات - لوصلنا إلى نتيجة أساسية قد تكون صادمة ولكنها حقيقية.

نحن فى الواقع نعيش فى زمن الحرب الإسرائيلية العربية، التى تدار من خلال أفعال عدوانية صارخة من قبل إسرائيل، فى مقابل ردود أفعال فلسطينية وعربية ضعيفة. ولكى ندلل على ذلك يكفى أن نشير إلى سياسة نسف بيوت الفلسطينيين بادعاء أن بعض قاطنيها قد ارتكبوا أفعالا " إرهابية " ضد إسرائيل. وليس هناك فى العالم محكمة قانونية توافق على نسف المنازل سوى المحاكم الإسرائيلية.

وهذه المحاكم ذاتها هى التى أصدرت حكماً شهيراً ضد أحكام قانون الإجراءات الجنائية وضد كافة مواثيق حقوق الإنسان - التى تتشدق بها كثيرا الولايات المتحدة الأمريكية بأنه يجوز للشرطة الإسرائيلية،أن تعذب المتهمين الفلسطينيين لاستنطاقهم. ومازالت الدولة الإسرائيلية - التى يصفها بعض المخدوعين أنها دولة ديمقراطية - تمارس سياسة مصادرة الأراضى الفلسطينية لصالح قوات الدفاع

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٧/٢٩.

الإسرائيلي. وإذا أضفنا إلى ذلك التغيير الاستعماري الإجرامي لمدينة القدس، وإقامة المستوطنات في صميم الأراضي الفلسطينية، لأدركنا أننا في الواقع في صميم الحرب. ويكفي أن نشير إلى أنه منذ توقيع اتفاقية واي بلانتيشين أقيمت ٢٢ مستعمرة جديدة وتم توسيع عديد من المستعمرات.

ثقافة السلام المزعومة :

ومع أن الحرب مازالت مشتعلة بين إسرائيل والشعب الفلسطيني والشعب اللبناني في الجنوب، فقد ظهرت منذ سنوات دعوة اشتدت أخيرا، وأثيرت في مؤتمر كوبنهاجن الأخير في القاهرة، إلى ضرورة نشر ثقافة السلام في المنطقة، والبداية حسب الطرح الإسرائيلي - وإن كان ذلك بشكل غير مباشر - ينبغي أن تكون في مصر والبلاد العربية. والمنطق الكامن وراء هذه الدعوة أننا كدول وشعوب نتبنى العنف وسيلة رئيسية في التعامل مع إسرائيل، ومن ثم فهناك ضرورة إلى نبذ العنف والتخلي عن كل أساليب الدفاع عن النفس، وعن ممارسة الحرب الشعبية لتحرير شعوبنا، حتى نرقى للمستوى الحضاري لإسرائيل المسالمة البريئة المظلومة التي لم تمارس أي فعل عدواني إزاء العرب!

ويبدو أننا في حاجة - في مجال صياغة القانون الجنائي الدولي - أن نستحدث جريمة جديدة يمكن أن يكون عنوانها: النصب والاحتيال الفكري الذي تمارسه بعض الهيئات والدول!

ذلك أن مؤسسة اليونسكو التي تتبنى الدعوة حاليا لثقافة السلام، وتريد تطبيق برنامج اسمه " التعليم من أجل السلام " يتضمن فيما يتضمنه تغيير المقررات الدراسية للأطفال العرب لتجميل وجه إسرائيل، وتبشيع الحرب هكذا على الإطلاق، إنما تمارس لصالح إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية فعلاً من أفعال النصب والاحتيال الفكري!

ولليونسكو تاريخ قديم في هذا، فهي التي منذ الأربعينات قدمت تعريفاً مثالياً (بالمعنى السيئ فلسفياً للكلمة) بأن (الحرب فكرة تنشأ في أذهان البشر)! وما دامت الحرب مجرد فكرة، فإن فكرة مضادة لها وهي السلام يمكن أن تمحوها إلى الأبد.

وفي هذا التعريف يكمن تضليل فكري متعمد. فلا يجوز الكلام عن الحرب على سبيل التجريد، فالحرب ممارسة في المقام الأول، والحرب لها أسبابها ودواعيها

التى تختلف من حالة لحالة فى المقام الثانى، والحرب أنماط متعددة فى المقام الثالث وقد يكون ذلك فى المقام الأول. وهل يجوز للمضللين الفكريين أن تتساوى لديهم الفروق الجسيمة بين الحرب الاستعمارية والحرب العدوانية والحرب العادلة التى تهدف لتحرير الشعوب، أو تتجه للدفاع المشروع عن النفس؟

ولنأخذ كدراسة حالة الحروب الإسرائيلية العربية. لقد دخلت مصر والدول العربية حرب عام ١٩٤٨ دفاعاً عن الأراضى الفلسطينية التى اغتصبتها إسرائيل من خلال إقامة المستوطنات فى إطار عملية استعمار استيطانى واسعة وحماية للشعب الفلسطينى من التهديم والتشريد. وإذا كانت هذه الحرب قد انتهت بهزيمة الجيوش العربية نتيجة عوامل شتى أهمها الدعم العسكرى والسياسى غير المحدود الذى تلقته العصابات الصهيونية من قلب بريطانيا وغيرها من الدول الغربية الاستعمارية، بالإضافة إلى ضعف الجيوش العربية، فإن إسرائيل بعد إعلان إنشاء دولتها، لم تتوقف أبداً عن ممارسة الحرب العدوانية ضد الدول العربية، تنفيذاً لسياسة الردع التى صاغها بن جوريون وقام بتنفيذها موشى ديان ثم ظهرت المؤامرة المخططة على مصر عقب تأميم قناة السويس، لغزو مصر، من خلال تآمر إسرائيلى فرنسى إنجليزى، حيث قامت الدول الثلاث بما أطلق عليه (العدوان الثلاثى) لتحطيم قوة مصر البازغة. وإذا كان العدوان قد فشل بحكم المقاومة المصرية الباسلة رسمياً وشعبياً، فسرعان ما شنت إسرائيل الحرب على مصر عام ١٩٦٧، مستفيدة من أخطاء تكتيكية مصرية أعطت لها الذريعة لشن الحرب، وهى الحرب التى شاركت فى التخطيط لها مباشرة الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة الرئيس السابق جونسون كما كشفت الوثائق الرسمية من بعد. إذن كانت إسرائيل هى السباقة فى ممارسة الحرب الاستعمارية والحرب العدوانية فكيف تتم الدعوة المشبوهة الآن لثقافة السلام، لنزع ما يزعمون أنها دوافع العدوان لدينا وتعليمنا أن السلام هدف يستحق أن نسعى إليه؟ وهل نحن - بحكم تراثنا العريق - من أنصار السلام؟ لقد دافعت الشعوب العربية عن نفسها طوال عشرات السنين ضد الاستعمار الأوروبى المباشر بمختلف أنماطه استيطانيا كان فى فلسطين والجزائر، أو استعمارا عاديا فى مصر وغيرها من البلاد العربية. وإذا جئنا إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فهى قمة فى ممارسة الحرب العادلة، حرب تحرير أراضى الوطن من دنس قوات الاحتلال وهو حق مشروع طبقا للقانون الدولى.

التوقيت الخائب!

وما يدهشنا حقيقة هو التوقيت الخائب لنشر ثقافة السلام من قبل اليونسكو وإسرائيل. لقد قرر اليونسكو - قبل ظهور أى بادرة للنجاح فى عملية التسوية السلمية - جعل عام ٢٠٠٠ عام نشر ثقافة السلام. وبلع هذا الطعم - للأسف الشديد - مجموعة من المثقفين المصريين الذين أعلن واحد منهم هذا الخبر العظيم فى ندوة شاركت فيها، واضطررت لردعه وإثبات سذاجته، من خلال تفكيك مفهوم ثقافة السلام، والذى ليس فى الواقع - فى سياق الحرب الراهنة ضد الشعب الفلسطينى والشعب العربى - إلا محاولة لترويض الشخصية العربية. وقد سبق للولايات المتحدة الأمريكية حين انتهت الحرب العالمية الثانية، أن صممت برامج لترويض كل من الشخصية اليابانية والشخصية الألمانية بزعم أن الثقافة اليابانية والثقافة الألمانية فيهما ميول كامنة للعسكرة والعدوان.

وفرضت الولايات المتحدة الأمريكية عديدا من السياسات الثقافية والتعليمية لتغيير اتجاهات الطلبة اليابانيين والألمان والشعب اليابانى والألمانى عموما لكى تكون الاتجاهات مسالمة.

ويراد لنا اليوم أن نكون نحن الشعب العربى محلا لتجاربهم الخائبة فى هذا المجال. ولديهم وسائل متعددة يريدون تطبيقها، أو لنزع كل الفقرات الواردة فى كتب المدارس ومراجع الجامعات التى تشير إلى إسرائيل إشارات عدائية حسب تعريفهم. ومعنى هذا فى الواقع تزوير للتاريخ، ومحو للذاكرة التاريخية. وهم يريدون ثانيا الهجوم المباشر على فكرة الحرب ذاتها، بدون التفرقة - كما ذكرنا - بين الحرب العدوانية والحرب العادلة. وهم يريدون ثالثا الدعوة للسلام، هكذا بطريقة مجردة دون أى إشارة للسلام القائم على العدل. ونحن نعلن بكل وضوح قاطع أننا ضد ثقافة السلام التى تدعو لها اليونسكو وتدعو لها إسرائيل، لأن الهدف الاستراتيجى فيها لا يدع مجالا للشك وهو ترويض الشخصية القومية العربية، ونزع دوافع النضال لديها، ومحو تراثها الوطنى فى مقاومة الأعداء وفى الدفاع عن العرض والأرض. ولأن ثقافة السلام - كما هى معروضة علينا - هى خدمة مباشرة لأهداف إسرائيل الاستعمارية.

لماذا لا توجه الدعوة لثقافة السلام إلى الدولة الإسرائيلية المغتصبة التى تمارس

العدوان على الشعب الفلسطيني واللبناني كل يوم؟ ولماذا لا توجه الدعوة إلى فئات الشعب الإسرائيلي المتطرفة والمسكونة بكل نزعات العنف المدمر، والتي من خلال تيار اليمين الإسرائيلي المتضخم، تمارس العنف والإرهاب كل يوم، والذي وصل إلى حد اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق اسحق رابين؟

ولماذا لا توجه الدعوة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، والتي تتشدق كل يوم بالدفاع عن حقوق الإنسان وتنفق الملايين من الدولارات على مؤسسات المجتمع المدني في بلاد شتى من أجل هذا الغرض، وهي ذاتها التي تتغاضى عن الإرهاب الإسرائيلي الذي يوجه كل يوم ضد الشعب الفلسطيني؟ أليست الولايات المتحدة الأمريكية في اللقاء الأخير بين كلينتون وباراك التي قررت دعم إسرائيل تكنولوجيا وعسكريا إلى غير ما حدود، لتكون أقوى دولة في المنطقة، بالرغم من تاريخها الأسود في مخالفة حقوق الإنسان؟ أليس هذا نوعا من النفاق الدولي غير المسبوق؟

أما بالنسبة لنا فإننا نتنبأ أنه بقدوم عام ٢٠٠٠ واعتباره عاما دوليا لثقافة السلام، فإنه ستنشأ في بلادنا عشرون شركة مدنية، وأربعون جمعية أهلية، يرأسها ماركسيون سابقون أو قوميون حاليون، للدعوة إلى ثقافة السلام، هكذا بدون بصيرة نقدية، مادام التمويل الأجنبي سيتدفق إلى الخزائن الخاصة!

فلينتبه المثقفون المصريون إلى ممارسة النقد الصارم لهذه الدعوةالقادمة.

معرفة إسرائيل بين الذاتية والموضوعية(*)

كيف تتحقق المعرفة العلمية لمجتمع آخر غير مجتمعنا، هل بالقراءة الفاحصة لما نشر عنه من بحوث ودراسات، أم من خلال الاتصال المباشر، بمعنى ضرورة الاحتكاك بالواقع، من خلال إجراء الدراسات الميدانية بكل أنماطها المتعددة، والتى تكفل اتصالا حيا مع الناس؟

حول هذا السؤال المهم كتب الدكتور عبد العليم محمد فى صفحة "قضايا استراتيجية" بالأهرام فى ٢٦ يوليو ١٩٩٩ مقالة مهمة عن "مشكلات معرفة إسرائيل" أثار فيها مجموعة من القضايا المعرفية والمنهجية التى تقع فى صميم الجدل السوسيولوجى بين العلماء الاجتماعيين، وتتجاوز بكثير حالة إسرائيل، التى تمثل فى الواقع حالة خاصة منفردة.

وقد بدأ الدكتور عبد العليم بوضع المشكلة مقررا " فى خضم الجدل والنقاش الذى جرى ويجرى بين المثقفين حول إسرائيل فى الآونة الأخيرة، طور فريق منهم حجة مفادها أن معارفنا عن إسرائيل تأتى من خارجها، وأننا بحاجة إلى معرفة إسرائيل من داخلها، وهذه الحجة تطعن فى موضوعية معارفنا عن إسرائيل، وتحيزنا المسبق ضدها، ومن ثم فهذه المعرفة تفتقر إلى اساس علمى موضوعى، فى حين أن هذه الحجة تفترض أن معرفة إسرائيل من الداخل - أى داخلها - هى معرفة موضوعية منصفة تتجنب الانحياز المسبق، وتقوم على الملاحظة والمشاهدة

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٨/٥.

العيانية المباشرة ".

والواقع أن وضع المشكلة بهذه الصورة يدفعنا إلى استعادة الخبرة المتميزة لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بهذا الصدد. عقب حرب يونيو ١٩٦٧ أنشئ مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالأهرام عام ١٩٦٨ بغرض الدراسة العلمية الموضوعية للمشكلة الفلسطينية والصهيونية. وسرعان ما تحول من بعد عام ١٩٧٠، إلى مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية لكى يضع الصراع الصهيونى العربى فى إطاره الأوسع. كانت مشكلة الجيل الأول من علماء الاجتماع والسياسة الذين عملوا فى إطار المركز وفى وحداته المختلفة، وهى كيف يوفرون المعرفة العلمية عن إسرائيل، وكيف يوفقون بين موضوعية المعرفة والتزامهم القومى فى نفس الوقت.

وأذكر أننى حين اقترحت على المركز عام ١٩٦٨ إنشاء وحدة بحوث لدراسة المجتمع الإسرائيلى، أمضيت فى مكتبة الجامعة الأمريكية ثلاثة شهور كاملة بغرض رسم خريطة شاملة لعلم الاجتماع الإسرائيلى وعلى رأسه أيزنشدات صاحب مؤلف " المجتمع الإسرائيلى " وانتهت المهمة العلمية بتقديم تقرير تفصيلى دقيق عن السمات الرئيسية للمجتمع الإسرائيلى، والمشكلات الاجتماعية التى يواجهها، مع تحديد دقيق لمصادر المعرفة عن هذا المجتمع.

كان من الطبيعى - فى غيبة أى اتصال مباشر مع المجتمع الإسرائيلى - أن تكون الدراسة له عن بعد In absentia. ولم تكن هذه حالة فريدة فى ممارسات العلم الاجتماعى الحديث. ففى عديد من الحالات لا يستطيع الباحث المعنى بدراسة مجتمع ما زيارة هذا المجتمع، وإجراء مقابلات مباشرة مع أفراده. غير أن ذلك لا يعنى امتناع الدراسة العلمية. فهناك وسائل منهجية متعددة تتيح للباحثين الاقتراب غير المباشر من المجتمع المدروس، والحصول على فهم موضوعى له، يمكن على أساسه أن توضع نتائجه أمام صانع القرار ليحدد السياسات المناسبة للتعامل معه.

ويكفى ان نضرب مثلا كلاسيكيا فى العلم الاجتماعى بهذا الصدد. أثناء الحرب العالمية الثانية التى كان أطرافها دول المحور ممثلة فى ألمانيا وإيطاليا واليابان، ودول الحلفاء ممثلة فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، اشتدت الحاجة فى الولايات المتحدة الأمريكية لمعرفة بنية المجتمع اليابانى وأنساقه الرئيسية

والاتجاهات الغالبة فيه، تمهيدا لتعامل القيادة السياسية الأمريكية معه بعد نهاية الحرب. ولذلك كلف مكتب المعلومات الحربية الأمريكية الباحثة الانثروبولوجية "روث بندكت" بكتابة كتاب عن اليابان تستعين فى إعداده بكل الوسائل المنهجية المتاحة، وذلك فى يونيو ١٩٤٤. ووضعت أمامها عدة تساؤلات: كيف يمكن ضمان استسلام اليابان بدون غزو شامل لها؟ هل يضرب قصر الامبراطور بالقنابل أولا؟ ما الذى يمكن قوله فى برامج الدعاية الموجهة للقوات المسلحة اليابانية لدفعها إلى الاستسلام؟ وماذا بعد الحرب؟ هل يطبق الأمريكيون نظاما للطوارئ؟ وماذا سيكون رد الفعل اليابانى إزاء الهزيمة المتوقعة؟

كل هذه الأسئلة وضعت أمام الباحثة لتدير بحثها حول بنية وتشكيل المجتمع اليابانى بأنساقه المختلفة. مهمتها كانت - كما تقرر فى كتابها المهم "زهرة الكريز أنتم والسيف: نماذج من الثقافة اليابانية" (الناشر شركة شارلز تتل،١٩٤٦) - بالغة الصعوبة. وقررت أن تبدأ بدراسة سلوك اليابانيين فى الحرب بكل صوره وأنماطه، ونظرت إليه ليس كسلوك عسكرى، ولكن كممارسة ثقافية تعكس أساليب التنشئة الاجتماعية والسياسية، وتؤثر فى الدوافع والروح المعنوية. ولأن الحرب كانت قائمة فعلا، فقد حرمت الباحثة من إجراء أى زيارة ميدانية لليابان، للقيام ببحث أنثروبولوجى تقليدى يقوم على معايشة الناس وملاحظة سلوكهم فى حياتهم اليومية. غير أنها استطاعت من خلال استخدام أدوات شتى أن تصل إلى صياغة شبه مكتملة للشخصية القومية اليابانية بسماتها الفارقة، وللمجتمع اليابانى ببنيته الفريدة. لقد قرأت التاريخ اليابانى، وعينات ممثلة من الأدب اليابانى شعرا ونثرا، وطالعت الفولكور اليابانى، وأجرت مقابلات مع من سبق لهم أن عاشوا فى اليابان، أمريكيين أو يابانيين مقيمين فى الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى تحليل كل ما كتب عن اليابان، سواء كان ذلك بحوثا علمية، أو مشاهدات الرحالة، واستطاعت بعد ذلك الجهد كله أن تنجز دراسة علمية لليابان "عن بعد" In absentia بمعنى بدون زيارة ميدانية لليابان، وأن تقدم نتائجها للجيش الأمريكى ولصانع القرار لكى يصوغ قراراته فى التعامل مع اليابان على ضوئها.

نستطيع أن نستخلص من هذا الدرس النموذجى أن "المعرفة من الخارج" لمجتمع ما- إذا ما اتبع فى تحصيلها وسائل منهجية شتى - يمكن ألا تقل فى موضوعيتها "عن الدراسة من الداخل" بل ويمكن أن تتخذ فى ضوئها قرارات عسكرية وسياسية

بالغة الأهمية.

بل إنه يمكن القول إن مجرد القيام "بدراسة من الداخل" لا يعنى ذلك تحقيق الموضوعية، إذ يمكن لباحث مصرى أن يزور إسرائيل ويجرى بحثاً ميدانياً، ولكنه قد يخلص إلى نتائج غير موضوعية، سواء لتحيزاته الفكرية المسبقة، أو لعجزه عن القراءة الدقيقة للواقع. ذلك أن الواقع ليس معطى خاماً، وإنما يقرأ عادة من خلال مناظير شتى، أو لضعف إطاره النظرى وعجزه عن التفسير والتأويل. ومن ثم نخلص إلى أنه لا يجوز المفاضلة بين "الدراسة من الخارج" و"الدراسة من الداخل"، ولا الادعاء بأن الدراسة من الداخل هى – بحسب التعريف – أكثر موضوعية من القراءة من الخارج.

ومما يؤكد ذلك أننا فى وحدة البحوث الاجتماعية بمركز الدراسات السياسية الاستراتيجية، استطعنا أن نحقق معرفة علمية دقيقة بالمجتمع الإسرائيلى من خلال الاطلاع على الوثائق، وتحليل التراث العلمى المكتوب بالعبرية والانجليزية والفرنسية. ولكننا أضفنا إلى ذلك الاستخدام الدقيق لأسلوب " التحليل الثانوى " – Secondary analysis. ونعنى إعادة تجميع وتحليل البيانات الاحصائية الواردة فى البحوث الاسرائيلية للوصول إلى نتائج علمية قد تكون مغايرة لنتائج البحث الإسرائيلى الاصلى. وقد قمت شخصيا ببحث عن الصهيونية والعنصرية استخدمت فيه هذا الأسلوب، حيث أعدت تحليل نتائج الباحث الاسرائيلى "سيمون هيرمان" فى كتابه "الهوية الاسرائيلية" ووصلت إلى نتائج تؤكد العنصرية السائدة فى المجتمع الإسرائيلى مستندا إلى بيانات هيرمان نفسه! (راجع البحث فى كتاب الصهيونية والعنصرية، نشره معهد البحوث والدراسات العربية).

كما أننا لا نبالغ لو قلنا إن الإنتاج العلمى لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام منذ عام ١٩٦٨ حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، والذى مسح فيه مسحا شاملا كل الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الإسرائيلى، قد أسهم إسهاما بالغا فى ترشيد القرار ازاء إسرائيل، بالإضافة إلى نشر الوعى العلمى بين الجمهور العام من خلال الإصدارات الشعبية حول جوانب القوة والضعف فى المجتمع الإسرائيلى. وقد أصدر المركز فى هذه الحقبة عدة كتب سنوية عن " المجتمع الإسرائيلى " تقدم مسحا عاما للسمات الرئيسية، بالإضافة إلى

إصدار عدة كتب عن " اتجاهات الصحافة الإسرائيلية ".

وهكذا يمكن القول إن القيادة السياسية حين اتخذت قرار الحرب فى أكتوبر ١٩٧٣، قد سبق ذلك تنوير علمى شامل، ومعرفة موضوعية بالعدو الإسرائيلى، لا تقوم على التهوين من قدراته، ولا تبالغ فى وصف جوانب قوته. وهكذا انصب الجهد العلمى لعشرات من الباحثين العلميين الرواد فى العسكرية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، فى الجهد القومى العام لمواجهة إسرائيل عسكريا بعد أن انتزعنا زمام المبادرة العلمية.

أما عن التوظيف السياسى لنتائج البحث العلمى وسواء تم من الخارج أو من الداخل فهذه مسألة معقدة، ولها جوانب متعددة. ذلك أنها تعتمد على قناعات إيديولوجية خارجة عن نطاق البحث العلمى. فهناك - على سبيل المثال - من يقرأون الصراع العربى الإسرائيلى على أنه صراع وجود وليس صراع حدود، وهى القراءة التقليدية التى احتلت العقل السياسى العربى ردحا طويلا من الزمان. وهناك غالبية ممن يتبنون قراءة مضادة، ويرون أنه صراع حدود وليس صراع وجود، وضعا فى الاعتبار المتغيرات الدولية والإقليمية والمحلية. ولعل هذه الرؤية هى التى انعكست على أرض الواقع فى توقيع المعاهدة المصرية الإسرائيلية والمعاهدة الأردنية الإسرائيلية، بل وهى التى تهيمن على ما يطلق عليه " عملية التسوية " فى كل المسارات.

وقد أحسن الدكتور عبد العليم حين خلص إلى أنه "يبدو أن معرفتنا بإسرائيل سواء كانت من الخارج أو من الداخل تتحدد قيمتها بالهدف الذى تنخرط فيه هذه المعرفة". بعبارة أخرى ينبغى التركيز على الهدف الاستراتيجى وهو تحقيق السلام العادل، الذى يعطى للشعب الفلسطينى حقه فى أرضه وفى دولته وفى عودة اللاجئين، فى إطار يتيح التعايش الحضارى بين شعوب المنطقة، بلا تعصب ولا عنصرية ولا عدوان.

إدانة ثقافة الحرب الإسرائيلية(*)

ترى هل يكفى نقدنا للحركة الداعية لنشر ثقافة السلام، فى الوقت الذى تمارس فيه إسرائيل ثقافة الحرب بكل تجلياتها وصورها وأنماطها؟ وهل نقنع بكشف النفاق الغربى الذى يتمثل فى دعوة اليونسكو وإلحاح إسرائيل ودعم الولايات المتحدة الأمريكية لثقافة السلام، فى الوقت الذى تتجاهل فيه كل هذه الأطراف الإدانة العلنية لثقافة الحرب الإسرائيلية!

لقد تبين لى - بعد تأمل طويل - أن مسعانا النقدى يمكن تصنيفه فى الواقع فى مجال رد الفعل! ولكن ماذا عن الفعل العربى الذى يتمثل فى انتزاع زمام المبادرة من إسرائيل ومن يدعمونها دوليا، وكشف مكونات ثقافة الحرب الإسرائيلية أمام الرأى العام العالمى، من خلال توثيق دقيق للأفعال الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى، والتى تتمثل أساسا فى نسف البيوت الفلسطينية،واستخدام التعذيب لاستنطاق المتهمين الفلسطينيين، والمصادرة غير المشروعة للأراضى الفلسطينية، وإقامة المستوطنات عنوة واغتصابا صميم الأراضى الفلسطينية؟

من رد الفعل إلى الفعل:

ولعل ما أثار فى ذهنى هذه الخواطر، الخطاب الذى وصلنى من بهى الدين حسن مدير مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، الذى يعبر فيه عن اهتمامه بمقالاتى

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٩/٨/١٩.

حول التطبيع وثقافة السلام، ويشير فيه – وهذا هو المهم - الى موقف حركة حقوق الإنسان فى العالم العربى من ثقافة السلام الذى عبرت عنه خلال مؤتمرها الدولى الأول الذى انعقد فى الدار البيضاء فى إبريل الماضى، بمبادرة من مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان وهو المؤتمر الذى شارك فيه نحو مائة خبير ومدافع عن حقوق الإنسان من ٤٠ منظمة ولجنة من ١٥ دولة عربية. وقد صدر عن المؤتمر إعلان أطلق عليه "إعلان الدار البيضاء" للحركة العربية لحقوق الإنسان وقد جاء فيه:

"إذ يعلن المؤتمر تأييده لمشروع تخصيص عقد الأمم المتحدة لثقافة السلام، فإنه يؤكد أن السلام المقبول هو الذى ينهض على احترام الحقوق الأساسية، ومعانى العدالة والكرامة الأصيلة للشعوب، كما ينبغى أن يقوم على أحكام القانون الدولى وقرارات الأمم المتحدة، والاحترام الواجب لحقوق الإنسان وعلى رأسها حق تقرير المصير. أن حقوق الشعب الفلسطينى، تمثل المعيار السليم لقياس اتساق المواقف الدولية تجاه السلام العادل وحقوق الإنسان".

والواقع أننا إذا كنا نحيى واضعى البيان على موقفهم الواضح من تحديد معنى السلام القائم على العدل، إلا أننا يمكن أن ندرج البيان فى حدود رد الفعل وليس الفعل المبادر.

ونعنى على وجه الدقة أنه لا يكفى أن تصدر البيانات أو تنشر الدراسات النقدية لمفهوم ثقافة السلام، كما تروج له إسرائيل، وإنما لابد ان نقوم بفعل مدروس للإدانة القاطعة لثقافة الحرب الإسرائيلية. وعلى هذا فإننا نأمل أن تجتمع كلمة جمعيات حقوق الإنسان فى مصر، وهى كثيرة ومتعددة، لعقد مؤتمر يصدر إعلانا موجها للرأى العام العالمى، وللهيئات الدولية وفى مقدمتها اليونسكو، للإدانة الموثقة لثقافة الحرب الإسرائيلية، ويتضمن حصرا دقيقا لكل الجرائم الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى، وخرق حقوق الإنسان فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وليكن عنوانه "إعلان القاهرة " ضد ثقافة الحرب الإسرائيلية، والواقع أن جمعيات حقوق الإنسان المصرية لو طبقت هذا الاقتراح، فإنها تكون قد انتقلت من مجال رد الفعل إلى الفعل. وأبعد من هذا تكون قد حررت نفسها من الاتهامات التى توجه إليها، من أن التمويل الأجنبى لأنشطها ويقيد حركتها، ويعوقها من اتخاذ المواقف الراديكالية

المطلوبة ضد الهيمنة الغربية عموماً، وضد نفاق المؤسسات الأمريكية والغربية خصوصاً، والتى تمول أنشطة فى مصر عن الديموقراطية وحقوق الإنسان، ولكنها تتجاهل تماما الخرق الإسرائيلى المنظم لحقوق الإنسان الفلسطينى.

وقد حاول بعض المدافعين دفاعاً مجيداً عن عدم تأثير التمويل الأجنبى على جدول أعمال جمعيات حقوق الإنسان، فى سبيل نفى هذه التهمة أن يتهم بعض هذه الجمعيات بسوء السلوك خصوصا فى مجال التربح من التمويل الأجنبى، وافتقارها إلى الشفافية وعدم الكشف عن ميزانياتها بالتفصيل. وإذا كانت هذه الاتهامات حقيقية تماما بالنسبة لبعض الجمعيات، إلا أن الزعم من أن جمعيات حقوق الإنسان لا تتأثر فى أداء عملها باتجاهات ووضع الممول الأجنبى زعم نراه باطلا فى الواقع.

والدليل على ذلك أن إحدى الجمعيات المعنية بنشر الديموقراطية فى مصر، بتمويل مباشر من الكونجرس الأمريكى، سبق لها أن صدرت كتيبا عن تطبيق الدستور المصرى، مزدحما برسوم الكاركاتير التى تسخر من عدم تطبيق مواد الدستور. والكتب ينقسم إلى قسمين، الأول باللغة العربية والثانى باللغة الإنجليزية. وقد ذكر فى صدر الكتيب أن السفارة البريطانية بالقاهرة أسهمت فى التمويل المالى لإصداره! ونتساءل بكل براءة: ما هو مبرر السفارة البريطانية بالقاهرة، لتمويل كتيب يسخر من تطبيق مواد الدستور المصرى؟ وهل تتجاسر نفس هذه الجمعية بإصدار كتيب مماثل تسخر فيه من السياسة البريطانية المستقرة، والتى تتمثل فى فرض الحماية على الإرهابيين من أعضاء الجماعات الإسلامية المتطرفة بدعوى احترام القانون؟

ومن ناحية أخرى هل تجرؤ فيه نفس الجمعية التى أنشئت لتنمية الديموقراطية وفق برنامج وتمويل الكونجرس الأمريكى، أن تصدر بيانا تشجب فيه مواقف الكونجرس الأمريكى المنحازة إلى إسرائيل، والتى أدت به إلى تجاهل الخرق الإسرائيلى المنظم لحقوق الإنسان الفلسطينى؟

هذه أسئلة مهمة تنتظر الرد من مجلس أمناء هذه الجمعية ومديرها ومستشاريها، بدلا من التشدق بأن التمويل الأجنبى لا يؤثر على جدول أعمال جمعيات حقوق الإنسان فى مصر.

الجرائم الإسرائيلية:

إن الجرائم الاسرائيلية ومخالفات اسرائيل لحقوق الإنسان الفلسطيني تتمثل في أربع فئات رئيسية: نسف بيوت الفلسطينيين، وتعذيب المتهمين الفلسطينيين، ومصادرة الأراضي الفلسطينية وإقامة المستوطنات غير الشرعية في الأراضي الفلسطينية، أما فيما يتعلق بنسف بيوت الفلسطينيين فقد أقرت المحاكم الإسرائيلية، القرارات الإدارية التي تخول للسلطة الإسرائيلية نسف البيوت الفلسطينية التي يقيم فيها بعض من تشتبه إسرائيل أنهم قاموا بعمليات "إرهابية " ضد إسرائيل. وقد شاهدنا جميعا كقراء ومشاهدين للتليفزيون صورة البلدوزورات الإسرائيلية وهي تهدم المنازل الفلسطينية، في حين تقف الأسر الفلسطينية المنكوبة تنظر بحسرة إلى المنازل المنسوفة.

أما تعذيب المتهمين الفلسطينيين لاستنطاقهم، فقد أقرته المحاكم الإسرائيلية، وهي المحاكم الوحيدة في العالم التي لا تعاقب على تعذيب المتهمين، بل إنها تقره كإحدى وسائل التحقيق، ونتحدى ان يكون هذا المسلك قد سلكته أي محكمة في أي بلد متحضر في العالم.

ونأتي بعد ذلك لمصادرة الأراضي الفلسطينية بغير أي سند شرعي أو قانوني، بزعم حاجة جيش الدفاع الإسرائيلي لهذه الأراضي، أو لأغراض حكومية وقد صودرت منذ عام ١٩٦٧ حتى الآن الأف الهكتارات الفلسطينية فيعدوان واضح على أصحاب الحقوق الفلسطينية.

أما إقامة المستوطنات الإسرائيلية في صميم الأراضي الفلسطينية فهي عملية مستمرة حتى الآن، وقد أنجز فيها حزب العمل إنجازات استعمارية مشهودة، وكذلك حزب الليكود. بل إن حركة السلام الإسرائيلية قد صرح متحدث باسمها بأن باراك اعتمد ميزانيات لتوسيع المستوطنات الحالية وإقامة مستوطنات جديدة، بما سيفوق ما أنجزه نيتانياهو في السنوات الثلاث الماضية.

ومن هذا يتضح أن أمام جمعيات حقوق الإنسان المصرية والعربية واجبات وطنية وقومية متعددة، فيما يتعلق بالإدانة الواضحة لثقافة الحرب الإسرائيلية الموجهة ضد الشعب الفلسطيني وضد الشعب العربي عموما.

والمطلوب من هذه الجمعيات - أداء لدورها المعلن في الدفاع عن حقوق الإنسان

العربى - أن تصدر بيانا توثيقيا دقيقا يتضمن عدد البيوت الفلسطينية التى تم نسفها، ومساحة الأراضى الفلسطينية التى صادرتها إسرائيل، وعدد المتهمين الفلسطينيين الذين عذبتهم إسرائيل أثناء التحقيق معهم، وعدد المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية التى أقامتها إسرائيل فى الأراضى الفلسطينية. والتوثيق الدقيق هو خطوة أولى نحو صياغة " إعلان القاهرة " الذى نقترحه والذى يتضمن إدانة ثقافة الحرب الإسرائيلية، ونشره على مستوى العالم.

ولعل الخطوة المنطقية التالية لجمعيات حقوق الإنسان المصرية، هو الامتناع النهائى عن تلقى التمويل الأجنبى من الهيئات الثابت فى حقها، انحيازها السافر لإسرائيل، ودعمها غير المباشر لثقافة الحرب الإسرائيلية، من خلال تجاهلها المتعمد لإدانة الجرائم الإسرائيلية، وعلى رأس هذه الهيئات الكونجرس الأمريكى، الذى يتشدق بالدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان وحماية الأقليات فى الوقت الذى يصمت فيه صمتاً مريباً عن جرائم إسرائيل.

ولا نريد أن نلقى بكل العبء على جمعيات حقوق الإنسان فى مصر، فما ندعو إليه من انتزاع المبادرة من إسرائيل وحلفائها فى الدعوة إلى ثقافة السلام، هو واجب على عاتق كل مؤسسات المجتمع المدنى المصرية، وخصوصاً الأحزاب السياسية والنقابات المهنية، والتى رفعت شعار "لا للتطبيع مع إسرائيل".

لقد آن أوان الانتقال من رد الفعل إلى الفعل القومى الرشيد.

ثقافة للسلام أو محو للذاكرة التاريخية؟(*)

بدأت تظهر بيننا كتابات رديئة تدعو بعيون مغمضة لما يطلق عليه "ثقافة السلام" بدون إدراك واضح للفرق بين الشعارات الفارغة من المضمون، والتى لا علاقة لها بالواقع، وبين المبادئ التى يمكن أن تتحقق بغير ازدواجية للمعايير، وبعيدا عن النفاق الدولى الذى تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الغربية.

فهذه الدول التى تبدو متشددة تماما فى حماية حقوق الإنسان، هى بذاتها التى لا تجرؤ على نقد سياسة إسرائيل الإجرامية فى الأراضى الفلسطينية، حيث تنسف البيوت، وتخترق الحرمات، وتفرض حالة الطوارئ، وتمنع الفلسطينيين من العمل وحرية التنقل فى بلادهم، التى اغتصبتها منهم إسرائيل ظلما وعدوانا، وبالتآمر مع إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية.

ومن الأمثلة البارزة لهذه الكتابات التى نشير إليها، مقالة طارق حجى التى نشرها فى صفحة مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام يوم الجمعة الماضى ٩٩/١١/١٩ بعنوان "بين ثقافة السلام وثقافة الحرب".

وهو يبدأ المقال بداية ينطبق عليها القول الذائع "أول القصيدة كفرا" فهو يقرر بالنص "منذ أكثر من عشرين سنة اختارت مصر أن "تهجر" طريق الحرب واختارت طريق السلام".

(*) جريدة الأهرام، ١٩٩٩/١١/٢٥.

والواقع أن هذه العبارة تتبنى بوضوح شديد المزاعم الإسرائيلية التى تقول أن مصر فى كل حرب مع إسرائيل كانت هى البادئة بالعدوان، لأن سياستها تقوم على شن حرب دائمة ضد الدولة الصهيونية! وللقارئ أن يتأمل عبارة "اختارت مصر أن تهجر طريق الحرب"، أى أن مصر تابت إلى الله سبحانه وتعالى بعد طول إدمان للحرب ضد إسرائيل، وقررت أن "تهجر"، وللقارئ أن يتأمل هذه الكلمة – طريق الحرب!

وهو ينتقل فى نقطة ثانية لنقد أجهزة الإعلام والثقافة الرسمية لمصر والمفروض - كما يقرر - "أنها تنتمى لثقافة السلام لا لثقافة الحرب" - وهو يكتب هذه العبارة على سبيل الدقة المزعومة، لأنها سمحت أخيراً "بارتفاع نبرات فى وسائل إعلامنا الرسمية تتحدث عن العداء لأمريكا وعن الصراع العربى الإسرائيلى بلغة ولهجة ونبرة ثقافة "الحرب".

ونريد أن نقف وقفة هادئة مع الكاتب المتحمس لأمريكا ولإسرائيل هذا الحماس المفرط أو لا ليس فى الإعلام الرسمى حملات من أى نوع تدعو للعداء لأمريكا. وثانيا كيف يمكن للإعلام الرسمى المصرى أن يتناول الصراع العربى الإسرائيلى فى هذه الحقبة بحياد بارد وصمت مريب، فى الوقت الذى تمارس فيه الدولة الإسرائيلية العدوان الهمجى المنظم ضد الشعب الفلسطينى واللبنانى؟ لو أدان الإعلام الرسمى المصرى - وإن كان هذا مما يحمد له - العدوان الإسرائيلى أيعتبر ذلك استعادة لمفردات ثقافة الحرب؟

وما هى مكونات ثقافة الحرب فى رأى الكاتب؟ هل هى التمسك بحق الدفاع الشرعى عن الأراضى العربية المحتلة، فى ضوء التعنت الإسرائيلى، ورفضها القاطع الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة؟ وهل هى حق الشعب المتمثل فى النضال ضد الدولة المحتلة؟ إن كان هذا تعريف الكاتب لثقافة الحرب فأهلا بها ولتذهب ثقافة السلام إلى الجحيم! وذلك لأن البديل هو أن يساق أفراد الشعب الفلسطينى كالأنعام إلى المذبحة التى تعدها لهم إسرائيل بعد أن تطوقهم بالمستوطنات وتحاصرهم بالدبابات، وتتحكم فى حياتهم تحكما مطلقا، كما فعلت اعتى النظم النازية والفاشية، وبواسطة من بواسطة إسرائيل التى يتغنى من؟ بواسطة إسرائيل التى يتغنى الغرب ومعهم بعض السذج من الكتاب العرب

بديمقراطيتها. ويقولون له "إسرائيل ديمقراطية فى الداخل، وقد تكون نازية فى الخارج فى تعاملها مع الشعب الفلسطينى، ولكن هذا شئ وذلك شئ آخر، هل هناك تسطح فكرى أعمق من هذا؟

وطارق حجى ينتقد التليفزيون المصرى بطريقة غير مباشرة، لأنه لم يستطع أن يتجاسر ويوجه له الاتهام علنا، لأنه يعرض علينا الأفلام الوطنية التى تصور براعة المخابرات المصرية فى التصدى للموساد، وكذلك الأفلام التى تبرز نضال الشعب المصرى وفى طليعته القوات المسلحة المصرية ضد الدولة الإسرائيلية الباغية.

إن ما تفعله وسائل الإعلام المصرية فى هذا الصدد، مع موافقتنا الكاملة على سياستها الإعلامية، نراه أقل مما ينبغى فى مجال تدعيم وإحياء الذاكرة التاريخية المصرية. إن ثقافة السلام التى يتحمس لها الكاتب والتى تدعو لها اليونسكو بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لأغراض لا تخفى علينا، تتضمن مبادئ تتجه، وإن كان بطريق غير مباشر - لمحو الذاكرة التاريخية الوطنية والقومية وذلك من خلال الدعوة لعدم التركيز على الحرب، حتى لو كانت عادلة، وخصوصا بين الأطفال والشباب، مع أنه - من وجهة النظر الوطنية والقومية - لا ينبغى أبدا أن نجعل الأطفال والشباب ينسون تضحيات أجدادهم ضد الصهيونية، وآبائهم ضد إسرائيل التى اغتصبت أراضيهم وقتلت مئات الألوف من مواطنيهم.

وليس ذلك لجعل العداء أبديا مع إسرائيل، على العكس، أنه يغرض ألا نستنيم، وننسى، وحتى لا نفاجأ بعدوان صريح من إسرائيل علينا أو على أى بلد عربى، وخصوصا أنها مسلحة تسليحا فائقا، وتمتلك القنبلة الذرية.

طارق حجى وأمثاله، يريدون لنا أن نتحول إلى دراويش فى حلقة ذكر اسمها "ثقافة السلام" ندور فيها وندور مخدرين ونحن نهتف بالسلام حتى تفاجئنا الصواريخ الإسرائيلية ذات يوم!

ولا يدرك الكاتب أن الدولة المصرية وإن كانت قد انتهجت السلام كخيار استراتيجى، فذلك مشروط بألا تمارس إسرائيل علينا سياسة الإرهاب أو العدوان.

ولذلك فإن القوات المسلحة المصرية تبذل جهودا فائقة لتحديث سلاحها ومواصلة تدريباتها بناء على توجيهات القيادة المصرية التى تدرك تماما - عكس الغفلة التى

يتمتع بها الكاتب وأمثاله - أن السلام الحقيقى لا يمكن أن يقوم إلا علـى أسـاس قـوة مسلحة فائقة، من شانها أن تردع الدولة مصدر التهديد، والتى يمكن أن تتحول إلـى عدو صريح فى غمضة عين.

انتقادات سطحية:

ولكى يدلل الكاتب على وجهة نظره فهو يوجه مجموعة من الانتقادات السطحية، ويصوغ عددا من التقييمات المتحيزة لتجربة مصر فى الخمسينات والستينيات. وهو يقصد بالضرورة ما اصطلح على تسميته مصر الناصرية.

ولا يدرك الكاتب أنه وجه إهانة بالغة للشعب المصرى الذى عاش هذه السنوات حين اتهمه بالشطط والجموح والجنوح! ويقول وأنا اقتبس عباراته بـالنص "ويجب علينا فى هذا المجال أن نؤمن بأن الشعوب مثل البشر قد يكـون بعض أبنائها (فـى مرحلة معينة) مثل الشباب فى سـن مـا بين العاشرة والعشرين، يميلـون بطبيعتهم وطبيعة مرحلة العمـر، وقدر الفكر والثقافة والتجربة لامتطـاء واستعمال كلمـات كبيرة لا هى من جهة أخرى قادرة على تحقيق أى خير مرتجى، بل أنها قادرة على جلب الخراب والدمار وإهدار الطاقات على جميع المستويات.

وإذا كان طارق حجى يغمر بشكل غير مباشر الحقبة الناصرية بأنه ارتفعت فيها شـعارات القوميـة العربيـة، فذلك دور تـاريخى للظـروف الموضعيـة فـى الوطـن العربى، الذى أراد أن يؤكد هويتـه القوميـة بعد جـلاء القوات الأجنبيـة عن البـلاد العربيـة التـى كـانت محتلـة، وبعد حصـول الجزائـر علـى اسـتقلالها مـن فرنسـا الاستعمارية بحد السـلاح خـلال حـرب تحرير بطولية ستظل حية فـى سـجلات التـاريخ، وإذا كـان مشروع الوحدة المصريـة - السـورية قد فشـل نتيجـة التـآمر والأخطاء فإنه سيظل علامة بارزة على طريق الوحدة نستلهم منه العبر والدروس.

أما مزاعم الكاتب الرخيصة التى تذهب إلى أن الحقبة الناصرية لـم تجلـب سـوى الخراب والدمار وإهدار الطاقات، فهى مجرد مسايرة لدعاوى خصـوم ثـورة يوليـو ١٩٥٢، وهى التى تجاهلت إقامة أكبر قاعدة صناعيـة لمصـر فـى العصـر الحديـث منذ تجربة محمد على.

مفردات الخطاب الخانع:

يصوغ طارق حجى خطابا إنسانيا يفلسف فيه بكل ما يملك من حجج أهمية الخنوع لإسرائيل فى ضوء الشعار البراق لثقافة السلام. أليس من المثير - لو استخدمنا أسلوب تحليل المضمون - أن إسرائيل لم تذكر فى مقاله مرة واحدة؟

ترى ما المبرر لكاتب يتحمس لحملة ثقافة السلام المغرضة ألا يذكر اسم الدولة التى سنمارس السلام معها؟

وكيف وهو الذى زعم أن مصر "هجرت" ثقافة الحرب، وكأنها كانت هى البادئة بالعدوان عام ١٩٥٦، وعام ١٩٦٧، لا يتعرض للعدوان الإسرائيلى ولا للسياسات العنصرية الصهيونية التى مارستها إسرائيل ضد الشعب العربى منذ تاريخ تأسيسها عام ١٩٤٨ حتى الآن؟

إن إسرائيل هى المسكوت عنه الأول فى مقال الكاتب، الذى يحرض الدولة على إعلامها القومى، لأنه يدعم الذاكرة التاريخية، ويجعل الشعب لا ينسى عدوان إسرائيل عليه من ناحية، ونضال الشعب الذى توج بانتصار حرب أكتوبر ١٩٧٣ من ناحية أخرى.

وأريد أن أطمئن الكاتب وأمثاله من الكتاب الذين يمارسون الدعاية لإسرائيل "الديمقراطية" وللتطبيع معها، والذين يريدون من الشعب المصرى أن يسلم كل أوراق الضغط التى يملكها شعبا وقيادة لإسرائيل، دون أن تقبل بالسلام العادل، والذى يتمثل فى إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على كامل الأرض الفلسطينية المحتلة، أنهم يحرثون فى البحر! فالشعب المصرى بوعيه التاريخى، وعلى رأسه طلائعه من المثقفين المناضلين، لن يقبل إطلاقا بالتطبيع، ولا بدعوات ثقافة السلام المشبوهة، قبل أن يرى على الأرض التحقق الفعلى للسلام العادل.



الفصل الخامس

الصراع الحضارى بين مصر وإسرائيل

مقـــــــدمة:

يمكن القول إن توقيع المعاهدة المصرية - الإسرائيلية بكل ما تتضمنه من إنهاء حالة الحرب وتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل، وما تلاها من اتفاقية سلام بين إسرائيل والأردن، وقبلها اتفاقية أوسلو بين الإسرائيليين والفلسطينيين، تعد من أبرز الأحداث في مسار الصراع العربي - الإسرائيلي الذى امتد عقوداً طويلة من الزمان، ومرد ذلك إلى النظرية العربية التى سادت منذ عام ١٩٤٨ (تاريخ إنشاء الدولة الإسرائيلية) والتى مبناها أن الصراع مع الدولة الإسرائيلية هو صراع ممتد، وأنه لن يحسمه إلا معركة عسكرية فاصلة. وبناءً على هذه النظرية تبلورت صورة نمطية عن الإسرائيليين كشعب، وعن إسرائيل كدولة وكمجتمع. والإسرائيليون - وفق هذه الصورة النمطية - أشتات من البشر جاءوا من مختلف بلاد العالم، لا يجمع بينهم سوى العقيدة الدينية (اليهودية) ولا يدفعهم ويحركهم نحو استعمار فلسطين العربية سوى عقيدة سياسية متطرفة وعنصرية هى الصهيونية، وهم بذلك لا يكونون شعباً واحداً منسجماً. فالاختلافات الاثنية (السلالية) بين اليهود الشرقيين (السفارديم) واليهود الغربيين (الإشكنازيم) تمزقهم، بالإضافة إلى الاختلافات الاجتماعية والحضارية بين فئاتهم المختلفة. وإسرائيل كدولة - وفق هذا التصور النمطى - دولة عنصرية تعتمد اعتماداً أساسياً على القوة العسكرية والعدوان والإرهاب، وهى بذلك مجتمع عسكرى صمم بحيث يكون فى حالة حرب دائمة.

وإذا كانت هذه هى بعض ملامح الصورة النمطية التى رسمها العقل العربى طوال العقود الماضية عن إسرائيل شعبا ودولة ومجتمعا، بكل ما تتضمنه من سلبيات، إلا انه يمكن القول إن الصورة اكتسبت أبعاداً جديدة بعد الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧. فتحت وطأة الهزيمة الساحقة بدأت بعض بوادر التضخيم فى النموذج الإسرائيلى، وخلط الكثيرون بين التفوق العسكرى والتفوق الحضارى.

ونشأ بعد عام ١٩٦٧ نوع من الكتابات يمكن أن يطلق عليها كتابات "النقد الذاتي بعد الهزيمة" [١] وهذه الكتابات التي حاول أصحابها سبر أغوار الهزيمة لتشخيص أسبابها واقتراح الحلول لتجاوزها، ركزت تركيزا واضحا على البعد الحضاري في المواجهة - العربية الإسرائيلية، وكان التفسير السائد في هذا الوقت أن الهزيمة ليست مجرد هزيمة عسكرية أو سياسية، بل هي في المقام الأول هزيمة حضارية ومضمون هذا الحكم الخطير أن إسرائيل هزمتنا لأنها تمثل نمطاً حضاريا أكثر تقدما من النمط العربي، ومن هنا ارتفعت دعوات بعض الكتاب - مثل احمد بهاء الدين إلى ضرورة إنشاء (دولة عصرية) تكون قادرة على مواجهة إسرائيل. ولقد كانت هذه التفسيرات - بالرغم من صحة بعض جوانبها - بالغة الخطورة، لأنها في نظرها للنموذج الإسرائيلي، لم تستطع التفرقة بين القوة العسكرية والتقدم التكنولوجي وبين التفوق الحضاري. ومن ناحية أخرى، فالزعم بأن المواجهة العسكرية مع إسرائيل بعد هزيمة ١٩٦٧ تقتضي - كشرط مبدئي - إنشاء دولة عصرية، كان معناه أن ننتظر أجيالا وأجيالا إلى أن ننتهي من بناء الدولة العصرية، وكان معنى ذلك بالضرورة تأجيل حرب أكتوبر ١٩٧٣، أو أي مواجهة عسكرية فاصلة مماثلة إلى أن نستعد لذلك حضارياً.

إن خطورة الخلط بين القوة العسكرية والتقدم التكنولوجي والتفوق الحضاري، تكمن في تجاهل الحقيقة التي تؤيدها البراهين التاريخية، في أنه ليس من الضروري أن تتلاءم القوة العسكرية الفائقة مع التفوق الحضاري، ففي كثير من الحالات كانت ممارسة القوة العسكرية الفائقة في التعامل الدولي بما تتضمنه من عدوان وغزو واستيلاء على أراضي الغير واحتلال واستعمار، تعبيرا فجا عن تخلف حضاري مؤكد للدولة التي تقوم بذلك. والتاريخ القديم والوسيط والحديث زاخر بحوادث هجوم البرابرة على المراكز المتحضرة وتخريبها، ولدينا في التاريخ العربي حوادث اكتساح التتار للمدن العامرة العربية، وفي التاريخ الغربي نجد الحملات الإمبريالية ضد بلدان العالم الثالث التي كان بعضها - كما يؤكد عالم الاجتماع الإنجليزي بيتر ورسلي في كتابه (العالم الثالث) - أكثر حضارة من الدول الغربية الغازية [٢]، ولدينا في التاريخ الأوروبي المعاصر ألمانيا النازية بكل آلة الحرب المتقدمة التي كانت تمتلكها، والتي سمحت لها باكتساح القارة الأوروبية. هل كانت ألمانيا النازية أكثر تفوقا حضاريا من باقي الدول الأوروبية التي تم اكتساحها؟ أم

كانت تعبيرا بليغا عن خطورة النزعات البدائية، والتوجهات العنصرية، التى كان من شأنها اضطهاد اليهود أنفسهم وملاحقتهم فى كل مكان؟ (٣).

ومن ناحية أخرى، فالدعوة إلى إنشاء دولة عصرية كشرط مبدئى قبل المواجهة العسكرية مع إسرائيل، تجاهلت الحقيقة التى مؤداها أن الهزيمة فى ١٩٦٧، تمت نتيجة لظروف استثنائية ظلمت فيها القوات المسلحة المصرية ظلما فادحا، لأنه لم يتح لها أن تعد للحرب وفق الأصول المعروفة. لقد كانت الهزيمة فى الواقع هزيمة للصفوة السياسية التى عجزت عن تعبئة المجتمع للحرب، وأدت بالتالى إلى الكارثة العسكرية فى ١٩٦٧. والهزيمة ليست حضارية كما زعم بعض الكتاب العرب، ولعل أبلغ دليل على ذلك أن القوات المسلحة المصرية استطاعت أن تشن حرب أكتوبر بعد ست سنوات فقط من هزيمة يونيو. هذه الحرب التى كشفت عن المعدن الأصيل للمقاتل المصرى العربى، الذى أثبت قدرة على التحديث والمعاصرة، بل وأكثر من ذلك قدرته على التجديد والابتكار فى مجال التخطيط العسكرى والاستراتيجى، وفى مجالات الإنجاز الميدانية. ويكفى دليلا على ذلك أن ما استحدثته القوات المسلحة المصرية فى هذه الحرب، اعتبرته المراكز الاستراتيجية فى العالم نقطة تحول حاسمة فى الحرب الحديثة.

ويعنى ذلك على وجه الإطلاق أننا بلغنا المدى فى التفوق الحضارى! على العكس نحن مازلنا نكافح للانتقال من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم، فى إطار عالمى يتسم بالصراع الحاد والعنيف بين الدول الفقيرة والدول الغنية. الدول الفقيرة تطالب بحقها من المساعدات الاقتصادية، وحق الحصول على التكنولوجيا الحديثة، والدول الغنية مازالت غارقة - بمفهوم غير حضارى بالمرة - فى سباق التسلح العقيم، الذى يؤثر سلبا على قدرتها فى مجال مساعدة الدول الفقيرة.

نحن إذن - كدولة فى العالم الثالث - فى خضم الصراع فى سبيل التحديث والتقدم، غير أننا لسنا بعيدين كثيرا عن المستوى الذى وصلت إليه إسرائيل. ذلك أن إسرائيل - وهذه هى الفكرة الرئيسية فى هذا البحث - لا تقدم لنا نموذجا حضاريا يستحق الاقتداء، بل إنها على العكس - بحكم سياستها العنصرية إزاء الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة - مازالت تفتقر إلى المفهوم الحضارى الحقيقى فى كيفية التعامل السلمى مع الشعوب. وهى إن كانت متفوقة عسكريا،

فالتفوق العسكرى ليس حكرا عليها، فقد استطعنا فى حرب أكتوبر أن نضع أيدينا على المفاتيح الاساسية لأساليب التطوير العسكرى الحديث، وهى إن كانت متفوقة تكنولوجيا فى بعض الميادين، فهذا التفوق مستعار فى المقام الأول من التكنولوجيا الأمريكية والأوروبية. وإذا كنا نستطيع أن نذهب إلى الأصول - فى مجال نقل التكنولوجيا - فما هى حاجتنا لكى نتسكع فى دروب الفروع؟

إن قضية التحدى الحضارى بين العرب وإسرائيل فى ظروف السلام تقتضى نظرة ثاقبة لطبيعة الصراع العربى - الإسرائيلى، وتحليلا نقديا للنظريات الغربية التى صيغت بصدد تفسيره. بغير هذه النظرة وبدون هذا التحليل يصبح الحديث عن التحدى الحضارى لغوا. ذلك لأنه بغير معرفة بجذور الصراع وبطبيعته، لا يمكن الكلام عن مرحلة السلام واتجاهاتها.

أولا: طبيعة الصراع العربى - الإسرائيلى فى ضوء نموذج الصراع فى العلاقات الدولية:

ليس هناك شك فى أن التحديد الدقيق لطبيعة الصراع العربى - الإسرائيلى من شأنه أن يساعدنا فى التعرف على آفاق العلاقات بين العرب وإسرائيل. هل ستكون علاقات تعاون فى إطار تنافسى، أم أن هناك احتمالات لكى تنشأ علاقات صراع فكرى أو حضارى؟

وقد حاول بعض علماء العلاقات الدولية وضع نموذج modelيمكن الاستعانة به فى دراسة الصراع الحضارى (٥)، ومن المعروف أن وضع " النماذج " هو أحد الأساليب العلمية التى تساعدنا على دراسة واكتشاف العلاقات بين المتغيرات المختلفة ونحن بصدد دراسة ظاهرة محددة (*).

وقد دعا هؤلاء العلماء (أ. جلين، د. جونسون، ب. كميل، ب. ودج) إلى صياغة هذا النموذج لعدم اقتناعهم بكفاية بعض النماذج السائدة فى ميدان تحليل

(*)(النموذج) عبارة عن بناء فكرى نظرى، يتميز بدرجة فى التماثل والتجانس الشكلى، موضوع خصيصا لأغراض البحث، بحيث يمكن أن يقودنا إلى فهم أفضل لبعض الخصائص المميزة لموضوع الدراسة. والنموذج بذلك يختلف عن النظرية اختلافا جوهريا، من حيث أنه لا يدعى مثلها تقديم فهم كامل نسبيا لميدان بأكمله من ميادين الدراسة.

الصراعات الدولية مثل نموذج " نظرية الألعاب " game theory. ذلك أن نموذج نظرية الألعاب ينطبق - أكثر ما ينطبق - على صراع المصالح بين الدول، ولكنه لا يصلح فى التطبيق إذا ما كان الصراع صراعا فى الفهم وليس صراعا فى المصالح بين طرفين دوليين.

نموذج نظرية الألعاب :

تستهدف نظرية الألعاب إلقاء الضوء على المواقف التى تضم طرفين على الأقل - يطلق على كل منهما اسم اللاعب - بينهما صراع فى المصالح، ويعمد أحد هؤلاء اللاعبين على الأقل إلى انتهاج أسلوب معين فى التصرف - وهو ما يطلق عليه اسم استراتيجية - من شأنه أن يؤدى إلى زيادة مصلحته أو مكاسبه إلى أقصى حد ممكن تسمح به ظروف الموقف وقيوده، وأهم تلك القيود التى يفرضها عليه الموقف ولاشك هى: استراتيجيات اللاعبين الآخرين الذين يشاركون ذلك الموقف، والملاحظ عند تطبيق نظرية اللعب فى تحليل استراتيجيات اللاعبين الأفراد الذين يوجد بينهم صراع فى المصالح أن المفروض عادة أن يتوافر لدى اللاعبين المختلفين:

(أ) نفس الفهم الواحد لقواعد اللعبة التى يشتركون فيها.

(ب) نفس مدلول قيم المكسب والخسارة فى هذا الموقف.

وتوضح لنا هذه الفروض وغيرها أن نظرية الألعاب لا يمكن أن تقدم لنا نظرية شاملة لتفسير الصراعات بصفة عامة والصراعات الدولية على وجه الخصوص، ذلك أنه من المؤكد أن مختلف أطراف الصراعات الدولية لا يتفقون دائماً فى فهمهم لقواعد اللعبة ولمعنى قيم المكسب والخسارة، ويمكن أن نقول بمعنى آخر إن الصراعات ليست كلها بالضرورة صراعات فى المصالح أساساً. ولو أن هذا لا ينفى طبعاً أن هناك بعض المواقف فى السياسة الدولية التى يتشابه فيها فهم طبيعة المواقف لدى صانعى القرارات، كما يتشابه تقديرهم لما هو مرغوب وما هو غير مرغوب، وأن هذا التشابه من الكفاية بحيث يسمح لنا باستخدام نموذج نظرية الألعاب كأداة فعالة من أدوات البحث فى مثل تلك المواقف.

نموذج الصراع الحضارى:

فى ضوء هذا النقد الذى قدمه هؤلاء العلماء إلى نموذج نظرية الألعاب، قدموا تفرقة بين صراع المصالح وصراع الفهم، على أساس أن هناك كثيرا من المواقف الدولية التى لا يرجع فيها الصراع إلى تعارض المصالح (ندرة الموارد مثلا) بقدر ما يرجع إلى تباين طرق الفهم (مثل اختلاف الأساليب المعرفية)، وصراع المصالح لا يمكن حله إلا عن طريق تنازل لكل من الأطراف المعنية عن جانب من مصالحه، أو عن طريق تنازل أحد الطرفين عن مصالحه كلية لصالح الطرف الآخر، وبذلك يحل الصراع. أما بالنسبة لصراع الفهم، أو بعبارة أخرى تعارض أسلوب كل طرف فى فهم موقف الطرف الآخر، فإن السلام لا يتحقق إلا من خلال تكوين بعض" الأفكار الوسيطة" (*) أى التى تتوسط بين الأطراف المختلفة والتى يمكن أن يؤدى إلى فهم كل منها لموقف الآخر، وبالتالى للموقف المشترك. ويضرب المؤلفون مثلا لهذه الأفكار الوسيطة بمفهوم الدولة ذات السيادة، والثقافة المشتركة، والتقارب عن طريق المنظمات.

فكرة الدولة ذات السيادة، معناها أن يعترف كل طرف من أطراف الصراع بالطرف الآخر بدون انتقاص. بعبارة أخرى إذا نظر للبلاد المتصارعة باعتبارها دولا وللأشخاص باعتبارهم مواطنين، فإن جزءا من صراع الفهم يمكن حله. (الإشارة الضمنية هنا عدم اعتراف العرب بإسرائيل باعتبارها دولة ذات سيادة، وعدم اعترافهم بالإسرائيليين باعتبارهم مواطنين فى هذه الدولة). أما فكرة الثقافة المشتركة فيمكن أن تتحقق من خلال الاتصال الثقافى بين الأطراف المتصارعة وما يترتب عليه من التقارب الحضارى، مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه العملية تتم ببطء وتتعرض لمعوقات عديدة. هذه الوحدة فى الهوية الحضارية من شأنها أن تقضى تماما على الصراع الناشئ عن الاختلافات فى الفهم (وليست تلك الناجمة عن صراع المصالح).

وتبقى أخيرا الفكرة الوسيطة الثالثة، وهى التقارب عن طريق الاشتراك فى منظمات واحدة، ويبدو هذا النوع من التقارب أوضح ما يكون فى الهيئات الدولية،

(*) يعرف هؤلاء المؤلفون الأفكار الوسيطة بأنها "أنساق" من الأفكار تكون بناء معرفيا جزئيا يشارك فيه أطراف الصراع فعلا، أو يمكن تحقيق مشاركتهم فيه. ومن شأن هذه الأفكار الوسيطة أن تؤثر على صورة كل طرف من أطراف الصراع عن نفسه.

ولكنه - كما يشير المؤلفون ببراعة - يبدو فعالا بدرجة أكبر فى الحالات تكون فيها تلك الهيئات ثنائية تجمع بين دولتين وتنسق بين وجودهما وتقرب بينهما (الإشارة ضمنية أيضا لإسرائيل وغيرها من البلاد العربية). فى هذه الحالة - كما يرون - يتحول أعضاء تلك الهيئات فى معظم الحالات من معبرين عن إيديولوجيتهم القومية الخاصة إلى خبراء فى إيديولوجية البلد الآخر، أو حتى الوقوف فى صف تلك الإيديولوجية الأخرى التى يمكن أن تكون أكثر نفعا وأجدى فى تحقيق رسالة منظمة ثنائية معينة.

أنماط التفاعل الفكرى:

نموذج الصراع الحضارى - كما سبق شرحه - هو النموذج الأمثل الذى يراه هؤلاء المؤلفون لحل صراع بين طرفين دوليين متصارعين، ولكى يكتمل النموذج فهم يقدمون وصفا لأنماط التفاعل الفكرى بين الدول. بعبارة أخرى يمكن تصنيف الدول بحسب مجموعة من الأبعاد:

البعد الأول: الدول التى تسودها النظرة الشمولية العامة فى مقابل الدول التى تسودها النظرة التفصيلية التى تنطلق من الحالات الفردية.

البعد الثانى: الدول التى يسودها التفكير الارتباطى فى مقابل الدول التى يسودها التفكير التجريدى.

ولنلاحظ قبل أن ندخل فى التفاصيل أن هؤلاء المؤلفين يوحون بأن الدول العربية تنتمى إلى النوع الأول (النظرة الشمولية العامة والتفكير الارتباطى) وهذا النوع متخلف، وأن إسرائيل تنتمى إلى النوع الثانى (النظرة التفصيلية والتفكير التجريدى)، وهذا النوع متقدم.

البعد الأول: النظرة الشمولية فى مقابل النظرة التفصيلية :

الثقافة ذات النظرة الشمولية:

تؤكد هذه الثقافة على أهمية التبرير اللفظى، فالقوانين تعبر عن مثل عليا، أما تنفيذها فيأتى فى المرتبة الثانية بعد التركيز على محتواها المثالى، ومن هنا تحتل الأفكار العامة والمثل العليا المرتبة الأولى، وتمثل محور الارتكاز الأساسى،

وبالتالى لا نجد هنا اهتماما كبيرا بالنزول إلى مستوى التفاصيل الدقيقة، ولا تميل هذه الثقافة إلى الحلول الوسط، على أساس أن التسليم بنقاط غير مقبولة قد يفهم منه أنه تسامح فى التسليم بمبادئ فاسدة.

الثقافة ذات النظرة التفصيلية:

تتميز هذه الثقافة بتحديد مجال الرؤية أو تضييق الإطار المرجعى كلما أمكن ذلك، فالمعرفة تقسم إلى عدد كبير من الحالات أو القضايا الفردية المستقلة، ومن ثم لا تسعى هذه النظرة إلى حل قضايا ومواقف كلية دفعة واحدة. وتتميز هذه الثقافة أساسا بالتفكير الاستقرائى INDUCTIVE، أو محاولة استخلاص الأحكام العامة من الحالات الفردية، ومن أمثلة هذا الاتجاه استخدام الإحصاءات كأساس لاتخاذ القرارات، على خلاف استخدام المبادئ لإثبات صحة وصواب قرارات متخذة سلفا، كما هو الحال بالنسبة لسلوك أبناء الثقافة الشمولية، لذلك فالمفاوض من أبناء هذه الثقافة يسعى دائما نحو الحلول الوسط واقتناص الامتيازات بقدر الإمكان.

البعد الثانى: التفكير الارتباطى فى مقابل التفكير التجريدى :

يتميز التفكير الارتباطى ASSOCIATIVEبميل الإنسان إلى الاستجابة لبيئته بشكل مباشر، غالبا ما يكون حدسيا أيضا، بينما يتميز التفكير التجريدى ABSTRACTIVE بالتفكير المنظم القائم على الاستنتاج من الوقائع أو المقدمات، والمحاولات المنهجية المنظمة للتمييز بين ما هو متصل بالموضوع وما ليس متصلا به.

والاستجابة الارتباطية للأحداث تتمثل فى كونها نتيجة تداعى الأفكار، وليس نتيجة لتفكير منهجى منظم، أما أسلوب التفكير التجريدى فنجده متمثلا فى العلوم الحديثة. فالنتائج تعتمد على الاستعانة بمناهج ذات قيمة وكفاءة مؤكدة، ويميز هذا النوع من أنواع التفكير تمييزا حاسما بين ما هو متصل بالموضوع وما ليس متصلا، أو بين المعلومات "والشوشرة" أو "الضوضاء" التى قد تنشأ بصدد دراسة موضوع معين.

ويكشف المؤلفون القناع عن وجههم حين يحاولون تطبيق نموذجهم على الصراع العربى الإسرائيلى. فهذا الصراع - فى زعمهم - ليس صراع مصالح ولكنه صراع

فهم، وهو بهذه الصفة راجع إلى زرع دولة - هى إسرائيل - ذات ثقافة تجريدية (متقدمة) وسط منطقة ذات ثقافة ارتباطية (متخلفة)، وأن أساليب معيشة هذه الدولة الجديدة تهدد الفهم الارتباطى (المتخلف) لمعنى المشروعية وللإحساس بالهوية.

تقييم للنظرة الغربية الإسرائيلية للمجتمع العربى:

إن نموذج الصراع الحضارى فى مجال العلاقات الدولية الذى عرضنا له ليس سوى صياغة حديثة ومنهجية للنظرة العنصرية الغربية والإسرائيلية للعرب، وقد سبق لنا أن تعقبنا الأصول التاريخية لهذه النظرة العنصرية فى كتابنا (الشخصية العربية بين مفهوم الذات وتصور الآخر)، وحللنا نقديا كل هذه الآراء التى تزخر بها كتابات المستشرقين والكتاب الغربيين.

والجديد فى هذه المحاولة هو محاولة نفى تناقض المصالح بين إسرائيل والدول العربية، والزعم بأنه مجرد صراع فى الفهم، ولو أمكن إصلاحه من خلال الأفكار الوسيطة (الاعتراف بشرعية الدولة بالنسبة لكل طرف، وصياغة ثقافة مشتركة، والتقارب من خلال التعاون فى المنظمات) لانتهى الصراع.

والواقع أن هذه الأفكار الوسيطة التى تدعو لها هذه الدراسة تهدف فى المقام الأول إلى ما يمكن أن نطلق عليه ترويض الشخصية القومية العربية. ونعنى بهذا على وجه التحديد ليس فقط انتزاع الاعتراف بشرعية الدولة الإسرائيلية، ولكن أخطر من ذلك القضاء على الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للمجتمع العربى بعملية غزو ثقافى مدروسة، من خلال الدعوة البريئة إلى خلق ثقافة مشتركة تتم من خلال الاتصال الثقافى الذى من شأنه أن يؤدى إلى التقارب الثقافى. بل إن الفكرة الوسيطة الثالثة (التقارب عن طريق المنظمات) يراد لها أن تؤدى إلى أن أعضاء تلك الهيئات الثنائية المشتركة لا يقنعون فقط بتفهم أفكار الطرف الآخر (إسرائيل فى هذا المثال) ولكن أبعد من ذلك يقومون بالترويج للإيديولوجية الأخرى (الإسرائيلية) على أساس أنها أكثر نفعا وأجدى فى تحقيق رسالة هذه الهيئة الثنائية. وبالرغم من أن الدراسة تتحفظ وتقرر أنه ليس من الضرورى أن ينصب هؤلاء الأعضاء (العرب فى هذا المثال) أنفسهم مدافعين عن إيديولوجية البلد الآخر فإنهم قد يجدون أن تلك الثقافة الأخرى (الإسرائيلية فى هذا المثال) شئ يمكن التعامل

معه وتوجيهه وجهة معينة. وهكذا يمكن القول إن هناك استراتيجية غربية (إسرائيلية) تحاول من خلال عملية السلام ترويض الشخصية القومية العربية من خلال الغزو الثقافى، الذى يراد له ان يتم تحت شعار أهمية التقارب الثقافى وخلق ثقافة مشتركة.

وعلى ذلك يمكننا أن نقرر أننا فى حاجة ليس للتحدى الحضارى مع إسرائيل، فهى لا تقدم كما أكدنا فى المقدمة نموذجا حضاريا يمكن الاقتداء به، أو يستحق الصراع حضاريا معه، ولكننا فى حاجة إلى مقاومة الغزو الثقافى الإسرائيلى الذى يمكن أن يصل إلى أهدافه لو لم نتسلح بالمنهج العقلانى النقدى، ولو لم نكن على وعى كامل بأهمية عمليات الغزو الثقافى فى السيطرة على الشعوب. والغزو الثقافى عملية برعت فيها الدول الاستعمارية التقليدية، ويبرع فى تطبيقها الآن الاستعمار الجديد، الذى كف عن احتلال الدول بالقوة العسكرية، ولكنه ينفذ إليها من خلال تصدير نموذجه الحضارى، وتأثيره على الاتجاهات والقيم والعادات وأسلوب الحياة، ويعتمد فى ذلك على عديد من الوسائل والأدوات، لعل أهمها الثورة العلمية والتكنولوجية فى مجال الاتصالات الدولية. فمن خلال الإذاعة والتليفزيون ومن خلال الأقمار الصناعية التى تسيطر عليها الدول الكبرى، يمكن لهذه الدول أن تؤثر تأثيراً فعالاً على الاتجاهات والقيم، وبالتالى أسلوب الحياة فى عديد من بلاد العالم الثالث. وهكذا يمكن القول إن هذه حالة بارزة من حالات تأثير التكنولوجيا على الإيديولوجيا، وهى مسألة تحتاج إلى دراسة نقدية متعمقة، ليس هنا مجال الافاضة فيها [٦].

وإذا كانت أمامنا مهمة عاجلة هى مقاومة الغزو الثقافى الإسرائيلى من خلال الحفاظ على إيجابيات الشخصية القومية العربية، فلا يعنى هذا أن مهمتنا قد انتهت. ذلك أن مهمتنا الرئيسية التى سوف تحتاج إلى كل جهودنا الفكرية، وإلى جميع إبداعاتنا الذهنية هى صياغة استراتيجية حضارية عربية قادرة على التعامل مع المشكلات التى يثيرها عصرنا، وتكون هى وسيلتنا فى القضاء على التخلف والقضاء على التخلف، والانطلاق فى مجال التقدم، ولا يمكن لنا الحديث عن هذه الاستراتيجية الحضارية، قبل محاولة تشخيص أزمة التطور الحضارى فى العالم العربى.

ثانيا: أزمة التطور الحضارى فى العالم العربى :

يمر التطور الحضارى فى العالم العربى بأزمة لاشك فيها، وقد كشف عن عمق هذه الأزمة الصدام العنيف العاصف بين جيوش الحملة الفرنسية بقيادة نابليون وجيش المماليك عام ١٧٩٨. فى هذه المعركة العسكرية الفاصلة ظهر للعيان تخلف المجتمع العربى بوجه عام فى مواجهة المجتمع الغربى المتقدم متمثلا فى فرنسا، وأيا كانت أسباب هذا التخلف، وسواء رددناها إلى مرحلة الانحطاط التى مرت بها البلاد الإسلامية بعد قرون طويلة من الازدهار والرقى والتقدم، قادت فيها الحضارة العربية الإسلامية الإنسانية جمعاء فى ميادين العلم والفكر والفن، أو إلى تأثير مرحلة الجمود والتخلف الطويلة فى ظل الهيمنة العثمانية على العالم العربى، والتى استمرت حوالى خمسة قرون، فإن المفكرين المصريين سرعان ما أدركوا عمق تخلفنا فى مواجهة تقدم الغرب. ولنقرأ كتاب مؤرخنا العظيم عبد الرحمن الجبرتى وهو يصف معامل الحملة الفرنسية وما تزخر به من أدوات حديثة، ولنتأمل انبهاره الشديد واندهاشه من بعض التجارب الكيميائية البسيطة التى أجراها أمامه علماء الحملة، لندرك عمق هذا التخلف التى عبرت عنها عبارة الجبرتى الشهيرة "إن هذه أشياء لا تدركها عقول أمثالنا".

أى أنه فى الوقت الذى غرقنا فيه فى ظلمات التخلف خمسة قرون كاملة شهد الغرب - كما يقرر مؤرخنا الجليل الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - "عدة ثورات أضفت على حضارته قوة جديدة: النهضة الأوروبية أو حركة إحياء العلوم، الثورة الدينية أو حركة الإصلاح الدينى، ثورة النقل أو اكتشاف طرق عالمية جديدة وقارات جديدة، حركة الاستنارة أو الثورة الفكرية فى القرن الثامن عشر، الثورة الصناعية واكتشاف البخار، الثورة الفرنسية أو ثورة الديمقراطية " (٧).

وبناء على ذلك تغير المجتمع الغربى تغييرات جوهرية، فى حين وقف الشرق الإسلامى جاهلا تماما مدى التطور الذى حدث لخصمه، فظن كما يقرر د. عزت عبد الكريم - " أن جنود بونابرت لا يختلفون عن فرسان القديس لويس الذى هزمهم وأسر ملكهم فى المنصورة، وخرج زعيم أمراء المماليك مزهوا بنفسه وجنده ليدوس الغزاة بخيله وركبه ويلقى بهم فى البحر، وسرعان ما تبددت الأسطورة وأدرك المصريون أن الأمر مختلف، وأنهم يواجهون اليوم قوما يختلفون عن

أسلافهم منذ خمسة قرون ".

ففى هذه اللحظة راح العرب والمسلمون - بتأثير الصدمة الأولى - يتساءلون عن سر الهزيمة التى لحقت بهم: أهو كامن فى مجرد التفوق العسكرى، أم كامن وراءه تفوق آخر فى العلم والصناعة وشئون الاقتصاد والمال؟ وهكذا يخلص دكتور عزت عبد الكريم إلى أن الاصطدام بين القوتين الإسلامية والأوربية الغربية لم يكن مجرد صدام بين قوتين مسلحتين، ولكنه كان صداما بين حضارتين ونظامين.

ولا يقبل د. عزت عبد الكريم مغالاة بعض الباحثين الذين يذهبون إلى أن الصدام كان بين حضارتين إحداهما آفلة والأخرى مزدهرة، وهى الحضارة الأوروبية الغربية ممثلة فى فرنسا فى ذلك الوقت، ويؤكد على الفكرة التى ركزنا عليها فى المقدمة وهى أن الانتصار العسكرى ليس دائما مظهرا لتفوق حضارى، ومن ناحية أخرى يرى أن الحضارة الإسلامية فى ذلك الوقت من القرن الحادى عشر للهجرة (القرن الثامن عشر الميلادى) لم تكن حضارة آفلة وإن كان قد أصابها قدر كبير من الركود والجمود، نتيجة لانتشار روح المحافظة والنأى عن أى تجديد.

المهم أن فريقا من المفكرين المسلمين الرواد راحوا يبحثون عن سر هذا التفوق أو الانتصار العسكرى الذى أحرزه الغرب. هذا السر على نحو ما أدركه هؤلاء الرواد كامن لا فى تفوق الحضارة الغربية على الحضارة العربية الإسلامية، وإنما يكمن فى أن هذه الحضارة الاخيرة أخذت بالعلم مطبقا فى مجالات الصناعة والحكم والإدارة والقوة العسكرية وسائر مرافق الحياة الغربية.

فالمسألة إذن - كما يقرر د. عبد الكريم - لم تكن اختلافا " فى درجة الحضارة " بقدر ما كانت اختلافا فى " نوع " الحضارة، فالحضارة العربية الإسلامية بقيت مقصورة فى الغالب على النواحى النظرية أو ما يجرى مجراها فى شئون الحياة العادية، ولكن حضارة الغرب منذ عصر النهضة فى القرن الخامس عشر أخذت تتوسع فى جانب التطبيقات العلمية، واتخذت منها على الخصوص سلاحاً اصطنعته فى بناء القوة الحديثة فى البر والبحر، وبهذه القوة غزا الغرب الأوروبى العالم وسيطر على مقدراته.

أدرك هؤلاء الرواد إذن أن تفوق الأوروبيين - الكفرة - على حد تعبير نفر منهم، يرجع إلى ما أسموه " الصنايع " الحديثة التى أخذ بها الغرب، فدعوا قومهم

إلى الأخذ بهـذه الصنـايع أو مـا نسـميه بلغتنـا الحـاضرة، تكنولوجيـا الغـرب، وهـذه الدعوة تكاد تتطابق لدى رواد الفكر الإسلامى فى النصف الأول مـن القرن التاسـع عشر، وقد عاصروا جميعاً المعارك الأولى التصادمية بين العرب والغرب، ونتـائج هذه المعارك التى لم تكن فى مصلحة العرب والمسلمين. منذ هذا الوقت تبلورت الإشكالية الأساسية فى الفكر العربـى الحديث وهـى إشكالية الأصالـة والمعـاصرة. ومبنى هذه الإشكالية ببساطة أنه بعد إدراكنا ووعينا بأننا متخلفون عـن الغرب، أى سبيل نسلك لكى نعبر هوة التخلف وننطلـق فـى مضمـار التقدم؟ نحـن مجتمـع قديـم يمتلك تراثاً حضارياً أصيلاً هو التراث العربى الإسلامى، وقد مررنـا مـن قبـل فـى مرحلة تاريخية كنا فيها السابقين، بل كنا نحن أشعة استنارة فـى العـالم، فـى الوقت الذى رزحت فيه أوروبا فى ظلمات القرون الوسطى، ومن ثم فنحـن لا ننطلـق مـن فراغ، لدينا تراثنا الذى جمدناه طويلاً فلم نواصل الإبداع فى رحابه، ولـم نبـن علـى قواعد الإنجاز العظيمة التى وضعها أسلافنا، كيف نوفق بين الاحتفاظ بتراثنـا وبيـن الانفتاح على الغرب لكى نمتلك ناصية القوة والتقدم؟ هـل نقلد الغـرب تقليداً كـاملاً فتضيـع بالتـالى هويتنـا الحضاريـة؟ أم نجـدد تراثنـا العربـى الإسـلامى ويكـون هـو الأساس للتنمية والتقدم؟ أم نوفق بين تراثنا وبيـن المعـاصرة بحـل وسـط؟ كـل هـذه التساؤلات دارت فى أذهان المفكريـن المصرييـن والعـرب منـذ رفاعـة الطهطـاوى حتى زكى نجيب محمود. عـبر الزمـن تبلورت إجابـات متعددة تحـاول الـرد علـى السؤال الرئيسى الذى تطرحه إشكالية الأصالة والمعاصرة.

يقرر د. زكى نجيب محمود فى دراسـته (الأصالـة والتجديـد فـى الثقافـة العربيـة المعاصرة) أن رجال الثقافة العربية الحديثة ينقسمون طوائف ثلاثا فى مواقفهـم مـن العصر وقضاياه، طائفة منها رفضت العصر ولاذت بالتراث وحده، كما تطرفوا فى وجوب الأخذ بمبادئ الشريعة فى تنظيم الحياة، كمن تناولوا الفكـر بمثـل مـا تناولـه مصطفى صادق الرافعى. وطائفة ثانية قبلـت العصـر بحذافيره، فـإذا تعـارض مـع أحوال التراث العربى رفضـوا الـتراث، مثـل فـرح انطـون، وسـلامة موسـى، وأمـا الطائفة الثالثة فهى التى صنعت لنا ثقافتنـا العصريـة لأنهـا هـى التـى زودت نفسـها بكلا الزادين: الثقافة العربية الأصيلـة وثقافـة عصرنـا، وأخرجـت منهـا مزيجـاً هـو الذى نطلق عليه بحـق (الثقافـة العربيـة الحديثـة) وفـى مقدمـة هـؤلاء: طـه حسـين، والعقاد، وتوفيق الحكيم، وأمين الريحانى، وميخائيل نعيمـة، وسـائر مـن سـار علـى

هذا النهج القويم.

من هذه الفقرة يمكن أن نضع أيدينا على تيارات فكرية ثلاثة أساسية حاولت الرد على إشكالية **الأصالة والمعاصرة:**

– تيار رافض للمعاصرة ويميل أساساً إلى جانب التراث (على اختلاف فى درجة رفض المعاصرة، من الرفض الكامل إلى محاولة التوفيق مع روح العصر).

– تيار قابل للمعاصرة تماماً حتى ولو تعارضت مع التراث.

– تيار يحاول التوفيق والوصول إلى حل وسط بين الأصالة والمعاصرة.

ولو حاولنا أن نتعمق فى هذه التيارات الفكرية الثلاثة من خلال عملية تنميط علمى لقلنا إن ثلاثة مفكرين مصريين يصلحون للدلالة على الإجابات المختلفة التى اقترحت للرد على إشكالية الأصالة والمعاصرة، وهؤلاء - ونحن هنا نطبق منهج المفكر العربى المعروف عبد الله العروى فى كتابه "الإيديولوجية العربية المعاصرة" - هم الشيخ محمد عبده، وأحمد لطفى السيد، وسلامة موسى.

أما الشيخ محمد عبده فقد دعا إلى التوفيق بين الإسلام والمعاصرة فى حين أن أحمد لطفى السيد دعا بكل قوته إلى تطبيق النموذج الليبرالى الغربى، وأخيراً نجد سلامة موسى مثلا لهؤلاء الذين دعوا إلى اقتباس تكنولوجيا الغرب، وخلاصة ذلك كله أن الدين والديمقراطية والتكنولوجيا هى المسائل الكبرى التى عنى بها المجتمع العربى منذ نهضته حديثاً.

ومن الواضح أن كل مسألة من هذه المسائل تثير خلافات واسعة المدى:

– أى مفهوم للدين نتبعه، وما علاقة الدين بالدولة، وما علاقة الدين بالسياسة بوجه عام؟

– أى نمط من أنماط الديمقراطية يصلح لنا؟ لقد خبرنا الديمقراطية الليبرالية وفشلت، وكانت ثورة يوليو ١٩٥٢ إعلاناً بفشلها. وجربنا الديمقراطية الاجتماعية فى المرحلة الناصرية وفشلت، وها نحن نحاول صياغة ديمقراطية اجتماعية جديدة فهل ننجح؟

– وتبقى مسألة التكنولوجيا بكل ما يحيط بها من مشكلات: هل يمكن استيراد التكنولوجيا بدون أن يتأثر بناؤنا الاجتماعى بها؟ بعبارة أخرى هل يمكن استيراد

التكنولوجيا ونقلها إلى مجتمعنا بدون استيراد القيم المصاحبة لها والتى تركز عليها، وإذا كان هذا صحيحا فهل نحن على استعداد لمجابهة عملية صراع القيم بين القيم الوافدة وقيم مجتمعنا؟

كل هذه أمثلة على التساؤلات الأساسية التى تطرحها مشكلة الأصالة والمعاصرة، والتى تكشف عن أزمة التطور الحضارى فى العالم العربى، وهى أزمة لأننا ما زلنا بعد لم نجب إجابات نهائية على ما تثيره المشكلة من أسئلة. وما زلنا ندور وندور فى نفس الحلقة. نجرب ونفشل ونستفيد من التجارب، هذا صحيح، ولكن هل معرفتنا بمجتمعاتنا ذات طابع تراكمى إيجابى من شأنها أن تدفعنا فى كل حقبة تاريخية إلى الأمام؟ أم أننا نتقدم خطوة ثم ما نلبث أن نتأخر خطوات عديدة، ونبدأ من الصفر من جديد؟ هذا هو السؤال.

ثالثاً: نحو استراتيجية حضارية :

ينبغى قبل الحديث عن الاستراتيجية الحضارية أن نحدد بشكل نقدى بعض التعريفات لمشكلة الأصالة والمعاصرة.

الأصالة بمعنى التراث يمكن أن تنطوى على موقف رجعى كما يقرر د. صادق جلال العظم: "إذا فهمنا الأصالة على أنها نوع من الارتداد إلى الوراء، أو نوع من السلفية أو القول بأن هناك شيئاً يدعى (الروح العربية الأصيلة)، وهذه الروح ثابتة وباقية على ما هى عليه عبر العصور، وهذا يعنى أنها غير خاضعة لشروط المكان والزمان والظروف الاجتماعية والتبدلات التاريخية. أى بتعبير آخر أن هناك جوهرا ثابتا اسمه الأصالة العربية، وهو غير مرتبط بالظروف الاجتماعية والطبقية والتحولات التاريخية" [١٠].

والأصالة التى تدعو إلى العودة إلى التراث ينبغى عليها أن تحدد ما هو التراث على وجه التحديد، والتراث - كما يقرر د. إحسان عباس: " هو نتاج تراكمى لأمة من الأمم على مر الزمن. هو ذروة النشاط الإنسانى فى مجالات الفكر والأدب والأسطورة والدين والفن والعلم والعمران. فى صراع ذلك الإنسان مع واقعه المتغير المتطور، أو بعبارة أخرى: التراث صورة الماضى، وبما أنه كذلك فإنه لا يمثل عصرا بذاته ولا مجتمعا بذاته، كما أنه ليس إيجابياً دائماً ولا سلبياً على

الدوام، ومن ثم تتفاوت فيه القيم وتتعدد وتموت وتحيا، بحساب الحاجات الإنسانية فى البيئات المختلفة " (١١).

ولن يجدينا أيضا أن نرفع شعار المعاصرة بغير تحديد، ففى العصر الراهن هناك العديد من الأيديولوجيات، ومن أنماط المجتمعات الإنسانية، ومن الثقافات وأساليب الحياة، أيها نأخذ وأيها ندع ولماذا فى الحالتين؟

لعل أول موجة من موجات الاستراتيجية الحضارية التى ينبغى على المجتمع العربى أن يصوغها هو بناؤها على قاعدة متينة من الفهم النقدى لتراثنا العربى والإسلامى. تراثنا زاخر بالخبرات والممارسات الفكرية والسياسية والاجتماعية، ولا يكفى أن نحمله فوق أكتافنا ونتغنى به فيصبح تاريخنا عبئاً - بمصطلحات أستاذنا قسطنطين زريق - بدل أن يكون حافزا. هناك إذن (التاريخ - العبء) الذى يمنع أصحابه من الحركة، والذين يغرقون فى تأمل ماضيهم الذهبى عاجزين عن التعامل الإيجابى مع الواقع، وهناك (التاريخ - الحافز) الذى يدفعك دفعا إلى الأمام فى ضوء فهم نقدى للماضى لتجاوز السلبيات وتأكيد الإيجابيات (١٢).

ولنطرح الآن السؤال الرئيسى: ما هو الهدف من الاستراتيجية الحضارية العربية التى ندعو إليها؟

الهدف - فيما نتصوره - هو بناء مجتمع إنسانى متحضر قادر على الوفاء بالحاجات الأساسية للإنسان، وفاعل فى التعامل مع متغيرات العصر وأبرزها الثورة العلمية والتكنولوجية، والمشاركة السياسية الجماهيرية، واحترام حقوق الإنسان. لتحقيق هذا الهدف لا بد لنا من أن ندخل عديداً من التغيرات على عاداتنا الفكرية واتجاهاتنا وقيمنا وأساليب حياتنا، وطرقنا فى التعامل والتفاعل مع الآخرين.

ومشكلتنا الأساسية وهى التخلف تكشف عنها ضآلة سيادتنا على الطبيعة، وضعفنا فى استغلال مواردها، وهزال تنظيماتنا الاقتصادية والاجتماعية، وضيق قدرتنا التكنولوجية والتنظيمية بوجه عام. وليس أمامنا من سبيل لتجاوز مشكلة التخلف إلا الاعتماد على مجموعة متشابكة من الوسائل والأدوات والأساليب يمكن إيجازها فيما يلى:

١-الاعتماد على التفكير العلمى فى نواحى حياتنا:

هذا هو موضوع الساعة فى العالم العربى. كما يقرر د. فؤاد زكريا: "ففى الوقت الذى أفلح فيه العالم المتقدم - بغض النظر عن أنظمته الاجتماعية - فى تكوين تراث علمى راسخ امتد فى العصر الحديث طوال أربعة قرون، وأصبح يمثل فى حياة هذه المجتمعات اتجاهاً ثابتاً يستحيل العدول عنه أو الرجوع فيه، فى هذا الوقت ذاته يخوض المفكرون فى عالمنا العربى معركة ضارية فى سبيل إقرار أبسط مبادئ التفكير العلمى" [١٣] والحقيقة أننا فى عصر العلم، فالثورة العلمية والتكنولوجية تعنى أول ما تعنى أن العلم أصبح - وللمرة الأولى فى تاريخ البشرية - قوة أساسية من قوى الإنتاج.

ولا تكفى دعوتنا لتطبيق التفكير العلمى بغير إثارة مجموعة أساسية من الأسئلة:

(أ) ما هى المعوقات الثقافية والاجتماعية والسياسية التى تمنع ممارسة التفكير العلمى فى مجتمعنا، وفى كل المجالات؟

(ب) لماذا لا نحصل من علمائنا وباحثينا المدربين على أكبر عائد ممكن؟ هل العيب فى سياسات العلم فى مجتمعنا وتذبذبها وعدم اتساقها، أم العيب يكمن فى العلماء أنفسهم؟

نحن فى حاجة إلى دراسة فى سوسيولوجية العلم لكى نصل إلى رد على هذا السؤال.

٢-حاجتنا إلى النقد الاجتماعى والنقد الذاتى:

مشكلة التخلف تحتاج إلى تضافر كل الجهود الفكرية والاجتماعية والسياسية للقضاء عليها، ومن هنا نحن فى المجتمع العربى فى حاجة شديدة لممارسة النقد الاجتماعى. النقد الاجتماعى معناه ببساطة تشخيص وتحليل كل جوانب التخلف فى مجتمعنا بكل أشكاله السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبالتالى فالنقد الاجتماعى لا يقنع بما هو موجود، ولا يستكين إلى ما هو تقليدى، ولكنه يبحث ويحلل ويشخص داعيا لتجاوز التخلف واتباع أساليب جديدة لحل المشكلات. والنقد الذاتى نوع من أنواع النقد الاجتماعى، وأهميته تكمن فى أن مجتمعا من المجتمعات لو رضى عن نفسه ولم يلتفت إلى سلبياته لكان محتما عليه أن يفنى وينقرض. النقد

الذاتى من أشجع ألوان النقد الاجتماعى، لأنه لا يخشى الحساسيات القومية أو الاجتماعية ولا يتراجع أمام النعرات الإقليمية أو العصبية، ولكنه يمسك بالذات القومية أو بالبناء الاجتماعى بكل ما يتضمنه من أنساق سياسية واقتصادية وثقافية لكى يحللها ويفحصها ويكشف عن مواطن الضعف فيها. وما من شك فى أن عملية النقد الذاتى التى قمنا بها بعد هزيمة ١٩٦٧ كانت أساسية وحاسمة فى وضع أيدينا على أسباب الهزيمة، وفى دفعنا إلى حرب ١٩٧٣ التى استعادت كبرياءنا، وأدت إلى تغيرات كبرى فى السياسة العالمية (١٤).

والنقد الاجتماعى والنقد الذاتى يحتاج - كما لا يخفى - إلى مناخ ديمقراطى يركز على أن كل مواطن حر فى الإسهام بفكره وعقله وسلوكه فى مناقشة مشكلات مجتمعه، وفى طرح الحلول لها، وفى العمل بإيجابية - فى حدود الدستور والقانون - على تطبيقها. غير أن هذا المناخ الديمقراطى لم يتوافر بعد فى العالم العربى الذى يعانى من أزمة ديمقراطية بالغة الحدة.

٣-القضاء على الفجوة بين الصفوة والجماهير:

لا يمكن القضاء على التخلف بغير خلق وعى حضارى لدى الجماهير، وبغير أقصى مشاركة جماهيرية فى الفعل الحضارى. فلا يكفى -كما يقرر قسطنطين زريق - أن تبقى هذه الحقيقة مجرد اقتناع فكرى عند فريق من المفكرين أو من أولى الأمر، بل يجب أن تنقلب إلى إيمان يمتلك النفوس ويعم الشعب بمجموعه، وينطلق بحيوية فاعلة ودفق غامر. يجب أن يتحول الشعور بحاجاتنا الأساسية هذه إلى فيض من الشعور الحضارى الذى ينطلق من الإحساس بجسامة التخلف والرغبة العارمة فى الوصول إلى آفاق التقدم.

وسد الفجوة بين الصفوة والجماهير يحتاج إلى ثورة ثقافية شاملة،تركز على ديمقراطية الفكر، وتشجيع الإبداع الذهنى، وتكتشف القيادات الاجتماعية والثقافية والسياسية، وتتيح الفرصة للمثقفين العضويين الملتحمين بقواعدهم الجماهيرية أن ينطلقوا ويشقوا الطريق أمام قواعدهم، حتى يكسروا احتكار القلة من المثقفين المنعزلين الذين يظنون وهما أن تغيير المجتمع يمكن أن يتم من خلال العمل الذهنى البحت، الذى يفتقر إلى حرارة التجربة الاجتماعية، والذى يقصر بالتالى عن تلمس

الحاجات الأساسية للجماهير، والتى لا تتمثل فقط فى الحاجات المادية، بل أهم منهـا الحاجات الروحية، والحاجة الماسة إلى المشاركة السياسية الإيجابية الخلاقة [١٥].

والقضاء على الفجوة بين الصفوة والجماهير لابد له أن يمتد للقضاء على الهوة بيـن المدينة والقرية، فليس هناك أمل فى عبور أزمة التخلف الحضـارى بغير أن ننجـح فى سحب ملاييـن الريفيين الذين يسبحون فـى غمـار الأمية والجهل إلـى ميـادين التحديث فى مجال التعليم والتدريب والعمالـة والثقافة. ذلك أن المجتمـع العربـى لا يمكن لـه أن يتقدم محتميا بقشرة هشـة مـن المثقفيـن تحجب الآلاف مـن أنصـاف المتعلمين، الذين لم يتح لهم حقا أن يتلقوا أصول المنهـج العلمـى ولا قواعـد التفكير النقدى الخلاق.

٤-الصراع بين العلمانية والمفهوم الدينى للمجتمع:

ذكرنا من قبل أن تحديث الدين وتطبيق الديمقراطية والدعوة إلى نقل التكنولوجيـا الحديثة كانت هى المسائل الكبرى التى دار حولها الجدل منذ النهضة الحديثة.

ولقد كان الدين فى مصر القرن التاسع عشر - كمـا يقـر د. علـى الديـن هـلال - "هو أساس الوجود الاجتماعى وساعدت النظرة والتفسـيرات الدينيـة فـى تفسـير كـل مجالات الحياة الاجتماعية، وكـان المعيـار النهـائى للتقييم والإطـار الأخـير لتحديد السلوك الاجتمـاعى يقـوم علـى الديـن، وذاع تفسـير للإسـلام يتضمـن شـموله لكـل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والوجـود الإنسـانى ذاتـه باعتبـاره دينـا ودولـة، ومصدرا لكل القيم الفردية والاجتماعية، الأمر الذى تولدت عنـه نظـرة للحيـاة كـان الدين والأخلاق والسياسة فيها تشكل نظاما واحدا للقيم مصـدره الإسـلام" [١٦]. غـير أن حركة تطوير المجتمع المصرى الشاملة التى بدأها محمد على سرعان ما دفعـت إلى إعادة النظر فى هذه المقولات، سواء من حيث انسجامها أو تنافرها مـع عمليـة التحديث، أو من حيـث تـأثر بعضهـا تحـت وطـأة بدايـات التعليم العلمـانى وانتشـار الأفكار الجديدة من خلال الصحافة ونشوء أجهزة إدارية جديدة، ودخول التكنولوجيا وقيام الصناعات. وقد أدى قبول الأنماط الحديثة فى التنظيم والسـلوك إلـى الإسـراع فى وتيرة التغير الاجتماعى والثقافى، وفى هذا السياق دارت المناقشـات حـول دور الدين فى المجتمع، وعلاقة الدين بالدولة.

والواقع أن النزعة العلمانية صاحبت النهضة الأوروبية الحديثة، حتى أن عددا من المؤرخين الاجتماعيين يعتبرونها أحد الأسباب الأساسية التى أسهمت فى تحديث المجتمع الأوروبى الإقطاعى ونقله ليكون مجتمعا برجوازيا متقدما. والعلمانية على وجه التحديد تعنى:

(أ) الفصل بين السياسة والمؤسسات والإيديولوجية الدينية.

(ب) قيام النظام السياسى بأداء أدوار تنظيمية فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية كانت تمارس من قبل بواسطة المؤسسات الدينية.

(ج) تحول الثقافة السياسية من سيادة نظرة دينية إلى تأكيد غايات اجتماعية وأهداف عملية واقعية (١٧).

وقد دعا بعض المفكرين المصريين الرواد إلى أنه نظرا لكون الدين لم يعد قادرا بمفرده على تنظيم حياة المجتمع، فإنه ينبغى حصر دائرة اختصاص ونشاط المؤسسات الدينية فى المسائل المتعلقة بالفرد وضميره ووعيه، وسعوا إلى وضع الأساس لنسق علمانى للقيم يمكن لكل المواطنين على اختلاف دياناتهم أن يشاركوا فيه، وأن يتمتعوا فى ظله بواجبات وفرص متساوية.

والواقع أن هذه الدعوة لم تلبث أن تحولت إلى عقيدة سياسية فى ظل التجربة الليبرالية فى مصر (١٩٢٣-١٩٥٢) (١٨)، ففى هذه الحقبة طبق مفهوم علمانى ركز على فصل الدين عن الدولة، وانعكس ذلك فى ممارسة الأحزاب السياسية التى حرصت على تحقيق الوحدة الوطنية، غير أن بعض الجماعات الدينية ومن أبرزها "الإخوان المسلمون" تحدت المفهوم العلمانى صراحة، ودعت إلى القضاء عليه، فى ظل شعارها "الإسلام دين ودولة". غير أن ممارستها السياسية التى كانت تهدف إلى استيلاء على الحكم، أدت بها إلى الاصطدام الحاد العنيف مع الحكومات الحزبية فى مصر فى أواخر الأربعينيات، ثم سرعان ما تكرر الصدام مع ثورة يوليو ١٩٥٢. ومنذ هذا التاريخ كمنت الدعوة إلى هجر المفهوم العلمانى إلى حين. ذلك أنه عقب هزيمة ١٩٦٧ وتصاعد المد الدينى فى البلاد، نشطت الجماعات الإسلامية والإخوان المسلمين من جديد، وسرعان ما ارتفع من جديد شعار "الإسلام دين ودولة".

ولم تقنع هذه الجماعات بالنص الصريح فى الدستور على أن مبادئ الشريعة

الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع. ذلك أن طموحاتها اتجهت إلى تغيير صيغة المجتمع كله، من مجتمع علمانى إلى مجتمع دينى كامل، وقد أدى هذا إلى صدامهم من جديد مع النظام السياسى.

والحقيقة أن عدم حسم الصراع بين المفهوم العلمانى للمجتمع والمفهوم الدينى، ليس من شانه سوى مد أجل أزمة التطور الحضارى التى نعيشها حتى الآن.

إن تردد النظام السياسى المصرى فى حسم هذه القضية لا يعدله سوى تردد المثقفين العرب فى حسم قضية الأصالة والمعاصرة. وقد أدت التطورات السياسية فى العقد الأخير بهؤلاء المفكرين إلى مراجعة العديد من مواقفهم السابقة، ففشل الماركسية فى العالم العربى، وفشل التجربة الناصرية فى مصر الذى تمثل أساسا فى هزيمة يونيو ١٩٦٧، قد دفع بكثير من المثقفين ذوى الاتجاه اليسارى إلى الاقتناع بأن الإسلام لو طبق تطبيقا ثوريا قد يكون هو الحل لمشكلة الأصالة والمعاصرة المزمنة. وتحت تأثير ثورة إيران بقيادة الخومينى فى مراحلها الأولى حدثت هزة عنيفة فى أذهان الكثيرين منهم، فقد اعتقدوا أن النموذج الإيرانى، الذى هو تعبير مجسم عن ثورة الجماهير الشعبية فى ضوء الإسلام، هو الخلاص من المأزق. غير أن تردى الثورة الإيرانية فى الفوضى والقتل والدمار والممارسات غير الديمقراطية، كان بمثابة الصدمة التى جعلتهم يدركون مخاطر الحكم الدينى خصوصا حين يسيطر على الأمور رجال دين متعصبون.

وهكذا يمكن القول إن الوقت قد أزف لحل الصراع بين المفهوم العلمانى والمفهوم الدينى للمجتمع، الذى هو فى الحقيقة مجرد فرع من أصل هو إشكالية الأصالة والمعاصرة. بغير حل هذه الإشكالية ستظل مسيرتنا الحضارية تتخبط بصورة عشوائية، وسنجد أنفسنا كل عقد من السنين نغير إيديولوجيتنا، بما يعنيه ذلك من بلبلة فكرية، وفوضى قيمية، وانعدام للمعايير التى يمكن على أساسها قياس التقدم وضبط خطى التنمية وتعجيل التحديث.

٥-العمل على سيادة النظرة المستقبلية:

لن يجدينا أن نعيش فى الماضى، ولن ينفعنا وسط صراع العمالقة فى عالم اليوم التغنى بأمجادنا السابقة، ولن يصلح من حالنا اجترار فضل الحضارة العربية

الإسلامية على أوروبا. نحن فى حاجة إلــى دراسة منهجيـة ونقديـة لماضينـا، تقـوم على أحدث مناهج التاريخ الاجتماعى، حتى نقوم ممارساتنا السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعية الماضية، وحين نفعل ذلك ستتساقط كثير من الأساطير العلميـة التـى ورثناها كباحثين ومثقفين ورددناها بغير تمحيص. إن دراسة الماضى هـى الأسـاس لفهم الحاضر والنظر إلى المستقبل، والحاضر الذى نعيشه يحتاج إلى دراسة تكاملية تحيط بكل أبعاده وتكشف عن كل جوانبه. غير أنـه أصبح اليوم من المسلمات أن دراسة الحاضر ينبغى أن تتم فـى إطـار النظـر إلـى المستقبل، ومن هنـا نشأ علـم المستقبل FUTUROLOGY على اختلاف مدارسـه فـى الشرق والغرب، وعلـى تعـدد مناهجه ونظرياته، لكـى يسـاعد المخطـط الاقتصـادى والاجتمـاعى وصـانع القـرار السياسى على أن يخطط فى ضوء سيناريوهات بديلة للمستقبل، حتى يأتى تخطيطه، وحتى يصدر قراره، وهو على علم بكل البدائل المتاحة.

وخلاصة بحثنا أننا فى حاجة إلى صياغة استراتيجية حضارية متكاملة، قد يكون فى الصفحات السابقة مجرد إشارات إلى بعض ملامحهـا، وهـذه الإشـارات تحتـاج إلى تعميق وتأمل وفحص نقدى، وقبل ذلـك تحتـاج إلـى مناقشـة جماعيـة ينبغـى أن تنشغل بها الجماعة الثقافية العربية.

الهوامش:

(١) انظر كتابنا: الشخصية العربية بين مفهوم الذات وتصور الآخر، القاهرة: الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولى، ١٩٩٤.

(٢) انظر: بيتر ورسلى، العالم الثالث، ترجمة حسام الخطيب، دمشق: مشروعات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومى، ١٩٦٨.

(٣) **انظر فى ذلك المرجع الأساسى:** KARL DIETRICH BRACHER, THE GERMAN DICTATORSHIP: THE ORIGINS, STRUCTURE AND CONESEQENCE OF NATIONAL SOCIALISM, LONDON: penguin, 1963.

(٤) انظر: السيد يسين (مشرف على التحرير)، حرب أكتوبر، دراسات فى الجوانب السياسية والاجتماعية، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية والمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٧٣.

(٥) انظر: أ. جلين وآخرون، نموذج للتفاعل الفكرى لتحليل الصراع الثقافى فى العلاقات الدولية، مجلة "حل الصراع"، رقم ١، مارس ١٩٧٠. نعتمد على العرض والتحليل النقدى الذى أعده د. محمد الجوهرى فى إطار مشروع بحث "الصراع الحضارى" بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بإشراف: السيد يسين.

(٦) سبق لنا أن قدمنا دراسة استطلاعية للعلاقات المتشابكة بين الإيديولوجيا والتكنولوجيا، انظر: السيد يسين: الإيديولوجيا والتكنولوجيا، ثلاث دراسات نشرت فى مجلة الكاتب، أعداد أغسطس وسبتمبر وأكتوبر، ١٩٦٩.

(٧) انظر: د. أحمد عزت عبد الكريم، لقاء الحضارات، من بحوث ندوة التغيير الحضارى لمنطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث (١-٤ ديسمبر ١٩٧٦).

(٨) انظر: د. زكى نجيب محمود، الأصالة والتجديد فى ثقافتنا العربية المعاصرة فى كتابه: ثقافتنا فى مواجهة العصر، القاهرة: دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٧٩.

وانظر كتابه الهام الذى طرح فيه القضية طرحا متكاملا: تجديد الفكر العربى، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨. وكذلك كتابه الذى يكمل هذه الثلاثية الفكرية: المعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى، القاهرة: دار الشروق (بدون تاريخ) وانظر فى هذا الموضوع دراسة هامة: غالى شكرى، التراث والثورة، الطبعة الثانية، بيروت: دار الطليعة ١٩٧٩.

(٩) انظر: عبدالله العروى، الإيديولوجية العربية المعاصرة، ترجمة محمد عيتانى، بيروت: دار الحقيقة، ١٩٧٠.

(١٠) انظر: د. صادق جلال العظم، حول ثقافة الاستعمار وثقافة التخلف، في: الثقافة العربية، نيسان ١٩٧٣، ص ٧٣-٩٢.

(١١) انظر د. إحسان عباس، العربى الجديد وتراثه القديم، فى: الثقافة العربية، نيسان، ١٩٧٣، ص١٠٢-١١٠.

(١٢) انظر: د. قسطنطين زريق، فى معركة الحضارة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤، ص ٣٨٨ وما بعدها.

(١٣) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمى، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ١٩٧٨، ص٨.

(١٤) انظر فى معنى وأهمية النقد الاجتماعى: إدوارد كارديلى، فى النقد الاجتماعى، ترجمة: أحمد فؤاد بليغ، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨.

(١٥) انظر فى ذلك: برهان غليون، بيان من أجل الديمقراطية، بيروت: دار الطليعة ١٩٧٤.

(١٦) د. على الدين هلال، التجديد فى الفكر السياسى المصرى الحديث، أصول الفكرة الاشتراكية (١٨٨٢ - ١٩٣٢)، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥، ص ١٠٣، وما بعدها.

(١٧) المرجع السابق، ص١٠٣.

(١٨) انظر: د. عفاف لطفى السيد مارسوه، تجربة مصر الليبرالية، القاهرة: المركز العربى للبحث والنشر، ١٩٨١.

تعقيب د. محمد عابد الجابرى

كنت أنتظر أن يتناول الأستاذ الصديق السيد يسين الموضوع من موقعه كعالم اجتماع وخبير استراتيجى، فيركز على الجانب الميدانى التطبيقى فى الموضوع الذى بين أيدينا: موضوع المسألة الثقافية فى التسوية السلمية بين العرب وإسرائيل، وحينئذ ستكون مهمتى، بوصفى أحد المنتمين إلى حقل الفلسفة، العمل على التأكيد أو على الأقل إبراز، الجانب الحضارى العام فى المسألة. إن الاختصاص يفرض هذا المنحى، فعلم الاجتماع ينطلق من الجزئيات إلى الكليات، من المشخص إلى المجرد، أما الفلسفة فموضوعها الكليات والمجردات.

لكن الذى حصل هو أن الأستاذ يسين احتل موقعى، وأنا متأكد أنه لم يكن على علم بأنى سأكون المعقب على بحثه القيم، ولو علم ذلك لسلك مسلكا آخر فى البحث ليترك لى المجال الذى يعرف أنى لا أرتاح للكلام إلا فيه بحكم الاختصاص. لقد تناول الأستاذ يسين الموضوع من زاوية الصراع الحضارى فركز على إشكالية الأصالة والمعاصرة وعلاقة السياسى بالدينى. وهذه هى الموضوعات التى تمرنت على الكلام فيها. فهل سأكرر ما قاله أم أنه من الضرورى أن ألتمس لنفسى طريقا للاختلاف معه؟

والحق أنى أجد نفسى مضطرا إلى تبادل المواقع مع الصديق الأستاذ يسين، وبالتالى فأنا لن أعقب على بحثه بل سأستفيد منه فى احتلال الموقع الذى هو موقعه أصلا: موقع الخبير الاستراتيجى وعالم الاجتماع، وبما أن المجال ليس مجالى فإنى افترض مسبقا أن ما سأقوله يحتاج إلى تعديل وتصحيح، ولذلك فأنا أطلب من

رئاسة الجلسة أن تعطيه الكلمة بعدى ليتولى التعقيب على ما سأقدمه ليصحح ويعدل ويضيف.

سأستعير من الأستاذ يسين قضيتين: الأولى نظرية، والثانية منهجية.

القضية النظرية هى ما وصفه بـ "الفكرة الرئيسية" فى بحثه، وهى "أن إسرائيل لا تقدم نموذجا حضاريا يستحق الاقتداء به". وأنا أوافقه على هذه المقدمة، ولكننى لا أرى أنه من الضرورى الانتقال مباشرة إلى النتيجة النهائية التى تترتب عليها والتى أبرزها الأستاذ يسين، وهى أن المشكلة هى مشكلتنا نحن. مشكلة "أزمة التطور الحضارى العربى"، وأن المهمة المطروحة هى "صياغة استراتيجية حضارية عربية قادرة على التعامل مع المشكلات التى يثيرها عصرنا، وتكون هى وسيلتنا فى القضاء على التخلف والانطلاق فى مجال التقدم". هذه النتيجة صحيحة سواء ربطناها بالمقدمة السابقة أم بغيرها من المقدمات التى تعبر عن الواقع العربى الراهن.

غير أن صحة هذه النتيجة والمقدمة التى بنيت عليها لا تعنى أن المسألة الثقافية فى التسوية السلمية بين العرب وإسرائيل ذائبة فى "أزمة التطور الحضارى العربى"، وبالتالى أصبحت غير ذات موضوع. ذلك لأن القضية المطروحة فى هذا المجال ليست "أزمة التطور الحضارى العربى"، بل هى ما يعبر عنه اليوم بـ "التطبيع" مع إسرائيل والمسألة الثقافية عندما تطرح فى إطار مناقشة التسوية السلمية بين العرب وإسرائيل تتلخص فى بند رئيسى واحد هو: "التطبيع الثقافى مع إسرائيل". والمفاوض العربى الذى سيتولى مع المفاوض الإسرائيلى البحث فى مسألة "التطبيع الثقافى" فى حاجة إلى استراتيجية وإلى أفكار، واعتقد أن المهمة الأساسية لندوتنا هى صياغة أو على الأقل التفكير فيما يمكن أن نعبر عنه بـ "وجهة النظر العربية"، التى يجب أن يتحرك داخلها المفاوض العربى.

وما دام الأمر يتعلق بالتفكير فى الموضوع داخل إطار عملى ظرفى هو المفاوضات الجارية مع إسرائيل فإنى سأستعير هنا من الأستاذ سيد يسين "النموذج" الذى ذكره منسوبا إلى باحثين أمريكيين، كطريقة مقترحة لحل الصراعات القائمة على مصالح، وهو نموذج "نظرية الألعاب"، وهذا جزء من القضية المنهجية التى أستعيرها منه، أما الجزء الآخر فسأذكره بعد توظيف هذا النموذج.

إن النماذج التى من هذا النوع هى أصلا قوالب صورية فارغة. وإذا كان الباحثون الأمريكيون قد حاولوا ملء النموذج المذكور بمضامين، معينة تضمر انحيازا لإسرائيل، فليس من الضرورى الأخذ بهذه المضامين، إذ من الممكن ملؤها بمضامين أخرى عادلة وغير منحازة، وهذا ما سأحاول فعله.

سأنظر إذن إلى مسالة "التطبيع الثقافى" مع إسرائيل من خلال عملية التسوية السلمية المتفاوض عليها الآن. وسأعالجها هى الأخرى فى إطار نموذج "نظرية الألعاب" التى تقوم على أن كل طرف يسعى ليكسب أكثر ما يمكن وليخسر أقل ما يمكن فى إطار احترام قواعد اللعب، التى تقضى بأن الوسيلة الوحيدة المشروعة فى الكسب أو الخسارة هى المهارة والحجة الدامغة. أما المنطق فهو المبدأ أو المبادئ المتفق عليها كأساس لـ "اللعب" أى للتفاوض.

لنبدأ إذن من المبدأ / المنطلق فى التسوية السلمية العربية - الإسرائيلية: إنه كما نعرف جميعا مبدأ: "الأرض فى مقابل السلام" ويقضى هذا المبدأ من جهة باعتراف العرب بإسرائيل فى حدودها قبل سنة ١٩٦٧، ومن جهة أخرى انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية التى احتلتها فى العام نفسه. ومفاوضات التسوية السلمية موضوعها الأساسى والرئيسى، إن لم يكن الوحيد، هو الوصول إلى تشخيص هذين الجانبين المتلازمين: الاعتراف العربى والانسحاب الإسرائيلى.

وهنا مسألتان لابد من أخذهما بعين الاعتبار: الأولى: إجرائية والثانية: مبدئية. أما المسألة الإجرائية: فهى أن تحقيق الاعتراف العربى بإسرائيل والانسحاب الإسرائيلى من الأرض التى احتلتها سنة ١٩٦٧ يتطلب وقتا، وبالتالى يجرى على مراحل (لأن الانسحاب لم يأت نتيجة هزيمة عسكرية كما أن الاعتراف ليس نتيجة تسليم بالهزيمة). وأما المسألة المبدئية فهى أن مبدأ "الأرض فى مقابل السلام" يعنى، على الأقل معناه الأولى المباشر، أنه عندما يتم الانسحاب الإسرائيلى والاعتراف العربى بالحدود التى كانت لإسرائيل قبل حرب ١٩٦٧، يكون السلام الذى هو فى مقابل الأرض قد تحقق، فالسلام هو إنهاء الحرب.

نعم، من حق إسرائيل أن تطالب بتوسيع مفهوم السلام ليشمل جميع نواحى الحياة المدنية، ومن حقنا نحن العرب أن نطالب بذلك أيضا. من حق إسرائيل أن تطالب بأن يتجسم السلام، أولا وقبل كل شئ، فى الاعتراف الديبلومسى وتبادل السفراء مع

جميع الدول العربية، ومن حقنا نحن العرب أن نطالب بتعميم هذا المطلب نفسه على مجموع الأراضي التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧، الشئ الذى يعنى اعترافها بالدولة التي يقيمها سكان هذه الأرض لأنفسهم حسب اختيارهم. وهنا فقط سيتحقق الاعتراف المتبادل كاملا بين العرب وإسرائيل، فالعرب دول من بينها دولة فلسطين.

وعندما يتم هذا الاعتراف الديبلوماسي المتبادل الذى يشمل اعتراف إسرائيل بالدولة الفلسطينية التي يقيمها الفلسطينيون على جميع الأراضي الفلسطينية التي احتلتها إسرائيل سنة ١٩٦٧، بما في ذلك القدس الشرقية، حينئذ يمكن لإسرائيل إن أرادت، والعرب إن رغبوا في ذلك، طرح مسألة "التطبيع". و"التطبيع" معناه جعل العلاقات بين العرب وإسرائيل علاقات طبيعية، أي إزالة ما هو غير طبيعي من منظور الأعراف والقوانين الدولية الجارية. والسؤال الآن هو التالي: ما هي المعطيات التي لا تدخل في "ما هو طبيعي" في العلاقات بين الدول؟

بإمكان المفاوض الإسرائيلي أن يقول: إن ما هو غير طبيعي في العلاقات العربية - الإسرائيلية هو أولا المقاطعة الاقتصادية التي يمارسها العرب على إسرائيل وعلى الشركات التي تتعامل معها، وبإمكان المفاوض العربي أن يقول: هذا صحيح، ولكن صحيح أيضا ما هو غير طبيعي في العلاقات العربية الإسرائيلية وهو وجود المستعمرات الإسرائيلية على أرض الدولة الفلسطينية وبقاء اللاجئين الفلسطينيين منذ سنة ١٩٤٨ خارج أرضهم وديارهم، وتجاهل إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة في هذا الشأن. وإذن ففي مقابل رفع الحصار العربي الاقتصادي، يجب على إسرائيل أن تطبق قرارات الأمم المتحدة بخصوص المستعمرات واللاجئين، والمفاوضات في هذا الشأن يمكن أن تكون طويلة ومرحلية، أو سريعة وشاملة، حسب الطريقة التي تختارها إسرائيل في ممارسة "اللعب".

وعندما يتم تطبيق مبدأ "الأرض في مقابل السلام" باعتراف إسرائيل بالدولة الفلسطينية في حدود ١٩٦٧ وانسحابها من الجولان انسحابا كاملا، وعندما يتم الاتفاق على مكونات الجانب الاقتصادي في العلاقات العربية - الإسرائيلية وهي أساسا سحب المستوطنات وعودة اللاجئين او تعويضهم ورفع المقاطعة الاقتصادية العربية، حينئذ فقط يأتي دور الثقافة و"التطبيع الثقافي".

و"التطبيع الثقافى" كـ "التطبيـع الاقتصـادى" و"التطبيـع الدبلوماسـى" معنـاه "جعـل الأمور طبيعية". والسؤال الآن هو ما هو أو الأوضاع التى هى "غير طبيعيـة" فـى الميدان الثقافى بخصوص العلاقات العربية الإسرائيلية؟.

يمكن تلخيص المسألة فى القول: إن كـلا مـن إسـرائيل والعرب قد كـون لنفسـه ثقافة خاصة ضد الآخر: إسرائيل أنتجت ثقافة خاصة ضد العرب ومعاديـة للعـرب، والعرب فعلوا مثل ذلك أيضا، ولكن مع هذا الفـارق: وهـو أن الثقافـة التـى أنتجتهـا إسرائيل ضد العرب لم تحصرها فى دائرة الشعب الإسرائيلى وحده بل عممتها على العالم، خاصة على أوروبا وأمريكا. هذا فى حين أن الثقافة التى كونها العرب ضـد إسرائيل محصورة فى الدائرة العربية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالثقافة التـى أنتجتها إسرائيل ضد العرب ونشرتها فى الغرب خاصـة هـى ثقافـة هجوميـة، بينمـا بقيت الثقافة التى كونها العرب لأنفسهم عن إسرائيل ثقافة دفاعية، وهى فى جملتهـا مجرد ردود فعل مع تشكيات. وهذان الجانبان لابد من أخذهما بالاعتبار الكامل عند الحديث عن "التطبيع الثقافى": فعلى إسرائيل أن تسحب الثقافة المعادية للعرب والتى نشرتها فى أوروبا وأمريكا بنجاح نظرا لتمكن الحركة الصهيونيـة مـن التغلغل فـى وسائل الإعلام الدولية، مما أدى إلى تشويه صورة العـرب وصـورة الإسـلام دوليـا بالشكل الذى نعرف، أما العرب فليس هناك ما يسحبونه من العالم كمقابل، لأنهم لـم يشوهوا صورة إسرائيل فى الخارج، بل لم يستطيعوا حتى إقناع الغـرب بـالتصرف معهم علـى أسـاس مـا يعرفـه هـو - أى الغـرب - حـق المعرفـة وهـو أنهـم، أعنـى العرب، معتدى عليهم سلبت حقوقهم وشوهت صورتهم.

ومع ذلك فلابد من قبول مبدأ التعامل بالمثل وتطبيق نموذج "نظرية الألعاب" فـى مجال التفاوض بهدف "التطبيع الثقافى"، وهو شئ يمكن أن يتم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تشكيل لجنة مختلطة من الخـبراء العرب والإسـرائيليين للبحـث فى طريقة سحب الصورة المشوهة التى نشرتها الصهيونية عن العـرب فـى العـالم. مـن ذلـك مثـلا إحصـاء الكتـب والمقـالات والأفـلام وجميـع المنشـورات المكتوبـة والسمعية والبصرية، القديمة والحديثـة، التـى تنـال مـن قريـب أو بعيد مـن صـورة العربى وسمعته وسحبها من العالم كله والتدخل لدى الدول والشـركات ودور النشـر لسحبها والالتزام بعدم نشرها أو إعادة إنتاجهـا، والشـئ نفسـه يجـرى علـى مـا قـدم

هناك فى الأسواق العالمية من نصوص عربية أو ذات مصدر عربى تشوه صورة الإنسان الإسرائيلى.

المرحلة الثانية: تشكيل لجنة مختلطة من الخبراء العرب والإسرائيليين تكون مهمتها القيام بعملية استكشاف واسعة للعناصر التى تتكون منها الثقافة المضادة للعرب داخل إسرائيل والمضادة لإسرائيل داخل الأقطار العربية، وهذا الاستكشاف يجب أن يشمل الكتاب الثقافى والفنى والتاريخى والكتب المدرسية والبرامج الدراسية والمجلات والصحف وجميع المنشورات المكتوبة والسمعية والبصرية.

وعندما تنجز هاتان المرحلتان بنجاح، وعندئذ فقط، تأتى المرحلة الثالثة التى تخص تشييد علاقات ثقافية بناءة بين الطرفين، وذلك عبر تبادل البعثات الثقافية والمنشورات والزيارات كما هو الشأن فى العلاقات العادية بين الدول. واعتقد أن من جملة المهام التى يمكن أن يجعلها معهد البحوث والدراسات العربية، الذى يستضيفنا اليوم، على رأس برامجه المساهمة فى إعداد دراسة عملية مفصلة عن الثقافة المضادة التى شيدتها إسرائيل لنفسها وللعالم عن العرب، وتلك مهمة ضرورية ومستعجلة، لأنها ستكون - افتراضا على الأقل - المادة الأساسية فى ملف المفاوض العربى فى موضوع التطبيع الثقافى مع إسرائيل.

التسوية السلمية مع إسرائيل، أيها السادة، محكومة بمبدأ "الأرض مقابل السلام". وإذن فالسلام مع إسرائيل يجب أن ينطلق من الأرض ليصل إلى السلام وليس العكس. يجب أن ينطلق، أولا، من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ التى يجب أن تعود كما كانت، ومن سكانها الذين يجب أن يعودوا إلى ديارهم، لينتقل إلى الاعتراف المتبادل بين إسرائيل وجميع الدول العربية بما فيها دولة فلسطين، ثم إلى تطبيع العلاقات الاقتصادية وسحب المستوطنات وحل مشكلة اللاجئين القدامى، وإلى سحب الصورة المشوهة التى شيدها كل من الطرفين عن الطرف الآخر عالميا ومحليا، وأخيرا، فقط، تبادل البعثات والزيارات والمنشورات. وهذا المسلسل الذى ينطلق من الأرض المحتلة إلى الصورة المشوهة يمكن، بل يجب أن يطبق فيه نموذج "نظرية الألعاب" لحل الصراعات، الذى ذكره الأستاذ يسين فى بحثه.

هناك النموذج الثانى لحل الصراعات، ويعبر عنه بـ "صراع الفهم"، وهو الجزء الثانى من القضية المنهجية التى أستعيرها من الأستاذ يسين، لقد استبعده لكون

أصحابه صاغوه بصورة منحازة لإسرائيل. سأستعير هذا النموذج أيضا الذى ركز عليه الأستاذ يسين فى بحثه، قضية بناء استراتيجية حضارية لإعادة بناء الذات العربية بالصورة التى تمكنها من مواجهة التحديات الراهنة، بما فى ذلك التسوية السلمية الجارية الآن مع إسرائيل، والاختراق الثقافى الذى يمارسه الغرب.

وهنا سأركز كما فعل الأستاذ يسين على القضية التى اعتبرها مسألة المسائل فى الظرف الراهن، وهى العلاقة ما بين السياسى والدينى فى مجتمعاتنا العربية. إن نموذج "صراع الفهم" يصلح للتطبيق هنا لأن المسألة، مسألة السياسى والدينى فى مجتمعاتنا، هى أولا وقبل كل شئ مسألة فهم وتفاهم، ولأن تحقيق الفهم والتفاهم يحتاج فعلا إلى ما أسماه مقترحو هذا النموذج بـ "الأفكار الوسيطة".

لنبدأ أولا بالجانب الذى يتعلق بـ "الفهم" لنعود بعد ذلك إلى الجانب الذى يخص "التفاهم". لقد عبر الأستاذ يسين عن موضوع الصراع، كما يراه، تعبيرا صريحا حين سماه بـ "الصراع بين العلمانية والمفهوم الدينى للمجتمع"، وحين أكد ذلك بقوله: "الحقيقة أن عدم حسم الصراع بين المفهوم العلمانى للمجتمع والمفهوم الدينى ليس من شأنه سوى مد أجل أزمة التطور الحضارى التى نعيشها الآن"، ثم أضاف قائلا: "إن تردد النظام السياسى فى مصر فى حسم هذه القضية لا يعدله سوى تردد المثقفين العرب فى حسم قضية الأصالة والمعاصرة".

وقبل أن أدلى برأيى فى الطريقة التى أقترحها لتوظيف نموذج "صراع الفهم" بهدف تجاوز هذا الصراع أحب أن أسجل اختلافى مع الأستاذ سيد يسين فى مسألتين، هو يعلم منذ وقت طويل أن رأيى فيهما يختلف عن الطريقة التى عبر بها عنهما، المسألة الأولى هى أننى أرى - وهذا قلته منذ سنوات - أن مصطلح "العلمانية" مصطلح لا يساعد على التفاهم حين يستعمل فى وضعية كوضعيتنا فى العالم العربى. ذلك لأن هذا المصطلح يفقد قسما كبيرا من مضمونه إذا استعمل فى مجتمع لا كنيسة فيه، وبالتحديد الكنيسة الكاثوليكية كما كانت قبل لجوء الأنظمة الأوروبية إلى العلمانية. إن العلمانية تعنى فى الزمان والمكان اللذين استعملت فيهما، أعنى أوروبا القرن التاسع عشر، تعنى ما يلى منقولا عن معجم روبير الفرنسى: "العلمانية هى المبدأ الذى يقضى بالفصل بين المجتمع المدنى والمجتمع الدينى، وذلك بأن تكف الدولة عن ممارسة أية سلطة دينية، وأن تكف الكنائس عن

ممارسة أى سلطة سياسية". ويستشهد المعجم المذكور بالفيلسوف العلمانى الفرنسى المشهور، إرنست رينان، الذى قال: "العلمانية، أى الدولة التى تلتزم الحياد إزاء الأديان". ومعلوم أن مفهوم "العلمانية" عند الفرنسيين هو أقوى وأكثر جذرية منه عند الدول الأوروبية الأخرى مثل إنجلترا وألمانيا وهولندا.. إلخ. وذلك لأسباب تاريخية ترجع إلى اختلاف الكنيسة الكاثوليكية عن المذهب البروتستانتى.

ومهما يكن فإن مصطلح "العلمانية" هو فى نظرى مصطلح غير إجرائى ومثار كثير من اللبس والخلط عندما يستعمل فى الطرف المقابل للإسلام. ذلك لأنه مهما كان دور الفقهاء وعلماء الدين فى الإسلام قديما وحديثا فإنهم لا يشكلون مؤسسة دينية، وإذا كان بعضهم يمارس تأثيره فى وقت من الأوقات بمثل قوة المؤسسة الدينية فإن ذلك ليس من الإسلام فى شئ. ومن هنا ذلك اللبس الذى تثيره العبارة التى يعبر بها عن مضمون العلمانية، أعنى: "فصل الدين عن الدولة" ذلك لأن الدعوة إلى "فصل الدين عن الدولة" فى مجتمع لا كنيسة فيه تعمل كمؤسسة دينية تحدد قواعد الإيمان وتحتكر التعليم بوصفه يتعلق بالروح لا بالبدن، وهى صاحبة السلطة على الروح، وأكثر من ذلك تتدخل فى شئون الحكم والسياسة بدعوى أن سلطة الحاكم من ذات نفسه أو من البشر الذين معه، فى حين أن سلطة الكنيسة هى من الله خالق البشر إلخ - إن غياب الكنيسة بهذا المعنى يجعل مضمون عبارة "فصل الدين عن الدولة" ينصرف إلى شئ واحد غير مقصود وهو فصل الدين عن المجتمع، أى تجريد الناس من الدين، وهو ما يسمى باللادينية، وهذا ليس من معانى العلمانية إطلاقا. وتجنبا لهذا اللبس اقترحت منذ عقد من السنين الاستغناء عن مصطلح "العلمانية" وتعويضه بشعارى العقلانية والديمقراطية، ذلك لأن "العلمانية" فى مضمونها الواسع تعنى ثلاثة أشياء: الفصل بين الدولة والكنيسة، والروح النقدية العقلانية. والممارسة الديمقراطية فى كافة مجالات الحياة. والعقلانية والديمقراطية مفهومان لا يدخلان فى "فصل الدين عن الدولة"، خصوصا عندما يكون الدين هو الإسلام الذى يعلى من شأن العقل ويتخذ من الاجتهاد مصدرا للتشريع، كما يعلى من شأن الشورى وهى، بالكيفية التى مورست بها زمن الخلفاء الراشدين، الديمقراطية نفسها كما من الممكن تطبيقها فى ذلك العصر، ولا شئ يمنع من تطبيق الشورى اليوم بالصورة التى تستجيب لظروف عصرنا، أعنى صورة الديمقراطية الحديثة.

هذا عن المسألة الأولى التى اختلفت فيها مع الأستاذ السيد يسين، والاختلاف بيننا هنا هو فى حده الأدنى اختلاف فى التعبير، وفى حده الأقصى اختلاف فى استراتيجية الخطاب، وهو فى جميع الأحوال ليس بالاختلاف الذى يستعصى على التفاهم.

أما المسألة الثانية التى أختلف معه فيها فهى مدلول قوله: "إن تردد النظام السياسى المصرى فى حسم هذه القضية... "قضية ما عبر عنه بـ "الصراع بين المفهوم العلمانى للمجتمع والمفهوم الدينى". وربما يرجع اختلافى معه فى هذه المسألة إلى كونى من بلد ينتمى فيه المثقفون دائما منذ الاستقلال وقبله إلى اليوم إلى صف المعارضة، فنحن فى المغرب لا ننتظر من الدولة، حتى ولو كنا على وفاق معها، أن تحسم فى هذه القضية، لأن التجربة علمتنا أن ننظر إلى الدولة من منظور أنها تقف دائما موقفا براجماتيا فى الصراعات التى تنشب فى المجتمع. إنها لا تحسم الصراعات التى من هذا النوع لأنه ليس من مصلحتها ذلك، وهى مع مصلحتها، تميل معها حيث مالت. هذا جانب، أما الجانب الآخر فيتعلق بأمثلة تقدمها لنا دول تبنت العلمانية ولكنها لم تستطع أن تحقق "الحسم" فى القضية التى أثارها الأستاذ السيد يسين. فـ "النظام السياسى" فى تركيا تبنى صراحة وبعنف العلمانية منذ سبعين سنة، وأكثر من ذلك عمد إلى تبنى الحروف اللاتينية، ليس فقط لكونها سهلة "وعالمية"، كما يقال، بل أيضا لعزل النص الدينى الإسلامى المقدس عن لغة الشعب، ومع ذلك كله فحضور الإسلام فى المجتمع التركى، بما فى ذلك الحركات الإسلامية المتطرفة، هو على ما نرى ونشاهد. وكذلك الشأن فى إسرائيل حيث يتبنى نظامها السياسى العلمانية، ومع ذلك فالدين والتطرف الدينى حاضر فى مجتمعها بالصورة التى نعرف، وقل مثل ذلك فى روسيا وبولونيا والدول الأخرى التى كان النظام السياسى فيها شيوعيا يعتقد أنه "حسم" فى المسألة موضوع حديثنا، غير أن المظاهر كانت على غير ما كانت عليه حقيقة المجتمعات هناك.

إذا نحن اتفقنا على هذا النوع من الفهم الذى يستبعد مصطلح "العلمانية" ويتمسك بدلا عنها بالعقلانية والديمقراطية من جهة، وصرفنا النظر من جهة أخرى عن دور "النظام السياسى" أى الدولة فى هذه المسألة، سهل علينا "التفاهم"، وصار البحث عن "أفكار وسيطة" أمرا ممكنا. إن المسألة كما حددها الأستاذ يسين بحق هى مظهر من مظاهر إشكالية الأصالة والمعاصرة، أو التراث والحداثة، وهذه مسألة تخص

المثقفين أولا وأخيرا. إنها قضية النخبة المثقفة. إن المشكلة من الوجهة السوسيولوجية والأيديولوجية هى انقسام النخبة المثقفة العربية عموديا إلى شطرين لكل منهما مرجعيته ورؤيته ونموذجه: الحداثيون والتراثيون.

فمن الناحية السوسيولوجية يرجع هذا الانشطار إلى تعاقب النخب تعاقبا سريعا فى وطننا العربى مع وصول المجالات التى تستوعب النخب الجديدة كمجال للعيش إلى حالة الإشباع والانغلاق. وإذا نحن نظرنا إلى هذا التعاقب فى النخب من زاوية أنه يعكس حراكا اجتماعيا غير منضبط ولا ناضج، قوامه الهجرة من البادية والأرياف إلى المدن بسبب غياب تنمية متكاملة، وبسبب الظروف الاقتصادية والفوارق الاجتماعية التى نعرف، أمكننا أن نرى فى الظاهرة أساسها الاقتصادى - الاجتماعى الذى لا يجوز إغفاله والذى لابد من معالجته إذا أردنا لأية تنمية على المستوى الثقافى أن يضمن لها النجاح والاستمرار.

هذا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية، أما من الناحية الثقافية فالانشطار الذى نتحدث عنه يرجع فى قسم كبير منه إلى عدم وجود مرجعية واحدة مشتركة بين المثقفين العرب المعاصرين. هناك مرجعيتان اثنتان يرتبط بهما المثقفون والمؤسسات التعليمية فى مجتمعاتنا: المرجعية التراثية العربية الإسلامية، والمرجعية الأوروبية الحداثية. والصراع هنا هو فى قسم كبير منه صراع بين مرجعيات. والصراع بين المرجعيات هو غير الصراع الأيديولوجى، ذلك لأن الاختلاف فى الرؤى والإيديولوجيات يكون أيضا داخل المرجعية الثقافية الواحدة كما هو فى الأقطار الأوروبية، وذلك ما يسهل التفاهم ويجعل الاختلاف محصورا فى المصالح، وبالتالى يجعل الصراع قابلا للمعالجة بواسطة نموذج "نظرية الألعاب".

أما عندما يكون الصراع صراعا بين مرجعيات فضلا عن كونه يرتبط بمصالح مختلفة فإن نموذج "صراع الفهم " يبدو إجرائيا فى هذا المجال.

يقوم هذا النموذج، كما شرح ذلك الأستاذ يسين، على تنظيم حوار يهدف إلى التقريب بين الطرفين المتنازعين وذلك بتوظيف أفكار وسيطة تجعل من الحوار حوارا متناميا إلى أن يصبح كل طرف اختصاصيا فى مرجعية الآخر، معرفية كانت أو إيديولوجية، وهذا النوع من الحوار يمكن أن يجرى على مستويات متعددة:

على صعيد الجامعة، المنشورات المكتوبة والسمعية والبصرية، كما على مستوى منظمات المجتمع المدنى.

إن المجال لا يسمح هنا بتفصيل القول فى هذا الموضوع: ولذلك سأقتصر على الإشارة إلى ما سبق أن ناديت به من قبل وهو ضرورة قيام كتلة تاريخية بين جميع القوى والفصائل الفاعلة فى المجتمع، انطلاقا مما أكدته التجربة من أنه لم يعد من الممكن قط لأى حزب أو فصيل أو حركة أو تيار فى أى قطر عربى أن يقوم بمفرده بحل المشاكل المطروحة. إن تجاوز وضعية الأزمة الخطيرة القائمة حاليا يتطلب قيام كتلة تاريخية انطلاقا من إجماع ثقافى على القضايا الوطنية والقومية التى تشكل القاسم المشترك بين الجميع. قضية التنمية، قضية الفوارق بين الأرياف والمدن واستفحال الفوارق الطبقية، قضية الديمقراطية، قضية التسوية السلمية مع إسرائيل، قضية التعاون العربى والتضامن الإسلامى إلخ. هذه الموضوعات وأمثالها يمكن أن يجرى الحوار حولها والوصول إلى أفكار وسيطة تسمح بالتخفيف من الصراع، فضلا عن أن الحوار فى هذه الموضوعات قد يفسح المجال لنوع جديد وعميق من الفهم والتفاهم قوامها فهم كل طرف للطرف الآخر من داخل مرجعيته وصولا إلى بناء مرجعية مشتركة. ويمكن فى هذا المجال استلهام طريقة ابن رشد فى الانتخابات العامة، وقد اهتز وضعها أكثر بسبب رد الفعل البطئ من جانبها للتهديد العسكرى العربى".

غير أن ثمة مظهرا آخر هاما أشارت إليه صحيفة التايمز فى معرض تحليلها للآثار السياسية لحرب أكتوبر، وهو الذى يتمثل فى تدعيم النزعات القومية لدى العرب فى إسرائيل، أو الواقعين تحت الاحتلال الإسرائيلى. فقد كتب مراسل الصحيفة فى القدس يقول: "أن العرب فى الضفة الغربية يتشبثون بكل كلمة فى البيانات العسكرية العربية، كما أنهم يعربون عن شكوك كبيرة بالنسبة للادعاءات الإسرائيلية، ويحسون أن أسطورة الجبروت الإسرائيلى قد تحطمت، وانتهى أى انطباع بأن العرب لا يستطيعون القتال". وهذا التطور يثير مصاعب ضخمة ولا شك فى وجه محاولات إسرائيل لاستيعاب العرب المقيمين فى المناطق المحتلة فى إطار نظمها.

خاتمـــــة:

إذا كنا قد استعرضنا فيما سبق، ردود فعل أهم الصحف العالمية لحرب أكتوبر ١٩٧٣. فلابد من التسليم بأن اهتمامنا قد انصب على الصحافة الأوربية والأمريكية، بحيث أن تبرز مواقف الصحافة فى العالم الثالث من الحرب وآثارها فيما قدمناه. وليس هذا تقليلا من أهمية هذه الصحف، أو حكما ضمنيا على أسلوب تناولها لحرب أكتوبر، ولكن من الواضح أن صحافة الدول الأفريقية والأسيوية ودول أمريكا اللاتينية، تعبر عن خصائص واتجاهات متميزة يحسن تناولها فى موضوع مستقل.

وإذا كنا قد لمسنا تغيرا واضحا فى الصورة التى تناولت بها صحافة العالم حرب أكتوبر ١٩٧٣ بالقياس إلى حرب يونيو ١٩٦٧، فإن هذا لا ينفى حقيقة أن الاتجاه الغالب حتى اليوم فى صحافة مناطق معينة من العالم، وخاصة أوروبا الغربية وأمريكا ما زال متحيزا لإسرائيل، وهو ما يؤكد أن الأعلام الصهيونى الخارجى ما زال قويا ومؤثرا منطلقا من دراسة عميقة للطابع القومى فى كل بلد يتوجه إليه، وخصائص الرأى العام المحلى فيه، وكيفية كسب الأنصار المحليين فى مراكز التأثير على الرأى العام وأهمها الصحافة، أو أن الأعلام العربى الخارجى ما زال من جانب آخر دون المستوى المطلوب، من حيث التخطيط والتنفيذ، أو الأمرين معا، وهو ما يستدعى تحركا إعلاميا عربيا جديدا، يتسم بالتخطيط والتنسيق والتكامل والعلمية، لتحقيق مزيد من الفهم العالمى لعدالة القضية العربية، باعتبارها حلقة فى سلسلة نضال الإنسانية الطويل ضد الاستعمار والعنصرية لتحقيق الحرية، وإرساء أسس السلام العادل.



TOBGY PRESS TLL:3562364

الصراع العربي الإسرائيلي

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات التحليلية والنقدية المترابطة عن الصهيونية باعتبارها أيدولوجية عنصرية، بالإضافة إلى التحليل المنهجي لبنية المجتمع الإسرائيلي مع قراءة سياسية لخريطة الشخصية الإسرائيلية. وهذه الدراسات النقدية كانت أساسا لتحليل اتجاهات الرأى العام الإسرائيلي في مرحلة مبادرة السلام التي قام بها الرئيس أنور السادات وما تبعها من مفاوضات بين الدولة الإسرائيلية ومصر والتي أدت في النهاية إلى توقيع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

وإذا كانت دولة إسرائيل بمساعدة الضغوط الأمريكية قد استطاعت أن تلغى قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بأن الصهيونية أيدولوجية عنصرية فلا يعني ذلك على وجه الإطلاق نزع هذه الصفة العنصرية عن الصهيونية. ولعل مما يؤكد ذلك تلك الممارسات العنصرية التي تطبقها إسرائيل على الدوام ضد الشعب الفلسطيني.

ويضم الكتاب مجموعة من المقالات تناولت مشكلة التطبيع والخلافات المحتدمة حولها في الأوساط الثقافية المصرية. وهي أيضا تنقد الدعوة إلى ما يسمى بثقافة السلام التي يدعو لها بعض المثقفين المصريين الذين يروجون لتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل. وهذا التيار في الواقع تتبناه قلة [illegible] وزن حقيقي بين المثقفين المصريين.

وينتهي الكتاب بدراسة مستقبلية عن الصراع الحضاري بين مصر وإسرائيل تقوم على أساس حتى إنه لو انتهى الصراع العسكري، فإنه سيظل قائما على الصعيد الحضاري.

وفي هذا المجال فلابد لمصر من خلال مشروع حضاري قومي أن تنتزع زمام المبادرة التاريخية.



ميريت
للنشر والمعلومات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد